عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

المستقبل

ستة محركات للتغيير العالمي

(الجزء الأول)

تأليف: آل غور

ترجمة: د. عدنان جرجس




المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

المستقبل

ستة محركات للتغيير العالمي
(الجزء الأول)

تأليف: آل غور

ترجمة: د. عدنان جرجس



أبريل 2015
423

عالم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص . ب : 28613 – الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون : 22431704 (965)
فاكس : 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 449 - 8

رقم الإيداع (2015/189)

العنوان الأصلي للكتاب

The Future

Six Drivers of Global Change

By

Al Gore

Random House, New York 2013

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

جُمادى الآخرة 1436 هـ ـ أبريل 2015

المحتوى

المقدمة

مثل الكثير من الرحلات التي تُحقق غاياتها، لم يبدأ هـذا الكتاب بتقديـم إجابات بل بطرح سـؤال. قبل ثماني سـنوات، عندما كنت مسافرا، سـألني أحدهم: «ما محركات التغيير العالمي؟» أدرجت له قائمة لعدة عوامل مألوفة يُشْـتَبه في ضلوعهـا في هذا التغيير، وتركـت الأمر عند هذا الحد. لكن في صبيحة اليـوم التالي، وأنا عائد إلى الوطـن في رحلة جوية طويلة، بدأ هذا السـؤال يـراودني بإلحاح مطالبا بإجابـة وافية وأكثر دقة وتفصيلا، ليس بالاعتماد على مُسـلّمات مسـبقة بل مـن خلال تتبع الأدلة الناشـئة حـول العالم الناشـئ حيثما وُجِدَتْ. اتضـح فيما بعد أن هذا السـؤال كان له مسـتقبل خاص بـه. وبدأت في وضع المخطـط التمهيدي على جهاز الحاسـوب الخـاص بي، وأمضيـت عـدة سـاعات في إدراج وتدويـن العناوين الرئيسـة والعناوين الفرعية، ومن ثم تغيير ترتيبها حسـب مراتبها وحجومها النسـبية، ونقلها من فئة إلى أخرى ووضع مزيد من التفاصيل بعد كل إعادة قراءة.

«مثلـما يمكن للتفاؤل السـاذج أن يصل إلى درجة خداع الذات، كذلك يمكن للتمادي في التشاؤم أن يعمينا عن أسـس الأمل المشروع بإمكانية إيجـاد مسـار يقودنـا إلى تجنب وتجاوز المخاطر التي تتربص بنا»

ومع عملي في السنوات اللاحقة في مجال نشر الوعي حول تغير المناخ والسعي في مجال الأعمال، واصلت إعادة النظر والمراجعة والتنقيح في المخطط التمهيدي وصقله إلى أن توصلت أخيرا في السنتين الماضيتين إلى نتيجة مفادها أن هذا السؤال لن ينكفئ عني حتى أقوم بسبر أغواره والتعمق في الإجابة عنه حتى أصبح هاجسا يتملكني إلى حد الهوس.

وما تمخض عنه كل ذلك هو هذا الكتاب، وهو كتاب حول المحركات الستة الأكثر أهمية في التغيرات العالمية، وحول كيفية التقائها وتفاعلها بعضها مع بعض، وإلى أين تسير بنا، وكيف يمكن لنا نحن البشر - وما نمثله من حضارة كونية (عالمية) - أن نؤثر بأفضل السُّبل في الطريقة التي تتكشف بها هذه التغييرات. ومن أجل استعادة السيطرة على مصيرنا وصياغة المستقبل، يجب علينا أن نفكر بصفاء ووضوح حول الخيارات الحاسمة التي تواجهنا كنتيجة لما يلي:

• نشوء اقتصاد عالمي مترابط بشكل عميق، ويعمل على نحو متزايد ككيان كلي متكامل تماما وله علاقة جديدة كلية مع تدفقات رأس المال، والعمالة، والأسواق الاستهلاكية، والحكومات الوطنية ومختلفة تماما عما كانت عليه في الماضي؛

• ظهور شبكة اتصالات إلكترونية على نطاق الكوكب تربط بين أفكار ومشاعر مليارات البشر وتوصلهم إلى كم هائل من البيانات التي تتنامى وتتوسع على نحو سريع، وإلى شبكة سريعة النمو من أجهزة الاستشعار المزروعة بكثرة في جميع أنحاء العالم، وإلى أجهزة ذكية متطورة، وروبوتات، وآلات تفكير، يفوق ذكاؤها بالفعل قدرات البشر في أداء قائمة متنامية من المهام العقلية المنفصلة، وربما تتفوق علينا قريبا في مظاهر وتجليات الذكاء التي كنا على الدوام نفترض أنها ستبقى من المَلَكات الفريدة لجنسنا البشري؛

• ظهور توازن جديد تماما في القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية في العالم يختلف جذريا عن التوازن الذي اتسم به النصف الثاني من القرن العشرين، والذي وفَّرت فيه الولايات المتحدة الأمريكية القيادة والاستقرار العالميين – محولة التأثير والمبادرة من الغرب إلى الشرق، ومن البلدان الغنية إلى مراكز القوى الناشئة بسرعة في جميع أنحاء العالم، ومن الدول القومية إلى جهات خاصة، ومن الأنظمة السياسية إلى الأسواق؛

• ظهور النمو السريع غير المستدام – في السكان؛ والمدن؛ واستهلاك الموارد؛ واستنزاف التربة السطحية، ومنابع المياه العذبة، وأنواع الكائنات الحية؛ وتدفقات التلوث، والناتج الاقتصادي الذي يُقاس ويُوجّه بواسطة مجموعة غريبة ومشوهة من المقاييس المقبولة عالميا والتي تعمينا عن رؤية العواقب المدمرة للخيارات الخادعة للذات التي نتخذها بشكل روتيني؛

• ظهور مجموعة ثورية جديدة من التقنيات القوية في مجال البيولوجيا، والكيمياء الحيوية والجينية، وعلوم المواد التي تمكننا من إعادة تأسيس التصميم الجزيئي لجميع المواد الصلبة، وإعادة حياكة نسيج الحياة نفسها، وتغيير الشكل المادي، والسمات، والمميزات، وخصائص النباتات والحيوانات والبشر، واستحواذ السيطرة الفعالة على التطور، وتخطي الحواجز القديمة التي تفصل بين الأنواع، وابتكار خطوط جديدة تماما لم يسبق تخيُّلها في الطبيعة على الإطلاق؛

• ظهور علاقة جديدة جذريا بين القوة الإجمالية للحضارة البشرية والنظم الإيكولوجية للأرض، بما في ذلك على وجه الخصوص النظم الضعيفة الأكثر عرضة للضرر – وهي الغلاف الجوي والتوازن المناخي اللذان يعتمد عليهما استمرار ازدهار الجنس البشري - وبداية تحوُّل عالمي هائل في الطاقة التي نمتلكها، والتقنيات الصناعية والزراعية والإنشائية، من أجل إعادة تأسيس علاقة سليمة ومتوازنة بين الحضارة الإنسانية والمستقبل.

هذا الكتاب ينساق وراء البيانات، ويستند إلى الأبحاث المعمَّقة والتقارير- وليس الافتراض، والتهويل، والتفاؤل الساذج، أو التخمين عديم القيمة. فهو يمثل تتويجا لجهود بُذلت على مدار سنوات عديدة في البحث والتحقيق، وفك رموز الألغاز (وإزالة اللبس والغموض)، وتقديم أفضل الأدلة المتاحة والمعلومات التي يقدمها لنا الخبراء الروّاد في العالم عن المستقبل الذي نحن الآن بصدد تكوينه.

هناك إجماع واضح على أن المستقبل الذي يبزغ حاليا سيكون مختلفا للغاية عن أي شيء عرفناه في الماضي. وهو ليس اختلافا من حيث الكم وإنما من حيث النوع. لم يسبق أن شهد العالم مرحلة تغيير مشابهة ولو من بُعد لما ستشهده البشرية في القريب العاجل. لقد مررنا عبر مراحل ثورية من التغيير في السابق، غير أنها جميعها لم تكن بالقوة نفسها، ولم تحمل في أحشائها التوأم الأخوي - وهما

الخطر والفرصة - كالمراحل التي في طور الظهور حاليا. كما أننا لم نمر على الإطلاق في ما مضى بهذا الكم الهائل من التغييرات الثورية التي تتكشـف في آن واحد وتتلاقى بعضها مع بعض.

هذا الكتاب ليس كتابا حول أزمة المناخ في المقام الأول، على الرغم من أن أزمة المناخ هي أحد التغييرات السـتة الناشـئة التي تعيد تشكيل عالمنا على نحو سريع، وأن تفاعلهـا مع المحركات الخمسـة الأخرى للتغيير أمـاطَ اللثام عن طرقٍ جديدةٍ لفهمها. وهو ليس كتابا بشـكل أسـاسي أيضا حول تراجع وانحدار الديموقراطية في الولايـات المتحـدة واختلال وظائف الحكم في المجتمع الـدولي - علما أنني لا أزال عـلى يقين بأنه ينبغي إيجاد حلول لهذه الأزمـات في القيادة لكي يتمكن البشر من اسـتعادة السـيطرة على مصيرهم. في الواقع، هذه التغييرات الثورية الست الناشئة برمتها تشـكل خطرا يهدِّد في السـيطرة علينا في لحظة ما من التاريخ عندما يكون هناك فراغ خطير في القيادة العالمية.

كما أن هذا الكتاب ليس بيانا نهدف من ورائه إلى وضع الأساس لحملة سياسية ما في المستقبل. فقد ترشحت للمناصب السياسية بما فيه الكفاية في الماضي. الدُعابة التي أستخدمها غالبا للتهرب من الإجابة عن الأسئلة حول ما إذا كنت قد تخليت نهائيا عن أي نية في الترشح ثانية هي أقرب إلى الحقيقة من أي كلمات يمكن أن أجمعها لوصف موقفي تجاه السياسة: أنا سياسي في مرحلة النقاهة وفرص الانتكاس تتضاءل مع مرور الوقت لدرجة أنها تزيد من ثقتي بأنني لن أستسلم لمثل ذلك الإغراء ثانية. ومع ذلك، سوف تجد في الخاتمة أجندة من التوصيات للعمل تستند إلى التحليل في هذا الكتاب.

قانون جديد للطبيعة

كعضـو جديد وفتـيّ في مجلس النواب الأمريكي الـذي انتخب في العام 1976، انضممـت إلى مجموعة جديدة تتألف من حزبين هما أعضـاء الكونغرس وأعضاء مجلس الشـيوخ، والمعروفة في الكونغرس بمركز تبادل المعلومات حول المسـتقبل، التي أسسـها الراحل تشـارلي روز من ولايـة كارولينا الشـمالية[*]. في فترة ولايتي

(*) كان لمركز تبادل المعلومات حول المستقبل آنذاك مديرة تنفيذية متمكنة، هي آن تشيتم.

الثانيــة، طلب مني روز خلافته كرئيس للمجموعــة. قمنا بتنظيم ورش عمل حول الآثار المترتبة على التكنولوجيات الجديدة والاكتشــافات العلمية، وأجرينا مقابلات مــع قادة في مجال إدارة الأعمال والعلوم. ومن بين المبادرات الأخرى التي قمنا بها، أننا أقنعنا جميع اللجان الفرعية في الكونغرس، والتي يبلغ عددها 200، بنشر قائمة لأهم القضايا التي من المتوقع أن تظهر[1] خلال العشرين سنة التالية ونشرها باسم «أجندة المســتقبل». الأهم من ذلك كله، هو أننا قمنا بدراســة الاتجاهات الناشئة وتقابلنا بانتظام مع كبار المفكرين حول المســتقبل أمثال دانيال بل، مارغريت ميد، بكمنستر فولر، كارل ساغان، ألفين توفلر، جون نيسبت، آرمو بنزياس، ومئات غيرهم.

الأســتاذ الزائر الذي كان لــه أبلغ الأثر وترك انطباعا كبــيرا في داخلي كان عالما قصير القامة وخفيف شــعر الرأس، وُلد في روســيا قبل بضعة أشــهر من قيام ثورة العــام1917[2]، لكنه أكمل تعليمه في بلجيــكا[3]، وهو العالم إيليا بريغوجين، الذي كان قد فاز من فوره بجائزة نوبل في الكيمياء لاكتشافه لازمة رئيسية للقانون الثاني للدّيناميّات الحرارية.

الإنتروبيــا (الاعتلاج، أو القصور الحراري)، وفقا للقانون الثاني، تســبب في انهيار جميع النظم الفيزيائية المعزولة مع مرور الوقت، وهي مســؤولة عن اللاعكوســية في الطبيعة[4]. وكمثال بســيط على الإنتروبيا، لو نظرنا بحلقة من الدخان: فهي تبدأ أشبه بقطعة متماسكة من حلوى الدونت لها حواف محددة بوضوح[5]. لكن عندما تنفصل الجزيئات بعضها عن بعض وتبدِّد الطاقة في الهواء، تتفكك الحلقة وتضمحل. كل ما يســمى بالأنظمة المغلقة يخضع للعملية الأساسية للانحلال نفسها؛ وفي بعض الأنظمة تعمل الإنتروبيا بسرعة، بينما في حالات أخرى تستغرق العملية وقتا أطول.

فحوى اكتشــاف بريغوجين أن النظام المفتوح، أي النظام الذي يستورد تدفقات الطاقة من خارج النظام إلى داخله، ويمررها عبره، ومن ثم يطلقها خارجه مرة أخرى، لا ينهــار فقط، بل مع اســتمرار تدفق الطاقة، يعيد تنظيــم ذاته بدرجة عالية من التعقيد[6]. بمعنى آخر، فإن الظاهــرة التي وصفها بريغوجين هي عكس الإنتروبيا. التنظيم الذاتي، كقانون من قوانين الطبيعة وكعملية من عمليات التغيير، أمر يبعث على الدهشــة حقا. وما يعنيه ذلك هو أن أشــكالا جديدة معقدة يمكن أن تنشــأ بشكل تلقائي من خلال التنظيم الذاتي.

لنأخذ بعين الاعتبار التدفق المتنامي للمعلومات في جميع أنحاء العالم بعد ظهور الإنترنت والشبكة العالمية. بدأت عناصر نظام المعلومات القديم تنهار. فقد أشْهَرت الكثير من الصحف إفلاسها، وتراجعت أعداد القراء بشكل حاد في معظم الصحف الأخرى، وقامت العديد من المكتبات بالتصفية وإغلاق أبوابها. وأصبح العديد من نماذج الأعمال عتيقا وقد عفّى عليه الزمان. غير أن النموذج الناشئ الجديد أدى إلى التنظيم الذاتي لآلاف الأنماط التجارية الجديدة، وكم هائل من أدوات التواصل الإلكتروني التي قزّمت من الوسائل السابقة التي ميزت عالم الصحافة المطبوعة.

الأرض بحد ذاتها تعتبر نظاما مفتوحا أيضا عندما ننظر إليها بشكل كليّ. فهي تستورد الطاقة من الشمس التي تتدفق إلى داخل النماذج المعقدة لنقل الطاقة التي تشكل نظام الأرض، بما في ذلك المحيطات، والغلاف الجوي، ومختلف العمليات الجيوكيميائية، والحياة نفسها ومن ثم تعبر من خلالها. بعد ذلك تتدفق الطاقة من الأرض مرة أخرى عائدة إلى الكون الذي يحيط بها كطاقة حرارية في شكل الأشعة تحت الحمراء.

جوهر الأزمة الناشئة من ظاهرة الاحترار العالمي هو أننا نستورد كميات هائلة من الطاقة من قشرة الأرض ونُصدِّر الأنتروبيا (أي الاضطراب المستفحل) إلى الأنظمة الإيكولوجية التي كانت مستقرة سابقا، على رغم ديناميتها، والتي يتوقف عليها الازدهار المستمر للحضارة. هذه التدفقات الجديدة للطاقة، المستوردة أصلا إلى الأرض من الشمس منذ عصور من الزمن، كانت قد استقرت تحت الأرض لملايين السنين[7] كترسبات خاملة من الكربون.

ومن خلال تحريكها وضخ مخرجات النفايات من حَرْقها إلى الغلاف الجوي، فإننا نحطم نمط المناخ المستقر الذي استمر منذ فترة ليست طويلة بعد نهاية العصر الجليدي الأخير قبل عشرة آلاف سنة. لم يكن ذلك قبل وقت طويل من نشوء المدن الأولى وبداية الثورة الزراعية التي بدأت في الانتشار في أودية نهر النيل، ودجلة والفرات ونهر السند، والأنهار الصفراء منذ 8 آلاف سنة بعد أن قام رجال ونساء العصر الحجري بكل تأنٍّ بانتقاء وزرع الأصناف النباتية التي لايزال نظامنا الغذائي الحديث يعتمد عليها. في هذه العملية، نحن نفرض نشوء نمط جديد من المناخ يختلف كثيرا عن النمط الذي عملت حضارتنا برمتها على تكوينه بإحكام والذي يشكل جوهر ازدهارنا.

فيما يبدو اكتشاف بريغوجين لهذا القانون الجديد للطبيعة غامضا، غير أن آثاره في الطريقة التي ينبغي أن نفكر بها حول المستقبل لها أبعاد دفينة. المعنى الحديث لكلمة «ظهور/ نشوء»، وحقل المعرفة برمته المعروف باسم نظرية التعقيد، كلاهما مُسْتَمدٌ من عمل بريغوجين. وقد كان الدافع وراء استكشافه لمفهوم النشوء هو شغفه لفهم الآلية التي يصبح فيها المستقبل مختلفا بشكل لا عكوس عن الماضي. وقد كتب ذلك قائلا، «نظرا لاهتمامي بمفهوم الزمن، كان من الطبيعي أن ينصب جُلّ اهتمامي على... دراسة الظواهر اللاعكوسة، التي جعلت «سهم الزمن» جليّ الوضوح»[8].

تاريخ المستقبل

الطريقة التي نفكر بها حول المستقبل ليست وليدة اللحظة. فعبر تاريخ الحضارة الإنسانية كان لكل ثقافة فكرتها الخاصة حول المستقبل. وعلى حد تعبير الأسترالية إيفانا ميلوجيفيتش، وهي واحدة من أتباع الحركة المستقبليّة، «على الرغم من أن مفهومي الوقت والمستقبل موجودان عالميا، غير أنهما يُفهمان بطرق مغايرة في المجتمعات المختلفة»[9]. يفترض البعض أن الزمن دوّار (دائري) وأن الماضي والحاضر والمستقبل هم جميعا جزء من الدورة المتكررة نفسها. بيد أن آخرين كان لديهم اقتناع بأن المستقبل الوحيد المهم هو الحياة الآخرة.

لقد أدت أحيانا خيبات الأمل الساحقة التي غالبا ما تعتبر جزءا لا يتجزأ من الحالة البشرية إلى انبثاق أزمات ثقة في المستقبل، واستبدال الأمل باليأس. غير أن الجميع يستقون الدروس من تجارب الحياة ومن القصص التي يرويها لنا أسلافنا العجائز بأن ما نقوم به في الوقت الراهن يمكن أن يشكّل المستقبل بطرق أفضل موضوعيا عندما نكون على معرفة وطيدة بماضينا.

يقدم لنا علماء الأنثروبولوجيا دليلا يعود تاريخه تقريبا إلى 50 ألف سنة لأناسٍ كانوا يحاولون التكهُّن بالمستقبل بمساعدة وسطاء الوحي والوسطاء الروحيين[10]. حاول البعض التنبؤ بالمستقبل من خلال قراءة قرائن أنماط الحياة التي تتكشف في أحشاء الحيوانات التي تُقدَّم قرابين للآلهة[11]، أو دراسة تحركات الأسماك[12]، أو تفسير العلامات على الأرض[13]، أو من خلال مئات الطرق الأخرى. ولايزال البعض يقرأ خطوط الكف أو بطاقات التاروت للغرض نفسه أيضا. الافتراض الضمني في مثل هذه الأبحاث هو أن كل

واقع هو من نسيج واحد يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك وفقا لتصميم يمكن التكهن بمعناه من أجزاء معينة من مجمله وتطبيقه على أجزاء أخرى من النسيج من أجل تفسير المستقبل الذي سيتكشف.

يكتشف الأطباء والعلماء الآن قرائن حول مستقبل الأفراد من عيّنة الحمض النووي الموجودة في كل خلية. ويتبيّن علماء الرياضيات طبيعة معادلات الصورة النمطية الهندسية المتكررة - والأشكال الهندسية المستمدة منها - من خلال رصد «التشابه الذاتي» للأنماط التي تظهر في كل مستوى من مستويات التصميم. والصور المُجسَّمة محتواة بمجملها في كل جزيء من الأسطوانات الغازية التي[14] تنعكس عليها الصورة الظاهرة الأكبر.

ووفقا للمؤرخين، استخدم المنجمون في بابل القديمة ساعة مزدوجة[15] - واحدة لقياس التوقيت الزمني للشؤون الإنسانية، والأخرى لتتبع الحركات السماوية التي كانوا يعتقدون أن لها تأثيرا على الأحداث الأرضية. أثناء التنبؤ بمستقبلنا، ينبغي علينا أيضا أن نولي عناية خاصة للساعة المزدوجة. فهناك الساعة التي تقيس ساعاتنا وأيامنا، وأخرى تقيس القرون وآلاف السنين التي سيستمر خلالها تعطيلنا للنظم الطبيعية للأرض في الحدوث.

حتى عندما تتسابق فرق العلماء مع الزمن للتنافس مع الفرق الأخرى في التوصل إلى اكتشافات جينية (وراثية) جديدة من شأنها علاج الأمراض ووضع الأساس لمنتجات بمليارات الدولارات، يجب علينا أن نتشاور مع ساعة أخرى تقيس التوقيت الزمني الذي يعمل بموجبه التطور (النشوء) - لأن الطاقات الناشئة من التقدم الثوري في مجال علوم الحياة على وشك أن تجعلنا العامل الرئيسي في التطور.

وبسبب القوة الجديدة التي نتشارك نحن البشر البالغ عددنا سبعة مليارات بشكل جماعي في تطويعها لخدمتنا بفضل التقنيات الجديدة التي لدينا، والاستهلاك الجائر (الشرِه)، والدينامية الاقتصادية المتضخمة إلى حد غير مألوف، فإن بعض التغييرات الإيكولوجية (البيئية) التي ندفع بعجلتها ستبدأ بالتكشف والظهور للعيان، حسب ما يرى العلماء، في الزمن الجيولوجي، الذي تقيسه ساعة الكواكب بتعقبها للمسافات الزمنية التي تُجهد الخيال البشري إلى أقصى حدوده. ما يقرب من ربع الـ 90 مليون طن من التلوث الناجم عن الاحترار العالمي الذي نضخه في

الغلاف الجوي كل يوم سـيبقى متربصا هناك - ويواصل حبس الحرارة[16] - إلى ما يزيد على 10 آلاف سنة من الآن.

وبالتـالي، فإن تسـوية الاختلاف بين ما هـو «قائم» وما «يجـب أن يكون الأمر عليـه»، تضع أمامنا إشـكالية وجودية. على رغم أننا نواجه صعوبـة كبيرة في تصوُّر الزمن الجيولوجي، فإننا أصبحنا مع ذلك قوة جيولوجية؛ وعلى رغم أننا لا نستطيع أن نتصوَّر الجداول الزمنية التطورية، فإننا أصبحنا مع ذلك القوة الرئيسة وراء التطور.

فكرة أن التاريخ البشري يتميز بالتقدم من عصر إلى آخر ليست، حسب ما كان يعتقـد البعض لفترة طويلة من الزمن، هي من اختراع التنوير. انبثاق الفلسـفة في اليونان القديمة كان بداية التأملات المسجلة حول مستقبل الجنس البشري. في القرن الرابـع قبل التقويم الغريغـوري (الميلاد)، كتب أفلاطون عـن التقدم بأنه «عملية مسـتمرة، تعمل على تحسين حالة الإنسان من حالة طبيعته الأصلية إلى مستويات أعـلى وأرفع من الثقافـة، والتنظيم الاقتصادي، والبنية السياسـية نحو الوصول إلى الحالـة المثالية. ينطلق التقدم من التعقيد المتنامي للمجتمع والحاجة إلى توسـيع آفاق المعرفة، عبر تطوير العلوم والفنون»[17].

في القرن الرابع قبل التقويم الغريغوري (الميلاد) كتب القديس أوغسطين، الذي كثيرا ما يستشـهد بأقوال أفلاطون، ما يلي: «إن تعليم الجنس البشري، المُتمثِّل بشـعب الله، قـد تطـوَّر مثل تطور فرد ما عبر حُقَبٍ معينة أو، كأنهـا عصور، بحيث يمكنه أن يرتقي تدريجيا من الأمور الدنيوية إلى الأمور السماوية، ومن المَرْئيّ إلى اللامَرْئيّ (الخفيّ)»[18].

ولا يعتبر التقدم اختراعا غربيا حصريا. يفسِّر العديد فلسـفة الطّاو(*) في الصين القديمة على أنها دليل الإرشـاد والتوجيه لكل الراغبين في التقدم[19] وهم يشـقون طريقهـم إلى الأمام في العالم - على رغـم أن مفهومها عن التقدم يختلف كثيرا عما ظهر من مفاهيم في الغرب. في القرن الحادي عشر كتب الفيلسـوف الإسلامي (أبو حامـد) محمد الغزالي أن الإسـلام يعلِّمنـا أن «العمل المُنجز بصـدق نحو التقدم والتنمية، بالتالي، شـكل من أشـكال العبادة الدينية ولهذا السبب يكافأ المرء عليه. والنتيجة النهائية سـتكون عملا جـادا وأخلاقيا ومثاليا، وتقدمـا علميا حقيقيا[20] وبالتالي فهو إنجازٌ فعلي لتنمية متوازنة وشاملة».

(*) «سبيل الفضيلة في الكونفوشية». [المترجم].

في بداية عصر النهضة، أسهم إعادة اكتشاف رَافِد أرسطو من الفلسفة اليونانية القديمة - المحفوظ في الإسكندرية باللغة العربية والذي أُعيد إدخاله إلى أوروبا في الأندلس - في الانجذاب نحو الإرث المادي والفلسفي[21] على حد سواء لكل من أثينا وروما. أعاد هذا الإرث إنعاش أحلام الماضي التي من شأنها أن تأتي أُكُلها في عصر التنوير، عندما ظهر إجماع قوي على أن التقدم العلماني هو النمط السائد في تاريخ البشرية.

ساهمت الاكتشافات التي قام بها كوبرنيكوس وغاليليو وديكارت ونيوتن، وغيرهم ممن أطلقوا الثورة العلمية، في إشعال فتيل الاعتقاد بأن نمو المعرفة جعل مسألة التقدم في المجتمعات البشرية أمرا محتوما، مهما يكن المصير الذي وضعه لنا الله. فرانسيس بيكون، الذي شدَّد أكثر من غيره على كلمة «تقدم» في وصف رحلة البشرية إلى المستقبل، كان أيضا من بين أوائل من كتبوا حول التقدم البشري مع التأكيد الخاص على تطويع الطبيعة والهيمنة والسيطرة عليها - كأننا كنا منفصلين عن الطبيعة مثلما كان يعتقد ديكارت أن العقل منفصل عن الجسم.

بعد قرون لاحقة، لايزال هذا الخطأ الفلسفي في حاجة إلى تصويب. فإذا سلّمنا ضمنيا بانفصالنا الذاتي عن النظام البيئي للكوكب، فسوف نُفاجأ على نحو متكرر بالظواهر التي تنشأ من جراء روابطنا التي لا تنفصم معه. ومع نمو قوة حضارتنا بشكل مطّرد، تصبح هذه المفاجآت غير سارة على نحو متزايد.

الإرث الثقافي الذي لايزال يؤثر في المنهج العلمي اختزالي - أي أننا من خلال تقسيم وتجزيء الأجسام التي نبحث فيها ونحللها إلى ما لا نهاية، نقوم بفصل الظواهر والعمليات المترابطة لتطوير الخبرات المتخصصة. غير أن تركيز الاهتمام على شرائح جزئية في أضيق أشكالها غالبا ما يأتي على حساب الاهتمام بالكل، ما يمكن أن يجعلنا نفقد أهمية الظواهر الناشئة التي تنبثق بشكل غير متوقع (فجأة) من الترابط والتفاعل بين عمليات وشبكات متعددة. وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل التصوّرات الخطيّة للمستقبل خطأ في كثير من الأحيان.

رؤية جديدة للماضي والمستقبل

أدى اختراع أدوات جديدة وقوية، وتطوير رؤى جديدة ومُقنعة - واكتشاف القارات الجديدة الغنية - إلى طرق جديدة ومثيرة للنظر إلى العالم وإلى تفاؤل

واسع بشأن المستقبل. في القرن السابع عشر قام أبو علم الأحياء المجهرية[22]، أنطوني فان ليفينهوك، بتصميم عدسات جديدة للمجهر (الذي كان قد اخترع في هولندا قبل أقل من قرن مضى[23]، ومن خلال النظر عبر هذه العدسات اكتشف الخلايا والبكتيريا[24]. وفي الوقت ذاته، قام صديق مقرَّب له في دلفت، يوهانس فيرمير، بإحداث ثورة في فن التصوير باستخدام (ومعظم مؤرخي الفن يوافقون على هذا الرأي) القَمْرَة المظلمة، التي أصبحت ممكنة بفضل الفهم الجديد لعلم البصريات[25].

مع تسارع الثورة العلمية وبدء الثورة الصناعية، عَمِلت فكرة التقدم على قولبة المفاهيم السائدة حول المستقبل. في السنوات التي سبقت وفاته، كتب توماس جيفرسون حول التقدم الذي شهده في حياته، مشيرا إلى أنه «لا يمكن لأحد أن يتنبا أين سيتوقف هذا التقدم. في هذه الأثناء كانت الهمجية تتراجع أمام خطى التحسين الثابتة، وإنني على ثقة أنها ستختفي من على وجه الأرض في الوقت المناسب»[26].

بعد أربع سنوات من وفاة جيفرسون، نشر تشارلز لايل كتابه الرائع «مبادئ الجيولوجيا»، في العام 1830، الذي محا النظرة السائدة منذ أمد حول علاقة الإنسانية بالزمن. في العالم اليهودي المسيحي خصوصا، كان معظم البشر يفترضون أن عمر الأرض لا يتجاوز بضعة آلاف سنة، وأن البشر خلقوا بعد فترة وجيزة من تشكل كوكب الأرض ذاته، غير أن لايل أثبت بوضوح أن عمر الأرض لا يقاس بآلاف السنين[27]، وإنما على أقل تقدير بملايين السنين (4.5 مليارات، على حد علمنا الآن[28]. في إعادة تشكيل الماضي، أعاد أيضا تشكيل فكرة المستقبل. وقدَّم السياق الزمني لاكتشاف تشارلز داروين لمبادئ التطور. في الواقع، عندما كان داروين في أوج شبابه حمل معه كتب لايل في أثناء رحلته البحرية التي قام بها على متن سفينة البحرية الملكية بيغل[29].

أثار طول عمر الماضي الذي لم يمكن تخيّله سابقا والذي كشف النقاب عنه لايل أحلاما متماثلة للمستقبل البعيد الذي يمكن أن يصل فيه تقدم الإنسان إلى آفاق لا حدود لها. في الجيل الذي تلا لايل، تخيَّل جول فيرن مستقبلا تحط فيه الصواريخ على سطح القمر، وتعبر فيه الغواصات أعماق المحيطات، ويسافر الناس فيه إلى مركز الأرض.

خَمَـد التفاؤل المفرط الذي سـاد في القرن التاسـع عشر لـدى الكثيرين بفعل تجـاوزات الثورة الصناعيـة الثانية، لكن بُعثت الحياة فيـه من جديد خلال العقد الأول مـن القرن العشرين مع ولادة حركة سياسـية قائمة على أسـاس الاعتقاد أن التقدم في حاجة إلى تدخلات السياسـة الحكوميـة والتغييرات الاجتماعية من أجل تحسـين المشـاكل المصاحبة للتصنيع وتعزيز فوائده الواضحـة. ومع تحويل الثورة العلمية والتكنولوجية لبعض الرؤى التي استحضرها فيرن وأتباعه إلى واقع ملموس، اكتسب التفاؤل بالمستقبل مزيدا من الزخم.

بيـد أن توازن القرن العشرين أدى إلى نشـوب حربـين عالميتين ومقتل الملايين على يد الحكام المسـتبدين الشموليين من اليمين واليسار لخدمة تصوراتهم الخاصة الغريبـة عن التقدم - ومن هنا بدأت وجهة نظرنا حول المسـتقبل تتغير. الكابوس المخيف لألمانيا النازية (الرايخ الثالث)، الهولوكسـت (المحرقة)، والأعمال الوحشية لكل من سـتالين وماو جاءت لتكون رمزا لإمكانية انبثاق الشر الظاهر من استخدام أي وسيلة، مهما تكن درجة فظاعتها، في مسعى إلى فرض المخططات الكبرى لمستقبل الإنسانية التي تتفق مع رؤى رجال غريبي الأطوار لكنهم أصحاب نفوذ كبير.

في أعقـاب الحرب العالمية الثانية، والخشـية التي خلفتها من الأسـلوب الذي اسـتخدمت بـه الحكومات الشـمولية تكنولوجيات الاتصـالات الجديدة العجيبة للراديو والسينما لإقناع الملايين بكبح غرائزهم الفاضلة وتطويع حياتهم مع المخطط الشريـر - الذي يرافقه التأثير العاطفي والروحي العميق من سـيف ديموقليس(*) الذريّ (Sword of Damocles)، الذي سلّطه ظهور سباق التسلح النووي على عنق الحضـارة - الذي أعاد إثـارة المخاوف من أن الاختراعـات الجديدة قد تكون ذات حدين. إن عدم الارتياح في ذهن عامة الناس بأن التكنولوجيات القوية - مهما كانت درجة فوائدها - يمكن أن تضخم أيضا الضعف البشري الفطري تجاه الغطرسـة قد عمق لدى الكثيرين الشعور بفقدان الثقة في أن التقدم هو النجم الهادي الموثوق.

(*) ديموقليس الصقلي، وفقا لإحدى الروايات اليونانية، هو خطيب في بلاط ديونيسيوس الثاني، أحد حكام سرقوسة من القرن الرابع قبل الميلاد. عندما تحدث ديموقليس متملقا عن حظ الحاكم وسعادته بما يملك من قوة، عرض عليه الأخير أن يجلس مكانه فوافق ديموقليس على الفور. غير أن الحاكم أمر بتعليق سيف فوق رأسه على العرش لا يربطه سـوى شـعرة من ذيل حصان فتوسل ديموقليس الحاكم بأن يسمح له بالنزول من العرش، مدركا أن السعادة والحظ تصاحبهما مسؤولية عظيمة. [المحررة].

لقد جرى استبدال نبوءات جول فيرن بنبوءات كل من ألدوس هكسلي، وجورج أورويـل، و إتـش. جي. ويلز، والأفلام الشـعبية حول الوحوش المدمـرة الآتية من الماضي السـحيق - التي أيقظتها التجـارب النووية أو المخلوقـات الخطرة المعدَّلة جينيا (وراثيـا) التي ضلت طريقها - والروبوتات الحاقدة من المسـتقبل البعيد أو الكواكـب البعيـدة، التي من الظاهر أنهـا جميعها قد عقدت العـزم على اجتياح مستقبل البشرية.

والآن يتسـاءل كثيرون: من نحن؟ كتب أرسـطو أن نهاية الأشياء تحدِّد جوهر طبيعتهـا[30]. إذا أرْغِمْنـا عـلى التأمـل في إمكانية أن نصبح نحـن مهندسي زوالنا كحضارة، فعندها سـتكون هناك بالضرورة آثار لكيفية الإجابة عن السـؤال: ما هو جوهـر طبيعتنا كنوع (كجنس)؟ وكما أعاد أحد العلماء صياغة هذا السـؤال ذات مرة على النحو التالي: هل يصلح الجمع بين إبهامٍ مقابل وقشرة مخية حديثة كشكل مستدام من أشكال الحياة على الأرض؟

يصعـب التوفيق بـين تفضيلنا الطبيعي والسـليم للتفاؤل حول المسـتقبل، وبـين المخاوف المزعجـة التي عبر عنها كثيرون بأن الأمور ليسـت عـلى ما يرام، وأن المسـتقبل إذا تُرك وشأنه فإنه سيتكشـف بطرق تهدِّد بعض القيم الإنسانية التي نعتز بها. وبعبارة أخرى، فإن المسـتقبل يلقـي الآن بظلاله على الحاضر. قد يكـون من المريح القول: «إنني إنسـان متفائل!»، غير أنـه قول من دون جدوى، التفاؤل هو شـكل من أشـكال الصلاة. وللصلاة ، من وجهة نظري الشخصية، قوة روحية حقيقية. لكنني أعتقد أيضا بالمثل الأفريقي القديم: «عندما تصلُّون، حركوا أقدامكـم». فالصلاة دون عمل، مثـل التفاؤل من دون تعهد بالعمل، هي عدوان سلبي تجاه المستقبل.

حتى أولئك الذين يدركون الأخطار المختلفـة التي نواجهها، والملتزمون باتخاذ إجـراءات عملية نحوها غالبا ما يشـعرون بالإحباط بسـبب إحساسـهم بالعجز. بالنسـبة إلى مسـألة المناخ، على سـبيل المثال، يقومون بتغيير سـلوكهم وعاداتهم الخاصة، ويقللون من تأثيرهم على البيئة، ويرفعون الصوت عاليا ويدلون بأصواتهم، لكن يبقى لديهم شعور بأن تأثيرهم الثمين هذا لايزال ضئيلا، لأن الزخم القوي للآلة العالمية التي بنيناها لتصنع لنا التقدم تبدو مسـتقلة عن سيطرة الإنسان. أين هي

الرافعات التي يجب تشـغيلها، والأزرار التي يجـب الضغط عليها؟ هل هناك آلية للتوجيه؟ هل تمتلك أيدينا القوة الكافية لتشغيل مفاتيح التحكم؟

قبل ما يزيد على عقد من الزمان على كتابه «فاوست»[31]، نَظَم غوته قصيدته المعروفة «صبي السـاحر» التي تحكي قصة متدرب شاب تخلى عن أدواته الخاصة، وتجـرأ على اسـتخدام واحدة من الألاعيب السـحرية لمعلِّمه لـكي يبث الحياة في مكنسـة كان من المفترض أن يسـتخدمها لتنظيف ورشـة العمل. غير أنه بمجرد أن بُعثت الحياة في تلك المكنسة لم يكن بالإمكان وقفها. وعندما بدأ يشعر باليأس من عدم إمكانية وضع حد لنوبة النشـاط الجنونية المتزايدة التي أصابت المكنسة، قام المتـدرب بقطع المكنسـة إلى نصفين بفأس- الأمر الذي تسـبب في مضاعفتها ذاتيا، وجعل كل شـطر منها مكنسـة جديدة وممتلئة بالحياة. ولم تتحقق السيطرة على الوضع إلا بعد عودة الساحر المعلِّم.

الرأسمالية الديموقراطية ومخاوفها

إن فكـرة اتخاذ قرارات جماعيـة ذات مغزى فعـلي في الديموقراطية، تهدف إلى توجيه دفة المكائن العالمية التي سَـيّرناها، هي فكرة سـاذجة، وحتى سـخيفة، وفقا لأولئـك الذين طالما لم يضعوا إيمانهم في المسـتقبل بيد الإنسـان، بـل في اليد الخفيّة للسـوق. مادام مزيـد من القوة لاتخاذ القرارات حول المسـتقبل يتدفق من الأنظمة السياسية إلى الأسواق، ومادامت التكنولوجيات ذات القوة المتعاظمة أكثر من أي وقت مضى تُضاعف من قوة اليد الخفية، فإن عضلات الحوكمة الذاتية ستصاب بالضمور.

تلك في الواقع نتيجة تلقى ترحيبا عند بعض الذين وجدوا سبلا لتجميع ثروات طائلة من العمليات السـائبة للمكائن العالمية. في الواقـع، لقد وظّف الكثير منهم ثرواتهم لتعزيز فكرة أن الحوكمة الذاتية هي في أحسن الأحوال أمرٌ عديم الجدوى، وعندمـا تكون صالحة بأي حال، فإنها تـؤدي إلى التدخل الخطير الذي يتعارض مع كل من الأسواق والحتمية التكنولوجية. السيادة الأيديولوجية المشتركة التي شُكلت عبر التحالف بين الرأسـمالية والديموقراطية التمثيليـة التي كانت مثمرة للغاية في توسـيع الطاقات الكامنة نحو الحرية، والسلام، والرخاء قد تم تفتيتها إربا إربا عن طريق تجاوز الثروة المركّزة من محيط السوق إلى داخل محيط الديموقراطية.

على الرغم من أن الأسواق ليس لها نظير في جمع، ومعالجة، واستخدام تدفقات هائلـة من المعلومات لتخصيـص الموارد وموازنة العرض والطلـب، فإن المعلومات في الأسـواق هـي من نوع حُبيبيّ الشـكل على نحو خاص. فهـي خالية من الرأي، والطابع، والشـخصية، والإحسـاس، والحب، أو الإيمان. فهي ليسـت سـوى أرقام. أما الديموقراطية، في المقابل، فعندما تعمل بشـكل سـليم، فإنها تُنْتِج من تفاعلات الناس الذين يمتلكون وجهات نظر، وميولا، وتجارب حياتية مختلفة، حكمة ناشـئة وإبداعا بمسـتوى مختلف تماما[32]. فهي تحمل أحلاما وآمالا للمستقبل. والتغاضي عن الاسـتخدام الروتيني للثروة لتشـويه العملية الديموقراطية والتقليل من شأنها وإفسـادها، فإننا نحرم أنفسـنا من فرصة اسـتخدام «الأمل الزاهي الأخير» لإيجاد مسـار مسـتدام للبشرية عبر التغييرات الهدّامة والمُضطربة التي لم يسبق للحضارة أن واجَهت مثيلا لها.

في الولايـات المتحدة، هلّل الكثـيرون لذبول الحوكمة الذاتيـة، ورحبوا بالفكرة القائلة إنه ينبغي علينا من الآن فصاعدا حتى عدم محاولة السيطرة على مصيرنا من خلال عملية صنع القرار الديموقراطي. وقد أوصى البعض، ولو كان نصفهم فقط من باب الدعابة، بأن الحكومة يجب أن تتقلص إلى الحد الذي يمكن أن «تغرق فيه وهي في حوض الاسـتحمام». وقد جنّدوا سياسيين في مسعى منهم إلى شل قدرة الحكومة عـلى خدمـة أي مصالح أخرى غير تلك التـي تخدم الآلة العالميـة، ووظفوا طابورا خامسـا في السلطة الرابعة، واستأجروا حشودا من جماعات الضغط لمنع أي قرارات جماعية حول المسـتقبل تخدم المصلحة العامة. ويبدو حتى أنهم آمنوا بصدق، كما كتب العديد منهم في معظم الأحيان، بأنه لا يوجد شيء اسمه «المصلحة العامة».

النمـط الجديد للتنظيم الذاتي في الكونغرس يخدم المصالح الخاصة التي تقدم معظم أموال الحملات الانتخابية التي يشـتري بها المرشحون الإعلانات التلفزيونية - سـواء كانوا من أصحاب المناصب أو منافسيهم على حد سواء. ولم يعد يستجيب إلى أي من هموم الشـعب الأمريكي سـوى الهموم العاطفيـة. ولايزال أعضاء هذا النمـط الجديـد هم «النواب»، لكـن الغالبية العظمى منهم تمثـل الآن الناس أو المؤسسات التي تبرعت بالأموال لتمويل حملتهم، وليس الناس الذين يصوتون فعلا في دوائرهم التشريعية.

يحتـاج العالم الآن من الولايات المتحدة، أكـثر من أي وقت مضى، إلى قيادة ذكيـة عمادها القيـم ووضوح الرؤية - وغياب أي بديل مناسـب هو أكثر جلاء الآن من أي وقت مضى. للأسـف، فإن تراجـع الديموقراطية في الولايات المتحدة قد حطّ من قدرتها على التفكير الجماعي الواضح، وأدى إلى سلسلة من القرارات السياسـية الضعيفة بشكل ملحوظ إزاء القضايا المهمة والحاسمة، وترك المجتمع العالمي من دون دفة قيادة توجهه وهو يواجه ضرورة الاسـتجابة بذكاء وبسرعة للآثار التي خلفتها التغيرات الناشـئة السـتة الموصوفة في هذا الكتاب. استعادة الديموقراطية في الولايات المتحدة، أو ظهور قيادة في أي مكان آخر في العالم، هو أمر ضروري لفهم هذه التغيرات والاستجابة لها من أجل صياغة المستقبل.

أحد المحركات الستة للتغيير الموصوفة في هذا الكتاب - وهو ظهور الشبكة الرقمية التي تربط أفكار ومشاعر معظم الناس في كل بلدان العالم - يقدم منبعا عظيما للأمل في أن الأداء السـليم للمداولة الديموقراطية وصنع القرار الجماعي يمكن إعادة إحيائه لإصلاح القدرة البشرية نحو التفكير المشترك ورسم مسار آمن يقودنا إلى المستقبل.

يمكن للرأسمالية – إذا جرى إصلاحها وجعلها مستدامة - أن تخدم العالم بشكل أفضـل مـن أي نظام اقتصادي آخر في إجـراء التغييرات الصعبـة، ولكن الضرورية للعلاقة بين المؤسسة البشرية والنظم الإيكولوجية والبيولوجية للأرض. إن الرأسمالية المسـتدامة وصنع القرارات الديموقراطية السليمة يستطيعان معا تمكيننا من إنقاذ المستقبل، لذلك علينا أن نفكر بوضوح حول الطريقة التي يمكن فيها ترميم وإصلاح هاتين الأداتين الأساسيتين.

إن هيكل أنظمة صنع القرار والطرق التي نقيس بها التقدم - من عدمه - نحو الأهداف التي نعتبرها مهمة لها تأثير عميق في المسـتقبل الذي نخلقه بالفعل. من خـلال جعل الخيارات الاقتصاديـة تصب في مصلحة «النمو»، مـن الأهمية بمكان تحديد التعريف الذي سنستخدمه للنمو. إذا أزيلت آثار التلوث بشكل منهجي من قياس ما نسـميه «التقدم»، فسنبدأ عندها في تجاهله، وينبغي ألا نفاجأ عندما يأتي معظم التقدم الذي أحرزناه مصحوبا بكثير من التلوث.

إذا كانت النظم التي نستخدمها لتحديد وقياس الربح قائمة على تعريف ضيق ومحدود - على سبيل المثال، التوقعات ربع السنوية للعوائد الربحية للسهم الواحد،

أو إحصاءات البطالة الفصليّة التي لا تشـمل الأشخاص الذين أصيبوا بالإحباط من مسـألة البحث عن عمل، أو أولئك الذين اضطروا إلى قبول اقتطاع مبالغ كبيرة من أجورهـم كي لا يخسروا وظائفهم، أو أولئك الذين يعملون في تحضير الهامبرغر بدلا من الاستفادة من المهارات العالية التي اكتسبوها بشق الأنفس سواء في التعليم أو الخبرات السـابقة - فإن ما نشـهده هو مجرد تمثيل ناقص وجزئي من واقع أكبر من ذلـك بكثير. عندمـا نصبح معتادين على اتخاذ خيارات مهمة حول المسـتقبل على أسـاس معلومات مشوهة ومضللة، فإن نتائج تلك القرارات ستأتي على الأرجح دون مستوى توقعاتنا.

وقـد درس علماء النفس وعلـماء الأعصاب ظاهرة تسـمى الانتباه الانتقائي - وهـي نزعة لدى البشر الذين يمتلكون التصميم الكبير على التركيز بشـكل مكثف عـلى صور معينة إلى درجة يصبحون فيها غافلين تماما عن الصور الأخرى الموجودة في مرمى بصرهم.

نحن نختار الأشياء التي نوليها اهتمامنا ليس فقط من باب الفضول، أو التفضيل، أو العـادة، بل أيضا من خلال اختيار أدوات الرصد، والتقنيات، والنظم التي نعتمد عليها في صنع الخيارات. وهذه الأدوات تحدد ضمنيا بعض الأشـياء على أنها مهمة، وتحجب أشياء أخرى إلى درجة أننا نتجاهلها تماما. وبعبارة أخرى، فإن الأدوات التي نستخدمها يمكن أن تعاني هي ذاتها تشوهات في الانتباه الانتقائي لديها.

على سـبيل المثال، نظام قياس القيمة الاقتصادية المعروف باسم الناتج المحلي الإجمالي GDP، يشـمل بعض القيم ويسـتبعد عشـوائيا (اعتباطيـا) قيما أخرى. لذلك عندما نسـتخدم الناتج المحلي الإجمالي كعدسـة نرصد من خلالها النشـاط الاقتصادي، فإننا نولي اهتماما للأمور التي جرى قياسها ونميل إلى إغفال تلك الأشياء التي لا تُقاس على الإطلاق. وقد سـمى عالم الرياضيات والفيلسوف البريطاني ألفرد نورث وايتهيد الهوس بالقياسـات «التصور الخاطئ (المغالطة) للواقعية الملموسـة التي في غير محلها»[33].

نقدم هنا تشبيها لتوضيح هذه النقطة: غالبا ما يُصوَّر الطيف الكهرومغناطيسي على شكل مستطيل أفقي رفيع وطويل مُقسَّم إلى شرائح ملونة مختلفة تُمثل أطوال الموجـات المختلفة للطاقـة الكهرومغناطيسـية - وهي تتراوح عـادة بين موجات

منخفضة التردد جدا مثل تلك المستخدمة في الراديو على الجهة اليسرى من المستطيل، وتمتد من خلال أفران الميكروويف، والأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية، والأشعة السينية، وما شابه ذلك، وصولا إلى أشعة غاما ذات التردد العالي جدا في النهاية اليمنى للمستطيل.

وفي مكان ما بالقرب من منتصف هذا المستطيل يوجد قسم رفيع جدا يُمثل ضوءا مرئيا - ويعتبر، بطبيعة الحال، الجزء الوحيد في كامل الطيف الذي يمكن رؤيته بالعين المجرّدة. لكن بما أن عين الإنسان هي بشكل طبيعي «الأداة» الوحيدة التي يحاول معظمنا أن «يرى» العالم الذي يحيط بنا بواسطتها، فمن الطبيعي أن نغفل عن كل المعلومات الموجودة في 99.9 في المائة من الطيف غير المرئي بالنسبة إلينا.

لكن من خلال استكمال الرؤية الطبيعية لدينا عن طريق أدوات قادرة على «رؤية» ما تبقى من الطيف، نحن قادرون على تعزيز فهمنا للعالم من حولنا من خلال جمع وتفسير مزيد من المعلومات. في السنوات الثماني التي كنت أعمل خلالها في البيت الأبيض، كنت أبدأ كل يوم، وعلى مدار ستة أيام في الأسبوع، بالاطلاع المطول من جهاز الاستخبارات على جميع القضايا التي تؤثر في الأمن القومي والمصالح الحيوية للولايات المتحدة، وكانت بشكل روتيني تحتوي على معلومات جرى جمعها من جميع أجزاء الطيف الكهرومغناطيسي تقريبا. ونتيجة لذلك، كانت الصورة أكثر كمالا ودقة لواقع شديد التعقيد.

واحدة من الحقائق الراهنة في عالم الأعمال التي كانت الأكثر إثارة للدهشة بالنسبة إليّ هي شبه الإجماع على أن الأسواق «قصيرة في الأمد الطويل وطويلة في الأمد القصير» - أي أن هناك تركيزا غير سليم على أهداف قصيرة الأجل جدا، واستبعادا للأهداف طويلة الأجل. إذا كانت الحوافز المقدمة بشكل روتيني للروّاد في عالم الأعمال - والقادة السياسيين - تُركّز على آفاق قصيرة المدى إلى حد بعيد، فإنه يجب ألا يفاجأ أحد إذا كانت القرارات التي يتخذونها في السعي وراء المكافآت التي يمكن كسبها تُركّز أيضا على المدى القصير- على حساب أي اعتبار للمستقبل. هياكل التعويضات والحوافز تعزز هذه التحيُّزات وتعاقب معظم الرؤساء التنفيذيين والشركات التي تتجرأ على التركيز على استراتيجيات مستدامة طويلة الأجل. لقد أضحت كلمة «الآجال القصيرة» كلمة رنّانة يَكثُر

استخدامها على نحو متكرر في الأوساط التجارية. في قطاعي الأعمال والسياسة، صنع القرارات قصيرة الأجل هو المُهيْمن.

«الرأسمالية الفصلية» عبارة يستخدمها البعض لوصف الممارسة السائدة في إدارة الأعمال من كل ربع سنوي (فترة ثلاثة أشهر) إلى الربع الذي يليه، وتركيز الميزانيات والإستراتيجيات على الجهد المتواصل لضمان أن يحقق تقرير الأرباح الفصلية لكل سهم التوقعات المرجوة أو توقعات السوق. عندما يركز المستثمرون والرؤساء التنفيذيون على تعريف «النمو» الذي يستبعد سلامة ورفاه المجتمعات التي توجد فيها هذه الشركات، وسلامة الموظفين الذين يقومون بمعظم العمل، وتأثير العمليات التي تقوم بها هذه الشركات على البيئة، فإنهم بذلك يختارون ضمنيا تجاهل الحقائق المادية مع احتمال جعل النمو الحقيقي غير مستدام.

وبالمثل، فإن هيمنة المال في السياسة الحديثة، لاسيما في الولايات المتحدة - أدت الآن إلى ما يمكن وصفه بـ «الديموقراطية الفصلية». كل تسعين يوما يُطلب من أصحاب المناصب الحالية المتقدمين للترشح لإعادة انتخابهم ومنافسيهم في المسابقات السياسية أن يقوموا بالإبلاغ العلني عن إجمالي التبرعات التي جمعوها خلال فترة التسعين يوما الفائتة. في نهاية كل ربع سنة، هناك فورة من المناسبات الخاصة التي تقام لغرض جمع التبرعات، وطلبات التوسل عن طريق البريد الإلكتروني، والمكالمات الهاتفية لجمع التبرعات، وذلك لتحقيق أقصى قدر ممكن من الأموال التي يمكن الإبلاغ عنها - وذلك يشبه إلى حد كبير السمكة الكروية المنتفخة (الينفوخية) التي تزيد من حجمها الطبيعي في وجود سمكة منتفخة أخرى تحاول التعدي على حرمة أراضيها.

تراثنا التطوري جعلنا عرضة للعديد من المحفِّزات التي تثير التفكير قصير الأجل. وعلى رغم أننا نمتلك بالطبع القدرة على التفكير طويل الأجل أيضا، فإن ذلك يتطلب بذل الجهود، وحسب علماء الأعصاب فإن عوامل تشتيت الانتباه، والإجهاد والخوف تعطل بسهولة العمليات التي نسعى من خلالها إلى التركيز على الأجل الطويل. عندما يكون المسؤولون المنتخبون تحت ضغط منتظم ومتواصل من أجل توجيه جُل اهتمامهم إلى آفاق قصيرة الأجل، فإن المستقبل لا يلقى المستوى المطلوب من الاهتمام.

هذا أمر خطير، لا سيما خلال فترة التغير السريع. بعض الاتجاهات القائمة حاليا يجـري توثيقها عـلى نحو جيد بالنظر إلى ملاحظات الماضي بـأن التوقعات الخاصة بالاتجاهات نفسها نحو المستقبل يمكن تحقيقها بدرجة عالية جدا من الثقة. معدل التقـدم في رقائق الكمبيوتـر، وذلك كمثال معروف جيدا، مفهوم بشـكل جيد إلى درجـة كبيرة يمكن معهـا تبرير التنبؤات التي تتوقع أن رقائق الكمبيوتر سـتواصل تحقيق التقدم بسرعة في المستقبل.

الانخفـاض السريع في تكلفة تحديد تسلسـل الحمض النووي حصل لأسـباب مفهومة جيدا بما فيه الكفاية لتبرير التنبؤات بأن هذا الاتجاه أيضا سـوف يسـتمر في تشـكيل مسـتقبلنا. تراكم غـازات الاحتباس الحـراري في المـاضي والارتفاع في درجات الحرارة العالمية الذي سـببته مفهوم أيضا بشـكل جيد إلى درجة أنه يمكن تبريـر التنبؤات حول ما سـتؤول إليه درجات الحرارة في العـالم إذا ما واصلنا زيادة الانبعاثات الغازية بالمعدل نفسـه في المستقبل - وما سيترتب من عواقب من جراء الارتفاع الكبير في درجات الحرارة العالمية.

بيد أن هناك تغييرات أخرى تنبلج على العالم يبدو أنها في كامل تشـكيلها: نمط جديد كلية يمثل تحولا مفاجئا من النمط القديم الذي اسـتمر منذ غابر السـنين في الماضي السـحيق الذي لا طاقة للبشر على تذكره. في حياتنا الخاصة، نحن معتادون على التغـير الخطي التدريجي. لكن في بعض الأحيان، تتراكـم إمكانات التغيير من دون أن تتجلى بشكل واضح إلى أن يصل الضغط الناشئ حديثا من أجل التغيير إلى الكتلـة الحرجة ذات القوة الكافية لاخـتراق مختلف الحواجز النظامية التي كانت تعيق تقدم عجلة التغيير. ومن ثم فجأة يفسح أحد الأنماط الطريق لمرور نمط آخر جديـد كلية. هذا «الظهـور» للتغيير النظامي يصعب في كثير من الأحيان التنبؤ به، لكنه يحدث مرارا في كل من الطبيعة والنُظم المعقدة التي صممها البشر.

العديد ممن كانوا مفتونين ومتحمسـين لاحتمالات المستقبل يركزون الآن فقط على الآثار المحتملة للمسـتقبل على الإسـتراتيجيات التجارية، والسياسية، والأمنية للحاضر. ومع تسـارع الثورة العلميـة في العقود الأخيرة من القـرن العشرين، بدأ خـبراء التخطيـط في الشركات ومستشـارو الإسـتراتيجية العسـكرية تكريس جُلّ اهتمامهم لدراسة مستقبل بديل، مدفوعين بالقلق من أن قوة الاكتشافات العلمية

والتكنولوجيـة الجديـدة قد تهدّد المصالح الإسـتراتيجية - أو حتى ديمومة - نماذج الأعمال وميزان القوى بين الدول.

مـا مفهومنا الحالي للمسـتقبل؟ كيف يمكن لتصورنا عن المسـتقبل أن يؤثر في الخيـارات التي نصنعهـا في الوقت الحاضر؟ هل مازلنا نؤمن بـأن لدينا القوة على تشكيل مسـتقبلنا الجماعي على الأرض واختيار أحد أشكال المستقبل البديل الذي يحافظ على أسمى القيم فينا ويجعل الحياة أفضل مما هي عليه في الوقت الحاضر؟ أم إن لدينا أزمة ثقة في مستقبل البشرية؟

إذا عُرض طيف الماضي، والحاضر، والمسـتقبل على شكل مستطيل رفيع وطويل مشـابه لذلك المستخدم لتصوير الطيف الكهرومغناطيسي، فإن ولادة كوكب الأرض قبل 4.5 مليار سـنة سـتكون في النهاية الواقعة في أقصى يسار المستطيل[34]. وعند التحرك يمينا، سوف نرى ظهور الحياة قبل 3.8 مليار سنة[35]، وظهور الحياة متعددة الخلايا قبل 2.8 مليار سنة [36]، وظهور أول حياة نباتية على الأرض قبل 475 مليون سنة[37]، وأولى الفقاريات قبل أكثر من 400 مليون سنة[38]، وأولى الرئيسات (رتبة من الثدييات تشمل الإنسان والقرد) قبل 65 مليون سنة[39]. ثم بالانتقال إلى أقصى اليمين للمستطيل، سيظهر انطفاء الشمس بعد 7.5 مليار سنة من الآن[40].

الشريحـة الضيقة من الزمن الموجودة إلى يسـار منتصف هذا الطيف - وهي الشريحـة التي تمثل تاريـخ الأنواع البشرية - هي شريحـة رقيقة من طيف الزمن وأضيق حتى من الضوء المرئي للطيف الكهرومغناطيسي. الأفكار التي نكرسـها لهذه الامتدادات الشاسـعة من الزمن في الماضي والمسـتقبل هي في معظم الأحيان مجرد أفكار عابرة في أحسن الأحوال.

هناك أسـباب كثيرة تدعو إلى التفاؤل بشـأن المستقبل. في الوقت الراهن، يبدو أن الحرب في تراجع. والفقر العالمي في تراجع. وقد جرى القضاء على بعض الأمراض المخيفـة، فيما جـرى درء خطر الأمراض الأخرى ومنع انتشـارها. كما أن متوسـط طول العمر في ازدياد. ومسـتويات المعيشة ومتوسط الدخل - على الصعيد العالمي على الأقل - في تحسُّـن مسـتمر. المعرفة والثقافة (محو الأمية) في انتشار. الأدوات والتكنولوجيات التي نعمل على تطويرها - بما في ذلك الاتصالات القائمة على شبكة الإنترنت - تنمو من حيث القوة والجودة. فهمنا العام لعالمنا، وبالفعل، الكون الذي

نعيش فيه (أو الأكوان المتعددة!) يتنامى بشــكل أسيّ. كانت هناك فترات في الماضي ظهرت فيها معوقات لنمونا ونجاحنا كنوع من الكائنات الحية تهدد مستقبلنا، غير أننا تفوقنـا عليها وتجاوزناها بفضل عوامل التقدم الجديدة – الثورة الخضراء التي نشأت في النصف الثاني من القرن العشرين، على سبيل المثال.

وبالتـالي، فإن مجموعـات الاتجاهات الإيجابية والسـلبية تحدث في آن واحد. وحقيقة أن بعضها مرحبٌ به فيما البعض الآخر غير مرغوب فيه لها تأثير في تصورنا لها. الاتجاهات غير المرغوب فيها يجري تجاهلها في بعض الأحيان، على الأقل جزئيا، لأنها لا تبعث على السرور عند التفكير فيها. إن أي شك حولها يمكن استنباطه لتبرير التقاعس حيالها غالبا ما يجري تلقفه بحماس، في حين تجري في الغالب مقاومة أي دليل مادي جديد يثبت حقيقتها بإنكارٍ أقوى أيضا من الواقع الذي تؤيده الأدلة.

مثلـما يمكن للتفاؤل السـاذج أن يصـل إلى درجة خداع الـذات، كذلك يمكن للتمادي في التشاؤم أن يعمينا عن أسس الأمل المشروع بإمكانية إيجاد مسار يقودنا إلى تجنـب وتجـاوز المخاطر التي تتربص بنا. بالفعل، أنـا متفائل - علما أن تفاؤلي قائمٌ على الأمل في أننا سـنجد السبل لنرى ونفكر بصفاء حول الاتجاهات الواضحة التي تكتسـب الآن زخما؛ وأننا سوف نحكّم العقل معا ونعالج التشوهات الخطيرة التي تعتري السـبل الراهنة لوصف وقياس التغـيرات القوية التي نخضع لها حاليا؛ وأننا سـوف نختار بقوة الحفاظ على القيم الإنسـانية وحمايتها ضد النتائج الآلية والهدّامة لغرائزنا الدنيئة التي تتعاظم اليوم بفعل التقنيات التي تفوق في قوتها كل ما سـبقها من أجيال ما كان يمكن أن يتخيله جول فيرن. لقد حاولت ما في وسـعي وصـف ما أعتقـد أنه مرجحٌ أكثر من عدمه في ضوء الأدلة، ليقدم لنا خيارات مهمة يجب علينا اتخاذها معا عن دراية ووعي. وأنا أقوم بذلك ليس من دواعي الخوف، بل لأنني أؤمن بالمستقبل.

1

شركة الأرض

يشهد الاقتصاد العالمي تحولا بفعل تغيرات تفوق في سرعتها وحجمها أي تغيرات سابقة حصلت في تاريخ البشرية. نحن نعيش مع، وضمن، شركة الأرض(*): السياسات الوطنية والإستراتيجيات الإقليمية، والنظريات الاقتصادية المقبولة منذ أمد طويل تعتبر الآن مفصولة عن الواقع الجديد للاقتصاد المرتبط بشكل مفرط، والمتكامل بشكل وثيق، والمتفاعل بدرجة عالية والذي شهد ثورة تكنولوجية.

تنتج الآن العديد من شركات المشاريع الكبيرة التي حققت نجاحا كبيرا في العالم السلع في «المصانع العالمية الافتراضية»، باستخدام شبكات عنكبوتية معقدة من سلاسل التوريد التي تربط المئات من الشركات الأخرى في عشرات البلدان. ولقد أصبح الآن عدد متنام من

«إن تحول الاقتصاد العالمي وظهور شركة الأرض سيتطلب نهجا جديدا بالكامل للسياسة من أجل استعادة دور الإنسانية في تشكيل مستقبلنا»

(*) صاغ هذا المصطلح (Earth Inc) لأول مرة بكمينستر فولر في العام 1973، ولكنه استخدمه للتعبير عن معنى مختلف تماما.

الأسـواق السلعية - وعلى نحو متزايد الخدمات التي لا تتطلب التعامل وجها لوجه - ذا طابع عالمي. وينبغي الآن على نسـب مرتفعة من العاملين بالأجرة أن يتنافسوا ليـس فقط مـع أقرانهم في كل بلد آخر، وإنما أيضا مـع الآلات الذكية المترابطة مع آلات أخرى وشبكات حاسوبية.

إن رقمنة العمل والانبثاث المثير والمفاجئ نسبيا لما كان يسمى بالأتمتة يقودان اثنين من التغييرات الهائلة في آن واحد:

1 - الاستعانة بمصادر خارجية للوظائف من الاقتصادات الصناعية إلى الاقتصادات النامية والناشئة ذات الأعداد السكانية الكبيرة والأجور المنخفضة.

2 - الاسـتعانة بالروبوتـات لتحويل الوظائف من البـشر إلى العمليات الآلية، وبرامـج الكمبيوتر، والروبوتات من جميع الأحجام والأشـكال، إضافة إلى النسـخ البدائية من آلات الذكاء الاصطناعي التي تتحسن في فعاليتها، وفائدتها، وقوتها من عام إلى آخر[1].

وأفضـل طريقة لفهـم التحول في الاقتصاد العالمي هـي أن نعتبره ظاهرة طارئة - أي ظاهـرة يكـون فيها الكل ليس فقط أكبر من مجمـوع أجزائه، وإنما يكون أيضا مختلفـا جدا عن مجموع أجزائه بطرق مهمة وقوية. فهي تمثل شـيئا جديدا - ليس مجرد مجموعة أكثر ترابطا من نفس الاقتصادات الوطنية والإقليمية التي كانت سابقا تتفاعـل بعضها مع بعـض، وإنما كيان جديد تماما يمتلك ديناميـات داخلية، ونماذج، وزخما، وقوة صرفة مختلفة عما كان مألوفا في الماضي. بالطبع، هناك قيود على تدفق البشر عبر الحدود، وتدفقات التجارة تكون أقوى بين البلدان المتجاورة، لكن الاقتصاد العالمي بأكمله قد أصبح متشابكا مع بعضه بإحكام أكثر بكثير من أي وقت مضى.

مثلما نشـأت المسـتعمرات الأمريكية الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية بوصفها كيانـا موحدا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر - ومثلما توحدت المدن القديمة في إيطاليـا التي كانت مفصولة بالجدران وأصبحت في نهاية المطاف أمة موحدة في النصف الثاني من القرن التاسـع عشر - خَرَجَ العالم برمته الآن كيانا اقتصاديا واحدا يتحـرك بسرعة نحو الاندماج التام. على الأقل هذا هـو واقع الحال في عالم التجارة والصناعة، وفي عالم العلم، وفي الانتشـار السريـع لمعظم التكنولوجيات الجديدة في مراكز التجارة في جميع أنحاء العالم.

في عالم السياسة والسياسة الحكومية، لاتزال الدول القومية هي الدول الفاعلة المهيمنة. نفسيا وعاطفيا، وبالطرق التي يمكننا تأطير هويتنا بها، لايزال معظمنا يعتقد ويتصرف كما لو أننا لانزال نعيش في العالم الذي عرفناه عندما كنا صغارا. ولكن في واقع الأمر، وفيما يخص الحقائق الاقتصادية للحياة، فإن العالم آخذ في الانحسار عن الرؤية.

هذا المحرك القوي للتغير العالمي - الذي يشار إليه في بعض الأحيان بشكل فضفاض وغير دقيق بـ «العولمة» - لا يرسم فقط نهاية حقبة في التاريخ وبداية أخرى، وإنما ظهور واقع جديد تماما يستوجب علينا نحن البشر أن نواجهه ونتعامل معه.

يُنظر نموذجيا إلى الاستعانة بالوظائف والروبوتات من مصادر خارجية على أنهما ظاهرتان منفصلتان ومختلفتان - تجري دراستهما ومناقشتهما من قبل مجموعات مختلفة من الاقتصاديين والتكنولوجيين، وخبراء السياسة. بيد أنهما متداخلتان إلى حد كبير وتمثلان وجهين لظاهرة كبيرة واحدة.

التحول التكتوني تجاه الاستعانة الخارجية بالروبوتات والاستعانة الخارجية بوظائف متمكنة من تكنولوجيا المعلومات يمكن أن يغير بشكل كبير نسبة مدخَلات رأس المال إلى مدخَلات العمالة ويضعف من قدرة العاملين على المطالبة بزيادة الأجور في البلدان الصناعية.

المعارك السياسية بشأن حقوق العمال في النصف الأول من القرن العشرين جرى خوضها لتحديد التوزيع النسبي للدخل من العمالة ورأس المال في المؤسسات ذات النقابات العمالية. بيد أن التغييرات التي ساقتها التكنولوجيا تؤدي الآن دورا أكبر بكثير في تحديد مستقبل العمل وما يجنيه الناس مقابل ذلك. الحجج التي سيقَت في السابق اعتمادا على مبدأ معادلة الربح مع الخسارة لم تعد صالحة أو مقنعة في الوقت الذي يمتلك فيه أرباب العمل خيارات متاحة أمامهم وجاهزة لـ: (أ) ببساطة إغلاق المصنع أو وقف الأعمال التجارية وتكرارها في بلد آخر منخفض الأجور، أو (ب) استبدال العمالة البشرية بآلات الروبوت والأنظمة الآلية.

من وجهة نظر عمال المصانع الذين فقدوا وظائفهم في الولايات المتحدة أو أوروبا، فإن تأثير الأتمتة والاستعانة بالعمالة الخارجية هو ذاته من حيث الجوهر.

أمـا من وجهة نظـر صاحب المصنع، فإن أرقـام الإنتاجية عادة مـا ترتفع كنتيجة لكل من التحول للخارج والروبوتات - سـواء جرى توظيف التكنولوجيا الجديدة في المرافق الموجودة محليا أو في بعض البلاد الأجنبية.

يَعتبر صناع القرار في كثير من الأحيان هذه النتيجة انتصارا لأن زيادة الإنتاجية في نظرهم تعادل الكأس المقدسـة للتقدم. ومع ذلك فهم في الأغلب يغضون النظر عن التأثير الكامل لهذه العملية على التوظيف في البلاد حيث الشركات التي ينسب إليهـا نمو الإنتاجية متموضعة اسـميا، على الرغم من أن الاتجاه الآن يتسـارع إلى درجة يعاد فيها النظر في الدور الأساسي الذي تلعبه العمالة في اقتصاد المستقبل.

أحـد التجليات التي تبين الطريقة التي يسـوق بها الترابط المتسـارع للاقتصاد العالمـي كلا من الاسـتعانة بمصادر خارجية للوظائـف والروبوتات في آن واحد هو أن الاسـتعانة بالروبوتات تحدث أيضا بوتيرة متسـارعة أكثر في الاقتصادات الناشئة والنامية، وبدأت في القضاء على نسـبة متزايدة من الوظائف التي جرت الاسـتعانة بها أخيرا خارجيا من الاقتصادات الصناعية المتقدمة.

هناك فرق كبير بين اسـتثمار الأموال في مصنع في الخارج لتكرار الوظائف نفسها التي كانت متموضعة في الغرب، وتوفير ما بدأ الاقتصاديون يسـمونه بـ «رأس المال التكنولوجي» - وهي الاستثمارات التي لا تزيد من إنتاجية الصناعة والتجارة فحسب - ولكنهـا مع مرور الوقـت تتخلص من أعداد كبيرة من الوظائف في كل من البلدان التي خسرت أصلا المصانع إضافة إلى البلدان التي تحولت إليها هذه المصانع.

يستفيد العمال في البلدان منخفضة الأجر مبدئيا من فرص العمل الجديدة - إلى أن يؤدي تحسـين مسـتويات المعيشة الذي أسـهموا في تحقيقه إلى المطالبة بزيادة الأجور بأنفسـهم. وعندها يصبحون أيضا عرضة للاسـتبدال عندما يصبح في مقدور أصحاب المصانع شراء روبوتات أفضل بكثير- وأرخص بكثير- وعمليات مؤتمتة بفضل الأربـاح الجديدة التي جنوها أخيرا نتيجة الاسـتعانة بمصادر خارجية من الغرب. في العام 2012 أعلنت إحدى الشركات الصينية المصنعة للإلكترونيات الاستهلاكية، وهي شركة فوكسكون، أنها ستوظف قريبا مليون روبوت جديد في غضون عامين[2].

لقد نشـأت حلقة تغذية راجعة إيجابية بين التكامل المتنامي لشركة الأرض من جهة، والإنتـاج التدريجي للآلات الذكية المترابطة من جهـة أخرى. وبعبارة أخرى،

فإن كلا هذين الاتجاهين - وهما زيادة الاستعانة الخارجية بالروبوتات والترابط في الاقتصاد العالمي المدفوع بالتجارة والاستثمار - يعزز كل واحد منهما الآخر.

يساء في بعض الأحيان فهم تأثير الاستعانة الخارجية بالروبوتات على التوظيف عندما ينظر إليها كعملية تجري من خلالها إزاحة فئات كاملة من التوظيف عندما يؤدي اختراق تكنولوجي مفاجئ إلى استبدال البشر بآلات ذكية مترابطة فيما بينها. لكن ما هو أكثر شيوعا، هو أن تستبدل الآلات الذكية المتصلة بالشبكة نسبة كبيرة من الوظائف فيما تعزز بشكل كبير إنتاجية العدد الأقل المتبقي من الموظفين من خلال تمكينهم من رفع كفاءة الآلات التي تعتبر الآن جزءا من عملية الإنتاج جنبا إلى جنب معهم.

الوظائف التي لاتزال تحظى أحيانا بسقف أجور عالٍ في مقابل المهارات الجديدة هي المطلوبة للعمل مع التكنولوجيا الجديدة. وهذا النمط يعزز ميلنا إلى سوء فهم التأثير الإجمالي لهذا التسارع الجديد للاستعانة الخارجية بالروبوتات فنراها كجزء من النمط المألوف منذ زمن طويل الذي يجري بواسطته التخلص من الوظائف القديمة وإحلال وظائف جديدة أفضل منها محلها.

ولكن ما هو مختلف اليوم هو أننا بدأنا في تسلق الجانب المنحدر من منحنى التكنولوجيا هذا، والتأثير الكلي لهذه العملية نفسها التي تحدث في الشركات والصناعات المتعددة في آن واحد ينتج تراجعا كبيرا في التوظيف. علاوة على ذلك، العديد من الموظفين يفتقرون إلى المهارات (في الحساب العشري، على سبيل المثال، وهو أمر ضروري لتشغيل العديد من الروبوتات) المطلوبة لملء شواغر الوظائف الجديدة.

ظهرت شركات جديدة لربط العمال إلكترونيا مع الوظائف[3] التي يمكن الاستعانة بها خارجيا بأسعار زهيدة وبكفاءة عبر الإنترنت. قال غاري سوارت، الرئيس التنفيذي لإحدى أكثر شركات سمسرة الوظائف نجاحا على الإنترنت، وهي شركة أوديسك-(oDesk)، إنه يلحظ زيادة في الطلب على الوظائف في جميع المجالات، بما في ذلك «المحامون، والمحاسبون، والمديرون الماليون، وحتى المديرون». وقد بدأت الاستعانة بالروبوتات تمتلك تأثيرا في الصحافة. تصدر الآن شركة نارتيف ساينس (قصة العلوم)، وهي شركة تقارير صحافية آلية[4] أسسها اثنان من المديرين

في مختبر المعلومات الذكية التابع لجامعة نورث وسترن، مقالات للصحف والمجلات مع نظم حسـابية (خوارزميات) تحلل البيانـات الإحصائية من الأحداث الرياضية، والتقارير المالية، والدراسـات الحكومة. وقد أعلمني أحد المؤسسين المشاركين، وهو كريسـتيان هاموند، الذي يعمل أيضا أسـتاذا في كلية ميديـل للصحافة، أن أعمال هذه الشركة تتوسع بشكل سريع لتشمل العديد من المجالات الجديدة في الصحافة. وقال الرئيس التنفيذي، السيد ستيوارت فرانكل، إن العدد القليل من الكتاب البشر الذيـن يعملون لمصلحة الشركة قد أصبحوا «صحافيين متبدلين» يصممون القوالب، والأطـر، والزوايا التي تدرج من خلالها النظم الحسـابية البيانات. وبهذه الطريقة، على حد قوله، فإنهم «يستطيعون كتابة ملايين القصص بدلا من كتابة قصة واحدة فقط في كل مرة».

الأثـر التراكمي للإدخال المتسـارع للـذكاء الآلي ونقل العمـل إلى البلدان ذات الأجـور المنخفضة يخلـق أيضا عدم مسـاواة كبيرة للدخل وصـافي الأصول - ليس فقط في البلدان المتقدمة، وإنما أيضا في الاقتصادات الناشئة. فأولئك الذين يفقدون وظائفهـم لديهم دخل أقل، في حين أن أولئك الذين يسـتفيدون من زيادة القيمة النسبية لرأس المال التكنولوجي لديهم زيادة في الدخل.

فجوة الثروة العالمية

مع اسـتمرار تسارع هذا التحول في القيمة النسبية للتكنولوجيا مقابل العمالة، ستستمر أيضا مسـتويات عدم المسـاواة. وهذه الظاهرة ليست في الحيز النظري، وإنما هي تحدث فعليا في الوقت الراهن وعلى نطاق واسـع. مع الازدياد المتواصل لأهمية رأس المال التكنولوجي بالمقارنة مع قيمة العمالة، سيصبح مزيد من الدخل المشـتق من الأنشـطة الإنتاجية متركـزا أكثر فأكثر في أيدي قلـة قليلة من طبقات النخبـة، في حين يعاني عدد أكبر بكثير من النـاس من الضرر الذي ألم بهم من جراء فقدانهم لمصادر الدخل.

هناك تركيز متزايد للثروة في أعلى سلم الدخل في كل بلد صناعي تقريبا والدول الناشـئة مثل الصين والهند. وتمثل أمريكا اللاتينية اسـتثناء نـادرا[5]. على الصعيد العالمي، عملت الاسـتعانة التكنولوجية الخارجية ولو مؤقتا على الأقل على تحسين

مساواة الدخل، وذلك بسبب النقل الهائل للأعمال الصناعية - والخدمات الآن - إلى البلدان ذات الأجور المنخفضة كمجموعة. ولو أخذنا كل دولة على حدة، لوجدنا أن عدم المساواة في توزيع الدخل - وصافي الأصول - يزداد حتى بشكل أسرع في الصين والهند منه في الولايات المتحدة أو أوروبا. وقد بلغ التفاوت في الدخل في العام 2012 أعلى مستوى له[6] منذ عشرين عاما في اثنتين وثلاثين دولة من الدول النامية التي استطلعتها منظمة «أنقذوا الأطفال» غير الحكومية.

في الربع الأخير من القرن الماضي، ارتفع معامل جيني (Gini) - الذي يقيس التفاوت في الدخل دولة دولة على مقياس يتدرج من 0 إلى 100 (بحيث تبدأ مرتبة جميع الأشخاص المتساوين في الدخل عند النقطة 0 إلى شخص واحد له دخل يساوي كل دخل الدولة عند نقطة 100) - في الولايات المتحدة من 35 إلى 45[7]، وفي الصين من 30 إلى بداية الأربعينيات 40[8]، وفي روسيا من منتصف العشرينيات 20 إلى بداية الأربعينيات 40[9]، وفي المملكة المتحدة من 30 إلى 36[10]. يمكن لهذه الأرقام على صعيد الدول أن تحجب حتى التأثيرات الهائلة ضمن سلم الأجور. على سبيل المثال، وفقا لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD، تشكل نسبة العشرة في المائة العليا 10 في المائة على سلم الأجور في الهند أكثر من 12 ضعفا من العشرة في المائة الدنيا مقارنة بستة أضعاف فقط قبل عقدين من الزمن[11].

التفاوت المتنامي في الدخل وصافي الأصول في الولايات المتحدة مدفوع أيضا بالتغيرات في قوانين الضرائب التي تحبذ فئات أصحاب الدخل المرتفع، بما في ذلك الإلغاء الفعلي لضرائب الإرث، لاسيما الضرائب المفروضة على الدخل الناجم عن الاستثمار التي تعتبر في أدنى مستوياتها على الإطلاق وهي 15 في المائة[12]. عندما يكون معدل الضريبة المفروضة على الدخل من استثمارات رأس المال أدنى بشكل ملحوظ من معدلات الضرائب المفروضة على الدخل المكتسب مقابل عمل، أو من أولئك الذين يبيعون الموارد الطبيعية المستخدمة في هذه العملية، فإن نسبة الدخل التي تتدفق على أصحاب رأس المال تزداد بشكل طبيعي.

في الولايات المتحدة يذهب 50 في المائة من مجموع الدخل المكتسب من أرباح رأس المال إلى الجزء الأعلى من الألف الأولى من نسبة الواحد في المائة[13]. الأيديولوجية السياسية الحالية التي تؤيد هذا التوزيع للدخل تشير إلى هؤلاء

المســتثمرين الأثرياء باســم «منتجي فــرص العمل»، لكن مع الاســتعانة بالعمالة الخارجية والروبوتات، فإن الأثر التراكمي لرأس المال الذي يقدمونه هو أثر ســلبي فيما يخص الوظائف، بغض النظر عن آثاره المفيدة.

مــن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن الولايات المتحدة فيها عدم مســاواة يفوق ذلك الموجود في كل من مصر أو تونس[14]. اشــتعلت حركة «احتلوا وول ســتريت» بسبب صحوة واســعة للزيادة الهائلة في تمركز الثروة في حــوزة الواحد في المائة العليا، الذين يمتلكون الآن ثروة تفوق تلك التي يمتلكها الناس في نسبة الـ 90 في المائة الدنيا[15]. أثرى الأغنياء الأمريكان الأربعمائة 400، وجميعهم من المليارديرات، يمتلكون ثروة مجتمعة تفوق ما يمتلكه 150 مليون أمريكي في نسبة الـ 50 في المائة الدنيا[16] من السلم. الأبناء الخمســة وكنة واحدة للسادة سام وبَد والتون (مؤسسو مجموعة أسواق وول مارت) يمتلكون ثروة تفوق ما يمتلكه نسبة الـ 30 في المائة الدنيا من الأمريكيين[17].

من حيث الدخل الســنوي، فإن نســبة 1 في المائة العليا تتلقــى الآن ما يقرب من 25 في المائة من مجمل الدخل الســنوي في الولايات المتحدة، وهي نســبة تزيد بمعدل 12 في المائة على ما كانت عليه قبل ربع قرن فقط[18]. في حين أن الدخل بعد خصم الضرائب للمواطن الأمريكي العادي ارتفع فقط بنسبة 21 في المائة على مدار الخمســة والعشريــن عاما الماضية، فيما زاد دخل فئة الـــ 0.1 في المائة العليا خلال الفترة ذاتها بنسبة 400 في المائة[19].

الآن وبمــا أن العديــد مــن الوظائف في مجــال الخدمات إضافــة إلى التصنيع والزراعــة معرضة جميعها للإزاحة التدريجية بســبب منحنيات الابتكار والإنتاجية التــي تقيس التأثير المتســارع للثورة التكنولوجية الأساســية، أصبحت هناك حاجة ماسة إلى استبدال الدخل.

بحلول العام 2011، ازداد الاستثمار التراكمي للدول الصناعية في بقية العالم ثمانية أضعاف على مدى الثلاثين عاما الفائتة، وقد تنامى هذا الاســتثمار في هذه العملية مــن 5 إلى 40 في المائة من قيمة الناتج المحــلي الإجمالي في البلدان المتقدمة[20]. في حين من المتوقع أن يزداد الناتج المحلي الإجمالي العالمي الشــامل بنحو 25 في المائة في الســنوات الخمس المقبلة، ومن المتوقع أن تســتمر تدفقات رؤوس الأموال عبر الحدود بالازدياد بشكل أسرع بثلاث مرات من ازدياد الناتج المحلي الإجمالي[21].

الاستثمار التراكمي لبقية العالم في الاقتصادات المتقدمة يشهد نموا أيضا - ولكن ليس بالقدر نفسه. لقد ارتفعت أسهم الاستثمار الأجنبي المباشر في البلدان الصناعية كالولايات المتحدة من 5 إلى 30 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي من العام 1980 إلى العـام 2011[22]. وإحدى نتائج ذلك هي أن هـذه الاتجاهات العالمية لم تقضِ على بعض الوظائف في الولايات المتحدة فحسب، وإنما أدت أيضا إلى خلق عديد من فرص العمل الجديدة. شركات السيارات المملوكة للأجانب، على سبيل المثال، توظف الآن ما يقرب من نصف مليون شـخص في الولايات المتحدة، وتدفع لهم أجورا أعلى بنسبة 20 في المائة[23] من المعدل الوطني.

عموما، الـشركات المملوكة في معظمها للأجانب توفر الآن فرص عمل لأكثر من خمسة ملايين مواطن أمريكي[24]. وقد جرى خلق عديد من فرص العمل الأخرى في الشركات التي تعمل كشركات توريد أو مقاولة تابعة للشركات الأجنبية. على سـبيل المثـال، على الرغم مـن أن الصين تهيمن الآن على تصنيع ألواح الطاقة الشمسـية، يوجـد لدى الولايـات المتحدة ميـزان تجاري إيجـابي مع الصين في قطـاع الطاقة الشمسية - وذلك بسبب الصادرات الأمريكية من البولي سيليكون المعالج ومعدات التصنيع المتطورة[25] إلى الصين.

ومـع ذلك، فإن آثار هـذه الثـورة الاقتصادية العالمية تـؤدي بالفعل إلى إعادة ترتيب بنيوي للأدوار النسبية للولايات المتحدة، وأوروبا، والصين، وغيرها من الاقتصادات الناشـئة. اقتصاد الصين، الذي كان يشـكل ثلث حجم اقتصاد الولايـات المتحدة قبل عشر سـنوات فقط، سـيفوق الولايـات المتحدة كأكبر اقتصـاد في العـالم في غضون هذا العقد من الزمـن[26]. في الواقع، لقد تخطت الصـين بالفعل الولايات المتحـدة في مجالات الإنتاج الصناعي، والاسـتثمارات الثابتة الجديدة، والصادرات، واسـتهلاك الفولاذ (الصلب)، واسـتهلاك الطاقة، وانبعاثات ثاني أكسـيد الكربون CO_2، ومبيعات السـيارات، وبراءات الاختراع الجديـدة الممنوحة للمقيمين، والهواتف المحمولـة. وأصبح لديها الآن ضعف عدد مسـتخدمي الإنترنت[27]. أصبح نهوض الصين الرمز الأقوى للنمط الجديد في الاقتصاد العالمي الذي يحل بسرعة محل الاقتصاد الذي كان لفترة طويلة من الزمن مرتبطا بالهيمنة الأمريكية.

لقد بدأت عواقب هذا التحول في الاقتصاد العالمي تتجلى في الارتفاع المستمر في معدلات البطالة بشكل غير عادي وقلة الوظائف - وتباطؤ الطلب على السلع والخدمات في الاقتصادات الموجهة نحو المستهلك. لم يعد من الممكن إلقاء اللوم في فقدان الوظائف المتوسطة الدخل في البلدان الصناعية بالدرجة الأولى على دورة الأعمال - أي الفترات المتناوبة من الركود والانتعاش التي تجلب فرص العمل وتأخذها مثل المد والجزر. لاتزال العوامل الدورية هي المسؤولة عن المكاسب والخسائر الكبيرة في الوظائف، بيد أن جميع البلدان الصناعية تبدو عمليا حائرة وعاجزة في جهودها الرامية إلى خلق فرص عمل بأجور ملائمة، وهي تكافح لإيجاد السبل لاستبدال طلب المستهلكين على السلع والخدمات من أجل إعادة إحياء و/أو ترسيخ مرحلة انتعاش أخرى في دورة الأعمال.

في الولايات المتحدة، تمثل السنوات العشر الأخيرة العقد الوحيد من الزمن منذ فترة الكساد الأعظم الذي شهد درجة الصفر من صافي الوظائف المضافة إلى الاقتصاد. خلال السنوات العشر نفسها، كان نمو الإنتاجية في أعلى مستوى له من أي عقد مضى من الزمن منذ ستينيات القرن العشرين[28]. إلى جانب الإنتاجية، استأنفت أرباح الشركات معدلات زيادة منتعشة في حين أن معدلات البطالة لم تنخفض إلا بنسبة ضئيلة جدا لا تكاد تذكر[29]. ازداد إنفاق الشركات الأمريكية على المعدات والبرمجيات بنسبة تقارب 30 في المائة، في حين أن الإنفاق على وظائف القطاع الخاص ازداد بنسبة 2 في المائة فقط[30]. واللافت في الأمر أن الطلبات على الروبوتات الصناعية الجديدة في أمريكا الشمالية قد ازدادت بنسبة 41 في المائة[31].

عموما، فإن تكامل الاقتصاد العالمي المعزز بالتكنولوجيا يعمل على رفع القوة الاقتصادية النسبية للدول النامية والناشئة. هذا العام 2013 سيتجاوز الناتج المحلي الإجمالي لهذه المجموعة من الدول (قياسا بقوتها الشرائية) مجموع الناتج المحلي الإجمالي للاقتصادات المتقدمة لأول مرة في العصر الحديث[32]. العجز المحتمل لهذه البلدان في الحفاظ على الاستقرار السياسي والاجتماعي والتعامل مع تحديات الحكم والفساد قد يعطل هذا الاتجاه لاحقا. لكن المحركات التكنولوجية التي تقود عملية صعودها قوية، ومن المرجح أن تسود في تعزيز وزيادة تغيير جذري وجوهري بالفعل في ميزان القوى الاقتصادية العالمية. وقد سبق لهذه الاقتصادات الناشئة،

في أعقاب فترة الكساد الأعظم، أن أصبحت المحركات الرئيسية للنمو العالمي. وهي كمجموعة تنمو بسرعة أكبر من البلدان المتقدمة[33]. بعض المحللين يشكك في استدامة معدلات النمو هذه[34]. لكن أيا كان معدل نموها، فالأمر ليس إلا مسألة وقت قبل أن تعاني هذه الاقتصادات نزيف الوظائف نفسها لمصلحة الآلات الذكية القائم حاليا على قدم وساق في الغرب.

لايزال معظم الناس والقادة السياسيون في البلدان الصناعية المتقدمة يعزون مسألة اختفاء الوظائف ذات الدخل المتوسط ببساطة إلى عمليات التوجه إلى الخارج، من دون التركيز على الأسباب الخفية وراء ذلك: وهي حقيقة ظهور شركة الأرض، والترابط العميق بين الاستعانة بمصادر خارجية والروبوتات. لقد أدى هذا التشخيص الخاطئ بدوره إلى نقاشَات خلافية بشأن مقترحات لخفض الأجور، وفرض قيود على التجارة، وتغيير جذري للمواثيق الاجتماعية بين الجيلين القديم والحديث وبين الأغنياء والفقراء، وتخفيض الضرائب على المستثمرين الأثرياء لتشجيعهم على بناء مزيد من المصانع في الغرب[35].

هذه النقاشات بشأن سياسات العمل التي لا طائل منها تقريبا، والتي تصرف النظر عن الأمور المهمة، تتكرر في حوارات مضللة شبيهة أخرى تتعلق بتأثير السياسات الوطنية على التدفقات المالية في عصر شركة الأرض. تخضع طبيعة وحجم تحركات رأس المال في الاقتصاد العالمي الشديد الترابط أكثر من أي وقت مضى للتحول الآن بفعل الحواسيب العملاقة وخوارزميات البرمجيات المتطورة التي تتعامل حاليا مع الأغلبية العظمى من المعاملات المالية، مع التأكيد الهدام على الآفاق القصيرة الأجل إلى أبعد الحدود. إحدى عواقب هذا التغيير هي مستوى جديد من التقلب والعدوى في الاقتصاد العالمي ككل. تشهد الأسواق اضطرابات رئيسية بوتيرة أكبر يتردد صداها على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم.

الحاجة إلى السرعة

التعطيل المفاجئ في أسواق الائتمان الذي بدأ في العام 2008، والركود العالمي الذي سببه، أدى إلى خسارة 27 مليون وظيفة في جميع أنحاء العالم[36]. عندما بدأت فترة الانتعاش الضعيف بعد عام واحد، بدأ الإنتاج العالمي بالازدياد مرة أخرى،

ولكن عدد الوظائف التي جرت اســتعادتها - لا ســيما في البلــدان الصناعية - كان لايزال متخلفا جدا إلى الوراء. وقد عزا عديد من الاقتصاديين الطبيعة غير التوظيفية لهذا الانتعاش إلى نشوء شغف جديد لدى أرباب العمل لإدخال تكنولوجيا جديدة بدلا من إعادة توظيف مزيد من البشر.

تمثل حاليــا «المنتجات المالية المصنعة» الأجنبية التي يقودها الحاســوب، مثل تلك التي أدت إلى الكســاد الأعظم، تدفقات رأس المــال بقيمة مفترَضة أكبر بثلاث وعشريــن مرة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي بــأسره[37]. ويجري الآن تداول ما يســمى بالمشــتقات كل يوم بأحجام أكبر أربعين مرة من مجمل الصفقات اليومية في كل أســواق الأســهم في العالم مجتمعة[38]. في الواقع، حتى عندما تُضاف ســوق الســندات الأكبر إلى السوق بشكل أســهم، تكون القيمة التقديرية للمشتقات الآن أكبر بثلاث عشرة مرة من القيمة المجتمعة لكل الأسهم وكل السندات على الأرض[39].

الصورة الشائعة لقاعات التداول في البورصة لاتزال هي ذات الصورة التي يظهر فيها أناس يصيحون بعضهم على بعض مشــيرين بأيديهم، بيد أن البشر اليوم ليس لديهم إلا دور صغير جدا في تدفقات رأس المال في الأسواق العالمية التي تهيمن عليها الحواســيب العملاقــة ذات السرعة العالية، والتي تنجــز صفقات تداول ذات تردد مرتفع. في الولايات المتحدة، كان التداول العالي السرعة، والمرتفع التردد يمثل أكثر من 60 في المائة من مجموع التداولات في العام 2009. بحلول العام 2012، كان يمثل في أوروبــا وكذلك في الولايات المتحدة أكثر من 60 في المائة من مجموع التداولات[40]. في الواقع، تتنافس أســواق المال (البورصــات) حاليا بعضها مع بعض بعروض كتلك التي تقدمت بها بورصة لندن، والتي أعلنت فيها أخيرا عن قدرتها على إنجاز وإتمام الصفقة في غضون 124 ميكروثانية[41] (جزء من مليون من الثانية). وقريبا ســتنجز الخوارزميات الأكثر تقدما الصفقــات بنانو ثانية (جزء من مليار من الثانية)، وهذا الأمر سيزيد أكثر[42] من مخاطر الاضطرابات في السوق، وفقا لبعض الخبراء.

قال أخيرا جون كارتليغ، وهو أحد الخبراء الأكاديميين في التداول الآلي من جامعة بريســتول، إنه نتيجة لتزايد سرعة إتمام الصفقات «فإننا نعيش الآن في عالم تهيمن عليه السوق المالية العالمية التي لا يتوافر لدينا فعليا فهم نظري عميق لها»[43]. في الأســبوع الأول من شــهر أكتوبر للعام 2012، أتمت «خوارزمية غامضة»[44] واحدة

10 في المائــة من نطاق حجم التداول المســموح به في البورصــة الأمريكية - و4 في المائة من جميع المقايضات في أســعار الأســهم. يشــتبه الخبراء أن الدافع هو إبطاء سرعة البيانات من أجل تعزيز أفضلية المتَداول عبر الحاسوب عالي السرعة.

لقد مارست فوائد السرعة في تدفق المعلومات دورا مهما في الأسواق على مدار 200 ســنة على الأقل، منذ أن اســتخدم بنك روتشــيلد الحمام الزاجل لإيصال خبر هزيمــة نابليون في معركــة واترلو مبكرا، مما مكنهم من جمــع ثروة من خلال بيع السندات الفرنسية على المكشــوف(45). بعد خمسين عاما، استأجر مستثمر أمريكي مراكــب شراعية سريعة للحصول على معلومات مبكرة عن المعارك الرئيســية التي كانت تدور رحاها إبان الحرب الأهلية الأمريكية، وجمع ثروة مماثلة من جراء بيع السندات على المكشوف من الولايات الاتحادية(46). بيدَ أن التأكيد على السرعة وصل الآن إلى مســتويات غير معقولة. تضع الشركات التجارية بشــكل روتيني حواسيبها العملاقــة قرب قاعات التداول الخاصة بها في البورصة - لأنه حتى لو كانت سرعتها كسرعة الضوء، فإن الوقت الذي يســتغرقه نقل المعلومات لعبور الشارع من مبنى آخر قد يضعها في موقف تنافسي لا تحسد عليه.

قبل بضع سنوات، أخبرني أحد الأصدقاء من رجال الأعمال في سليكون فالي (وادي السليكون) عن فرصة للاستثمار في مشروع استثنائي لبناء كيبل (سلك) مستقيم كالسهم من الألياف البصرية من مركز التداول في شيكاغو في الدائرة الداخلية إلى مركز التداول في بورصة نيويورك في ماهوا، نيو جيرسي. تكمن القيمة الأساســية لهذا المشروع - منذ اســتكماله - في التعهــد بتوفير ثلاثة ملــلي ثانية (جزء من ألف جــزء من الثانية) من الوقت الذي يســتغرقه نقل المعلومات عبر مســافة 825 ميلا(47) (من 16.3 إلى 13.3 مللي ثانية). يســتفيد التجار في النهاية الأخرى من الكيبل من كســب الأفضلية المهمة للبدء في التداول قبل منافسيهم بفارق ثلاثة مللي ثانية، لذا فإن خدمة استخدام هذا الكيبل الجديد تباع بأســعار عالية. حتى أنه يجري حاليا إنشاء نظام أحدث بالموجات الصغرى الكهرومغناطيسية (مايكرويف) على الخط (المسار) ذاته وبسرعة نقل بيانات لم يسبق لها مثيل (بيد أنه أقل دقة في الظروف الجوية السيئة).

لقد أدى ذوبان النهر الجليدي في القطب الشمالي إلى البدء بمشروع جديد لربط الأســواق في طوكيو ونيويورك مع تدفقات أسرع للمعلومات المالية عبر كيبل ليفي

على طول الجزء السـفلي من المحيط المتجمد الشـمالي. وقد بدأت ثلاثة مشـاريع أخـرى لربط اليابان وأوروبا تحت القطب الشـمالي، ومـن المتوقع أن يزيد الكيبل الجديد قيد الإنشاء حاليا عبر المحيط الأطلسي والذي تبلغ تكلفته 300 مليون دولار من سرعة تدفق البيانات بين نيويورك ولندن بنسبة 5.2 مللي ثانية.

إن إنفـاق مبلغ 300 مليـون دولار لتوفير بضعة أجزاء من الألف من الثواني في تدفق المعلومات ما هو إلا مثال واحد صغير يظهر كيف أن معظم الثروة الذي كان يخصص سـابقا للأنشـطة ذات الطبيعة الإنتاجية قد تحـول الآن بدلا من ذلك إلى الإنفاق على ما يسميه عديد من الاقتصاديين «عملية زيادة حجم وتأثير المؤسسات المالية» (financialization) على الاقتصـاد[48]. لقد تضاعفت الآن حصة الاقتصاد الأمريـكي المخصصة إلى القطاع المالي من نحو 4 في المائة في العام 1980 إلى أكثر من 8 في المائة في الوقت الحاضر[49].

يعكس جزء من هذه الزيادة المرعبة الاسـتثمارات الكبيرة التي وظفت لتمويل انفجار تكنولوجيا المعلومات حتى شـهر أبريل من العام 2000، فيما يمثل جزء آخر منها النمـو السريع في قروض الرهن العقاري الذي صاحب تراكم فقاعة الإسـكان حتى العـام 2008. ولكن حتى بعد انفجار فقاعة الـدوت كوم dot.com وفقاعة الإسـكان التي تلتهـا، واصل قطاع الخدمات المالية في كسـب حصة أكبر من الناتج المحـلي الإجمالي. وقد كانت القوة الدافعة وراء هذا التحول التاريخي هي توظيف أجهزة الحاسوب العملاقة القوية والخوارزميات في تصنيع مشتقات مالية أجنبية - واستسـلام الحكومة في وجه مجموعات الضغط من جانب صناعة الخدمات المالية من أجل تخفيف المعايير الرقابية التي كانت تعيق تسويق مثل هذه الأدوات.

إن مـا يقدر بنحو 82 في المائة من المشـتقات هـي أدوات أجنبية تعتمد على أسـعار الفائـدة، فيما يعتمـد 11 في المائة تقريبا على عقود الـصرف الأجنبي، وما يقـارب 6 في المائة على المشـتقات الائتمانية[50]. وأقل مـن 1 في المائة يعتمد على قيمة السـلع الفعلية[51]. لكن التدفقات الإجمالية كبيرة بشكل لا يصدق إلى درجة أن قيمة المشـتقات النفطية التي يجري تداولها في يوم نموذجي تصل بشكل مذهل إلى أربعـة عشر ضعفا من قيمة كل البراميل الفعلية من النفط التي يجري تداولها في ذلك اليوم نفسه[52]، وهذا ليس إلا مثالا واحدا على ذلك.

نظريـا، يمكن تبرير هذه التدفقات الكبيرة الحجم والعالية التردد التي يسـيرها الحاسـوب بإثبات أنها تعمل على تحسين السـيولة وكفاءة الأسواق. يرى عديد من الاقتصاديين والمصرفيين أن التدفقات الكبيرة لرأس المال التي تمثلها المشتقات تضيف في الواقع إلى استقرار الأسواق ولا تزيد من المخاطر النظامية، وأحد أسباب ذلك هو أن المصارف لديها ضمانات كفيلة تساوي نسبة كبيرة مما يجري التداول فيه[53].

فيما يشير آخرون إلى أن هذا الرأي يستند إلى افتراض عفى عليه الزمن الآن وهو أن السـيولة الزائدة هي دائما أفضل - وهو افتراض يسـتند بدوره إلى نظريتين حول الأسـواق التي تشـكل جزءا من «النموذج القياسي» الذي فقد مصداقيته منذ أمد بعيد: وهو أن الأسـواق تميل نحو التوازن (ولكنها ليست كذلك)، وأن «المعلومات الكاملة» تنعكس ضمنيا في السلوك الجماعي الموجود في السوق (والأمر ليس كذلك أيضا)[54]. يقول الخبير الاقتصادي الحائز جائزة نوبل جوزيف ستيغليتز أن المتاجرة بسرعة كبيرة لا تنتج إلا «سيولة زائفة»[55].

تحدي التعقيد

على عكس التداول في أسـواق الأسـهم والسـندات فإن التداول بالمشتقات لا تحكمه النظم بشـكل كامل ومطلق. وهذا يضيـف إلى مخاطر زيادة التقلبات في الأسـواق، ولاسـيما عندما يفوق حجم التداول اليومي من التحويلات الإلكترونية لـرأس المـال الآن المجموع الإجـمالي لجميـع الاحتياطيات الموجـودة في البنوك المركزيـة[56] لجميع البلدان المتقدمة. من الناحية العملية، فإن الإزاحة التدريجية لدور الإنسـان في صنع القرار في هذه العمليـة، وانفجار التداول في الأدوات المالية الاعتباريـة بكميـات كبيرة تحجم معاملات القيمة الحقيقيـة في الاقتصاد العالمي، أسـهما في زيـادة التواتر في الاختلالات الرئيسـية في دور رأس المـال بوصفه عاملا موثوقـا وفعالا في الإنتاج. بعـض الأدوات الاعتبارية التي يجـري التداول بها الآن بكميات كبيرة يصعب تمييزها عن المقامرة.

هناك عاملان يفسران السبب الكامن وراء المخاطر النظامية الجديدة في الأسواق التي تخلقها إدارة تدفقات رأس المال العالمية بواسـطة أجهزة الحاسـوب العملاقة بفواصـل زمنية بالميكروثانية: وهما التعقيد البالـغ والربط الزمني الضيق. وهذان

العاملان يعملان بشكل متضافر. أولا، تعقيد النظام ينتج أحيانا عيوبا كبيرة ومزعجة سـببها شكل من أشكال «التوافقيات الحسابية» (تستجيب برامج الحاسوب بشكل أسـاسي للعمليات الآنية فيما بينها بدلا من واقع السوق الأساسي)[57]. هذا التعقيد يعني أن المشـاكل التي أدخلت في تشغيل النظام يمكن أن تكون عصية على الفهم بشكل بالغ بالنسبة إلى أي كائن بشري حقيقي من دون توفير الوقت اللازم لمعالجة أصل المشـكلة ومعرفة مكامن الخطأ. ثانيا، الربـط الزمني الضيق لعدد من أجهزة الحاسـوب العملاقة يضمن ألا أحذ سـيكون لديه متسع من الوقت لتحديد ماهية الخطأ ناهيك عن الوقت الضئيل المتوافر لمعالجته وتصويبه.

أحـد الأمثلة: في 6 مايـو 2010 ، انخفضت قيمة التداول في بورصة نيويورك ألف نقطـة ثم ارتدت مرتفعة بذات القيمة تقريبا من دون سـبب واضح[58] - وكل ذلك حدث بفاصل زمني لا يتجاوز ست عشرة دقيقة. لم تكن هناك أخبار تؤثر في السوق من هذا النوع المرتبط عادة مع انخفاض حاد بهذا الحجم في مثل هذا الفاصل الزمني القصير. كما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز في اليوم التالي، «هبط سـعر شركة أكسنتشر (Accenture) أكثر من 90 في المائة لكل سنت واحد، وانخفض سعر G&P بشكل حاد إلى 39.37 دولار من السعر السابق الذي كان يفوق 60 دولارا في غضون دقائق»[59]. ونقلت الصحيفة عن أحد التجار قوله «كان الأمر أشبه بفترة الانحطاط»[60].

احتاج المختصون فترة خمسـة أشهر من العمل المكثف لكي يفهموا الأمر الذي حدث وسـبب ما يسـمى التحطم المفاجئ، الذي تبين وفق ما توصلوا إليه في نهاية المطـاف أنه ينجم عن التفاعل المعقد بين خوارزميات التداول الآلي المسـتخدمة في عدد كبير من أجهزة الحاسوب العملاقة التي من شأنها، في الواقع، أن تخلق بطريقة ما حجرة محاكاة خوارزمية تسبب تحطم الأسعار بشكل مفاجئ[61].

عندمـا أوصى جوزيف سـتيغليتز، وهـو أحد هؤلاء الخـبراء، بعلاجات لمنع تكـرار التحطم المفاجئ، اقترح قاعـدة جديدة تتطلب أن تبقى عروض الشراء أو البيع مفتوحة لثانية واحدة[62]. بيد أن المديرين الماليين المسـؤولين عن الشركات المالية الموضوعة على المحك في ظل النمط الحالي للأعمال، اسـتجابوا برَهبة لهذا الاقـتراح، مدعين أن شرط الثانية الواحدة سـيدمر الاقتصـاد العالمي[63]. وبالتالي رُفض الاقتراح.

كان وراء الأزمة المالية التي عصفت بالأسواق العالمية في العام 2008 أولا نوع معين من المشتقات: الرهون العقارية عالية المخاطر المضمونة التي جرى تحوطها بشكل غريب من الضمان اتضح لاحقا أنه وهمي. فقد قسمت أجهزة الحاسوب العملاقة هذه الرهون العقارية عالية المخاطر إلى شرائح ومكعبات من المشتقات كانت معقدة إلى درجة أنه لا يمكن لأي إنسان أن يفهمها. ومرة أخرى، قامت عملية الاستعانة بالروبوتات لهذه الأدوات المالية الغريبة بالمساعدة والتحريض على تسويق تلك المنتجات ذاتها للمشترين في جميع أنحاء الاقتصاد العالمي.

عندما جرى فحص الجودة الحقيقية والقيمة الفعلية لقروض الرهن العقاري المطروحة في وقت متأخر، أعيد تسعيرها على الفور بشكل جماعي - مما أثار أزمة الائتمان وانفجار فقاعة الإسكان في الولايات المتحدة. حقيقة أنها كانت مرتبطة بشبكة معقدة من المعاملات المالية الأخرى التي يسيرها الحاسوب (التزامات الدين المضمونة CDOs) أدت إلى أزمة الائتمان، وخلل هائل في توافر رأس المال بوصفه عاملا أساسيا للإنتاج في الاقتصاد العالمي - وبشكل أساسي، إلى تهافت العملاء العالمي إلى المصارف لسحب ودائعهم. وهذا بدوره أدى إلى حدوث الكساد الأعظم، الذي لانزال نكافح للتخلص من آثاره.

وبمحض المصادفة، بعد أن اكتسب تصنيع هذه المشتقات زخما وزاد حجما، لم يبق فعليا من دور للإنسان في هذه العملية سوى التوقيع الذي يعتبر شرطا قانونيا على كل معاملة رهن عقاري أساسية ليتحمل مسؤولية مراجعة نزاهة كل معاملة رهن عقاري قُسِّمت إلى شرائح، ومكعبات، وجرى توريقها، ومهرها بختم تصنيف AAA من قبل وكالات تصنيف فاسدة ومقيدة، ومن ثم بيعها في جميع أنحاء العالم[64].

كما كشفت الدعاوى القضائية اللاحقة، فإن شرط التوقيعات من قبل شخص فعلي من البشر لم يكن يستطيع مجاراة سرعة الحواسيب العملاقة، ولهذا السبب جرى التعاقد مع موظفين بأجور زهيدة لتزوير تواقيع مديري القروض بمعدل مائة مرة في الدقيقة، من دون أدنى اهتمام بمضمون ومعنى الوثائق التي يوقعون عليها - وهذا إجراء شاع تسميته بـ «توقيع الروبوت»[65]. على الرغم من أنه لم يُستخدم أي روبوت في العملية، يوضح هذا المصطلح في حد ذاته التشابك ما بين مصطلحي الاستعانة الخارجية بالروبوتات والاستعانة الخارجية بالبشر.

إلى أن وقعت أزمة في العام 2008، كان حجم التداول في المشتقات في تزايد منذ العام 2000 بمعدل 65 في المائة سنويا[66]. وبما أن المصارف في الولايات المتحدة كانت تكسب ما يقارب 35 مليار دولار سنويا من وراء صفقات هذه المشتقات، لا يوجد سبب للاعتقاد بأن هذا النمو في حجم التداول لن يستأنف مرة ثانية، كما لا يوجد سبب كي نتوقع أن المصارف لن تستمر في توظيف مجموعات الضغط النافذة وحملات التبرعات لمنعهم من أن يصبحوا خاضعين للقوانين الرقابية[67].

التكامل العالمي

كانت أسباب هذا التسارع غير المسبوق في تكامل الاقتصاد العالمي تشمل عدة عوامل في آن واحد: انهيار الشيوعية وظهور سياسات موجهة بشكل أكبر نحو السوق في بلدان المعسكر الاشتراكي السابق؛ وانفتاح الصين وعصرنتها في عهد دنغ شياو بينغ (وهي عملية استمرت أيضا في التسارع مع النهوض السريع لقوة الصين الاقتصادية)، والتغيرات الثورية في مجال النقل، والاتصالات، وتكنولوجيا المعلومات.

ربما الأهم من ذلك كله هو تخفيف القيود التجارية في عملية تحرير التجارة التي بدأت مع الاتفاقية العامة بشأن التعريفات الجمركية والتجارة (الغات GATT) في نهاية الحرب العالمية الثانية (وهي عملية تسارعت في السنوات التي تلت هذه الاتفاقية). وقد ارتفعت تدفقات التجارة الدولية أكثر من عشرة أضعاف على مدار السنوات الثلاثين الأخيرة - من 3 تريليونات دولار أمريكي إلى 30 تريليون دولار أمريكي سنويا - وهي مستمرة في النمو بمعدل أسرع جزئيا من الإنتاج العالمي[68].

كانت هناك بالطبع فترات سابقة أدت فيها هذه الموجات الجديدة للتجارة العالمية إلى إحداث تغييرات كبيرة في نمط الاقتصاد العالمي. الرحلات الشهيرة على الرغم من قِصَرِها التي قام بها الأسطوري الصيني المخصي الأميرال تشنغ خه خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الخامس عشر إلى شرق أفريقيا استبقت رحلات الاستكشاف التي قام بها كريستوفر كولومبوس إلى العالم الجديد، وكذلك رحلات فاسكو دا غاما حول رأس الرجاء الصالح، ورحلات كورتيس، وبيثارو، وجميع الآخرين الذين ربطوا أوروبا بالعالم الجديد وآسيا[69].

قبل تطوير طرق التجارة عبر المحيطات القارية، فتَحَ تأسيس الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر وفترة «السلام المغولي» (Pax Mongolica) التي تلتها طرقا برية للتجارة لم تكن مسبوقة في ذلك الحين بين الصين، والهند، وآسيا الوسطى، وروسيا، وأوروبا الشرقية. بعد انتشار مرض الطاعون الأسود في منتصف القرن الرابع عشر، وضعف الحكم المغولي، أدى إغلاق الطرق البرية بين أوروبا وآسيا مرة أخرى إلى إنشاء مضيق يمر عبر الشرق الأوسط كان يسيطر على التدفقات التجارية فيه إلى حد كبير كل من البندقية (فينيسيا) ومصر[70].

لقد كان أحد الأسباب التي أسهمت ولو جزئيا في بذل جهود جريئة نحو إيجاد طريق عبر المحيط إلى الهند والصين هو الضغط الاقتصادي الشديد في أوروبا الغربية. لقد أحدث تدفق الذهب والفضة من العالم الجديد إلى أوروبا - وبعد فترة ليست طويلة، المكاسب الكبيرة التي حققتها الإنتاجية الزراعية التي رافقت ظهور الذرة والمحاصيل الغذائية الأخرى في العالم الجديد وأوروبا وأفريقيا - ثورة في النمط القديم[71] الذي كان عليه الاقتصاد العالمي.

يذكرنا أيضا المؤرخون الاقتصاديون بأن الصين والهند يشكلان معا النصف أو أكثر من الناتج المحلي الإجمالي العالمي منذ السنة 1 على الأقل إلى بداية الثورة الصناعية الثانية في أواسط القرن التاسع عشر. كانت اقتصاد الصين هو الاقتصاد الوحيد الأكبر في العالم في العام 1500 ومرة أخرى في أوائل القرن التاسع عشر قبل حرب الأفيون الأولى، التي بدأت في العام 1839[72].

ومن هذا المنظور، فإن هيمنة الولايات المتحدة وأوروبا على الاقتصاد العالمي على مدى السنوات الـ 150 الماضية كانت بسبب انقطاع الهيمنة الآسيوية في حصة الناتج المحلي الإجمالي العالمي لفترة أطول من ذلك بكثير. كانت تلك الفترة التي امتدت على مدار قرن ونصف القرن تمثل نجاحا كبيرا لتلك الدول التي كانت أول من احتضن الثورة الصناعية - المملكة المتحدة، ومن ثم الولايات المتحدة وشمال غرب أوروبا - في حين كان أربعة أخماس سكان العالم يتخلفون وراء الركب. في العصر الحديث، يبدو أن الصين والاقتصادات الأخرى الناشئة والنامية هي التي تحقق النجاحات. قبل القرن التاسع عشر، كان توزيع الثروة في العالم يرتبط بعلاقة تبادلية تقريبا مع السكان، ولكن موجة الزيادة في تعزيز الإنتاجية التي صاحبت

الثـورة الصناعية والثـورة العلميـة والتكنولوجية أدت إلى تراكـمات أسرع بكثير للـثروة في الغرب. وبعد ذلك، عندما اكتسـب الشرق مزيدا من فرص الحصول على التكنولوجيات الجديدة[73]، عاد النمط القديم إلى فرض نفسه من جديد.

يعـزو بعض الخـبراء الاقتصاديين نهوض الصـين وإزاحتها الوشـيكة للولايات المتحـدة باعتبارها أكبر اقتصـاد في العالم إلى المزايا الكامنـة في نظام الصين القائم عـلى الرأسـمالية الموجهة من قبـل الدولة، التي يزعمون أنها متفوقة على شـكل الرأسـمالية الأكـثر حرية في الولايات المتحدة الأمريكية. إن كان ذلك هو التفسـير بالفعـل، في إمكان الولايات المتحدة أن تشـعر بالارتياح مـن حقيقة أن تحذيرات مماثلـة عـن مزايا نموذج متفوق مزعـوم للنظام الاقتصادي اتضـح فيما بعد أنها مجرد إنذارات كاذبة في أواخر خمسـينيات القـرن العشرين (عندما كان ينظر إلى الاتحاد السـوفييتي على أنه يشكل تهديدا اقتصاديا إلى جانب تهديده العسكري) وسـبعينيات وثمانينيـات القرن العشرين (عندما كان يخـشى من أن تكون «شركة اليابان» ذات سطوة اقتصادية جديدة).

بيـد أن ظهـور شركة الأرض هو المسـؤول الأكـبر عن هذه الظاهرة، حسـب اعتقادي، وهذه المرة الوضع مختلف فعلا. في جميع أنحاء العالم النامي، بدأت الآن دول مثـل الهند الغارقة منذ أمد بعيد في الفقـر في إطلاق إمكاناتها الهائلة ورجال الأعمال الشـباب يتواصلـون مع نظرائهم في البلدان الأخـرى في جميع أنحاء شركة الأرض ويكتشفون ويطورون الابتكارات، الكبيرة منها والصغيرة.

في المـاضي، عادة ما كانت تنشـأ مراكز خبرة في تكنولوجيـا أو صناعة معينة في مواقـع محددة حيث تطور مجموعة من الأشـخاص مـن ذوي المهارات والخبرات المماثلـة شـبكة محلية من الاتصـالات بعضهم مع بعض، ويتعلمـون بعضهم من بعض، ويحسن كل واحد منهم ابتكارات الآخر بمزايا إضافية متطورة، تسمى أحيانا «التحسينات» (Tweaks). يقدم الصحافي البريطاني - الكندي مالكوم غلادويل، الذي يكتب في صحيفة «نيويوركر»، مثالا قويا عن هذه الظاهرة:

> في العـام 1779، اخـترع صمويـل كرومبتون، وهو عبقـري متقاعد من لانكشـاير، آلة الغزل التي تسـمى الميـول (البغل)، التي أسـهمت في مكننة صناعـة القطن. ومع ذلك كان لدى إنجلترا حظوة فعلية لأنه كان لديها هنري

ستون من هورويتش، الذي أضاف بكرات معدنية إلى آلة الميول؛ وجيمس هارغريفز من توتينغتون، الذي اكتشف طريقة لتسهيل عملية تسارع وتباطؤ عجلة الغزل؛ وويليام كيلي من غلاسكو، الذي توصل إلى كيفية إضافة الطاقة المائية إلى شوط السَحب؛ وجون كينيدي من مانشستر، الذي أضاف تعديلات على العجلة لتنتج خيوطا ناعمة؛ وأخيرا، ريتشارد روبرتس، وهو أيضا من مانشستر، وهو سيد صناعة الآلات الدقيقة ومعلم المعلمين، الذي اخترع ميول الغزل «الآلي»: وهي عبارة عن إعادة إنتاج اختراع كرومبتون الأصلي لتكون آلة دقيقة عالية السرعة وموثوقا بها. وأمثال هؤلاء الرجال، في نظر الاقتصاديين، قدموا «الاختراعات الصغيرة اللازمة للتوصل إلى اختراعات كبيرة ذات إنتاجية وربحية عالية»[74].

عندما اكتسبت الثورة الصناعية زخما في المملكة المتحدة خلال القرن الثامن عشر، كان هناك اتصال مباشر بين المخترعين، والسباكين، والحدادين، والمهندسين الذين أسهموا في تحسين مجموعة كبيرة من التقنيات التي انتشرت لاحقا في جميع أنحاء العالم. كانت الثورة التي بدأوها تقتصر في البداية على بلد واحد، ومن ثم، وببطء في البداية، انتشرت في جميع أنحاء منطقة شمال الأطلسي.

صحيح أن المجموعات التكنولوجية لاتزال مهمة، ووادي السليكون في شمال ولاية كاليفورنيا هو أحد الأمثلة الأولى على ذلك. إن التقابل وجها لوجه، والتواصل الشخصي بين الخبراء من أصحاب الكفاءات العالية، الذي يتركز على دراسة المجموعة نفسها من التقنيات لايزالان من أقوى الوسائل لدفع الابتكار إلى الأمام. ولايزال الاتصال العالمي يعمل على تسريع تطبيق التكنولوجيات الجديدة في مجالات عمل أوسع من أي وقت مضى، موجها في الوقت ذاته الطريق نحو مزيد من الاختراعات الصغيرة والكبيرة التي تعجل من عملية استبدال الوظائف البشرية بالآلات الذكية المتصلة مع بعضها. وعلى ما يبدو أن التحسينات الصغيرة في الأتمتة والكفاءة غالبا ما تكون ذات نتائج هائلة على مجمل الكفاءة والإنتاجية في قطاع معين.

تغييرات صغيرة، آثار كبيرة

لتوضيح هذه النقطة، دعونا نأخذ مثالين: الأول من المراحل المتأخرة من مكننة الزراعة، في خمسينيات القرن العشرين، والثاني مثال يبدو بسيطا

ولكنــه غايــة في الأهمية من المراحل المتأخرة من ثــورة النقل العالمية، أيضا من خمســينيات القرن العشرين، يدل على التمكين المهم لمســتويات عالية جدا من الربط في الاقتصاد العالمي.

عندما كنت صبيا أمضي فترات الصيف في مزرعة عائلتنا، كنت في بعض الأحيان أمد يد المســاعدة في جمع البيض من قن الدجــاج - الواحدة تلو الأخرى - عندما تكــون الدجاجات قد غادرت القــن لتقتات طعامها الصباحــي. أتذكر أنني كنت مندهشــا بشــكل طفيف بعد أقل من عشرين عاما عندما قام والدي بمكننة هذه العمليــة ببناء حظيرتــين كبيرتين للدجــاج تحتوي كل واحدة منهــما على 5 آلاف دجاجــة، وفقا للتصميم الذي كان دارجا حينهــا والذي انتشر بسرعة في عديد من مــزارع الدجاج الأمريكية. في كل حظيرة، كانت الدجاجات تتجول على شــبكة من الأســلاك ومن ثم تتراجع إلى المكان الوحيد المظلــم والمغري حيث يمكنها أن تضع بيضها فيه، الذي كان يقع بشكل مباشر فوق سير الناقلة. وبالتالي كان البيض الذي تم جمعه تلقائيا يرســل بعدئذ عبر أنبوب إلى آلة فرز بســيطة نســبيا بالقرب من الجزء الأمامي من الحظيرة حيث كان البيض يتدحرج بدقة ليصطف داخل العلب الكرتونيــة. وعندما تمتلئ كل علبة، كانت العلبة التاليــة تتحرك تلقائيا إلى مكانها لجمع حصتها المخصصة من البيض.

احتراما لحاجة الدجاج إلى حياة اجتماعية بدائية - لكي يبقى راضيافي وضع البيــض كل يــوم - وُضعت ديوك مخدّرة بشــكل كبير في كل مســافة 15 قدما مربعة داخل حظــيرة الدجاج. عندما ينتهي مفعول المخدر، تعود هذه الديوك لبســط سيطرتها على المســاحة التي تحتلها داخل الحظيرة، وتشعر الدجاجات التــي على تماس مبــاشر معها بالســعادة. اتضح أيضا أن وضــع كل الدجاج في منطقة محصورة كان يمنح المســؤول عن تشــغيل حظيرة الدجاج قدرة جديدة (كانت في البداية مثيرة للقلق إلى حد ما بالنسبة إليّ) لجعل الشمس تشرق أكثر مــن مرة في اليوم الواحد - وذلك عن طريــق الإضاءة الاصطناعية - مما يحرّض على مزيد من إنتاج البيض. (ملاحظة إلى منظمة بيتا(*): أنا لم تعد لي أي علاقة بحظائر الدجاج).

(*) PETA: دعاة المعاملة الأخلاقية للحيوانات.

لكــن ما كان الأكــثر إثارة للذهول بالنســبة إليّ هو أن موظفــاً واحداً كان كل مــا هو مطلوب لجمــع الإنتاج اليومي من البيض مــن 10 آلاف دجاجة. وكان من المدهش أن شــخصا واحدا يمكن أن يجمع هــذا العدد الكبير من البيض، لكن لماذا كان ينبغي وجود شــخص واحد حتى؟ في بعض الأحيان، قد تتصدع (تتشطر) بيضة ويتعيّن إزالتها من العلبة الكرتونية، وأحيانا قد تتسبب مشكلة ميكانيكية في تعطيل العمليــة ويتطلب الأمر تدخــل عنصر بشري لحلها، والعمليــة تتطلب أيضا وجود شــخص لتنســيق عملية تحميل العلب إلى الشاحنة التي ســتنقلها وتسجيل العدد الإجمالي للعلب كل يوم، وهكذا دواليك.

لكن من السهل أن نرى كيف أن إدخال مستويات بدائية من الذكاء إلى الآلات وربــط حظيرة الدجــاج ومكوناتها المختلفة عــبر الإنترنت ببرامــج مراقبة الجودة، وأجهزة الحاســوب التي تضع جدولا لشاحنات التسليم، وآليات الاتصال للاستجابة لحالات التعطيل النادرة لهذه العملية يمكنها ببســاطة أن تحل محل العمل البشري الوحيد المتبقي.

هل من الممكن أن نتصور أي مجموعة من السياسات الحكومية التي يمكن أن تحمــي الوظائف التي فُقِدت في هذه العملية؟ لننظر إلى الجهود الأولى التي بُذلت لوقف فقدان الوظائف الزراعية: في بداية النصف الثاني من القرن التاســع عشر في الولايات المتحدة كان فقدان الوظائف في المزارع يجري على قدم وســاق، لكن قلة هُــمْ من كانوا يتصورون التحــوّل الذي كان ينتظرهم خــلال العقود التي تلت. في خطاب ألقاه أبراهام لينكون قبل أن يصبح رئيسا، في 30 سبتمبر 1859 ذكر فيه: «بما أن المزارعــين هم الطبقة الاجتماعية الأكثر عددا، فــإن مصلحتهم بالتالي هي الأكثر أهميــة. ويترتب على ذلك أيضــا أن تكون تلك المصلحة هي الأجدر من أي مصلحة أخــرى بالعنايــة والرعاية - حتــى إن كان هناك تضارب حتمــي بين هذه المصلحة ومصلحة أخرى سواها، فإن المصلحة الأخرى يجب أن تذعن لها»[75].

بحلول موعد تنصيبه رئيســا، كانت نســبة جميع الوظائــف المصنّفة بوظائف المــزارع قد تراجعت على نحو مطرد مــن 90 في المائة في بداية الجمهورية في العام 1789 إلى أقــل بقليــل من 60 في المائــة[76]. في العام التالي، في ربيــع العام 1862، أسس الرئيس لينكون وزارة الزراعة الأمريكية، وبعد ستة أسابيع وقّع قانون موريل

الخاص بمنح الأراضي لإنشـاء الكليات، وهو قانون تُمنح بموجبه الولايات أراضي من الدولة لإنشاء كليات الزراعة والفنون الميكانيكية[77]. وكل الولايات فعلت ذلك[78].

أدى اكتظاظ المدن بالأيـادي الزراعية العاملة التي تبحث عن عمل في المصانع إلى تحـوُّل كُلّي في طبيعة عمـل الغالبية العظمى من النـاس في الولايات المتحدة. إصلاحـات العصر التقدميّ، ومجموعة السياسـات والقوانين التي تلت ذلك، ضمن ما سـميّ بالخطة الاقتصادية الجديدة، اسـتُصدرت لمعالجة الآثار الإنسـانية لهذا التحوّل، وجزئيا، لتحل محل تدفقات الدخل المفقودة من جراء نُظُم تحويل الدخل كتعويضات البطالة والضمان الاجتماعي ومكافآت الإعاقة.

عندمـا أصبحتُ نائـب الرئيس في العام 1993، كان هناك، في المتوسـط، أربعة مكاتـب مختلفة تمثـل وزارة الزراعة وموجودة في كل مقاطعـة من المقاطعات في الولايات المتحدة البالغ عددها 3 آلاف[79] - ومع ذلك كانت النسبة المئوية لإجمالي الوظائـف المصنّفة بوظائف المزارع قد تراجعت بنسـبة 2 في المائة. بمعنى آخر، لم تفعل السياسـة الوطنية الحازمة والمُكْلِفة للنهوض بالزراعة على مدى قرن ونصف القرن من الزمن إلا الشيء اليسـير أو بالأحرى لا شيء يذكر لمنع الخسـائر الفادحة في فـرص العمل في المـزارع، وعلى الرغم من ذلك يمكن القول إن هذه السياسـات أسـهمت في الزيادة الهائلة في الإنتاجية الزراعية. لكن النقطة الأهم هي أن العديد من التغييرات النظامية القائمة على التكنولوجيا هي ببساطة قوية إلى درجة لا يمكن معها لأي مجموعة من السياسات أن تكبح جماحها.

في هذه الأيام، حقيقة، أدى ما يشـار إليه اليوم باسم التربية الصناعية (الزراعة التصنيعيـة) إلى اسـتحداث هائل لنُظُـم مؤتمتة جزئيـا لتربية الدواجـن والأبقار والخنازير وغيرها من الماشـية، ولإنتاج البيض. على مدى السنوات الأربعين الماضية، ازداد الإنتاج العالمي من البيض بنسبة 350 في المائة[80]. (الصين هي حتى الآن أكبر منتج للبيض، إذ يصل إنتاجها إلى 70 مليون طن سـنويا - وهي نسبة تشكل أربعة أضعاف إنتاج الولايات المتحـدة)[81]. وقد زادت التجارة العالمية في لحوم الدواجن خلال الفترة نفسها بأكثر من 3,200 في المائة[82].

نقـدم هنـا مثالا ثانيا عن تطور يبـدو عاديا في ظاهره لكنـه أدى إلى تقدم ثوري بالفعـل في كفـاءة القطاع الصناعي بأكمله: بدأت ثورة سـفن شـحن الحاويات في

أكتوبـر 1957 - في اليوم ذاته الذي أطلق فيه الاتحاد السـوفييتي أول قمر صناعي في الفضاء، وهو القمر الصناعي سـبوتنيك[83]. كان هناك سـؤال محيِّر يشـغل بال السيد مالكوم ماكلين، وهو رجل أعمال يمتلك شركة نقل بالشـاحنات في شـمال كارولاينا منذ قرابة العشرين عاما، وهو: لماذا تُشحن البضائع القادمة إلى الموانئ الأمريكية من الدول الأجنبية ضمـن صناديق ومغلفات من مختلف الأحجام والأشـكال والمواصفات، التي يتعين بعد ذلك إنزالها وفرزها بشكل فردي على أرصفة الموانئ، ومن ثم نقلها من هناك عبر أي وسـيلة نقل متوافرة لتسليم كل صندوق إلى وجهته النهائية - بدلا من تعبئتها ضمن حاويات متماثلة مغلقة من ذات الحجم يمكن إنزالها من على ظهر كل سـفينة قادمة وتحميلها على القطارات والشاحنات المقطورة ومن ثم نقلها إلى وجهتها النهائية.

في ربيع العام 1956، جرب ماكلين فكرته الثورية عن طريق تحميل أحد الأسطح الخاصة على متن سفينة متجهة من نيو آرك بولاية نيو جيرسي إلى هيوستن، تكساس، بثمان وخمسـين مقطورة فُصِلت عن مقصورة القيادة وهيكل الشاحنات المقطورة. كانـت التجربـة ناجحة جدا إلى درجة أنه بعد ثمانية عشر شـهرا دخل التاريخ عن طريق تجهيز سـفينة كاملة لكي تحمل على متنها 226 حاوية كانت قد أرسلت من ميناء نيو آرك وأُنزِلت بعد ذلك بأسـبوع في هيوستن على هياكل 226 شاحنة كانت تنتظرها لكي تنقلها إلى وجهاتها النهائية. كان لـ «ثورة سـفن شحن الحاويات» التي بـدأت في خريف العام 1957 تأثـير بالغ على التجارة العالميـة بحيث إنه في العام 2013 سـيجري شـحن ونقل بضائع من بلد إلى آخر في أكثر من 150 مليون حاوية بحجم مقطورات الشاحنات المقطورة[84].

يعمل التقديـم التدريجي للآلات الذكية وشـبكات التواصل على تسريع هذه العملية ذاتها في جميع مجالات التصنيع تقريبا. على سـبيل المثال، تنخفض أسـعار أجهزة التلفزيون ذات الشاشـات الكبيرة والجـودة العالية، أكثر من 5 في المائة كل عام، ويوجد فائض منها حاليا معروض في الأسـواق (أشبه بفائض الحبوب الغذائية قبل بضعة عقود من الزمن)[85]. بِيع أول جهاز تلفزيون ملون في العام 1953 بسعر يصل إلى 8 آلاف دولار[86]، وذلك حسـب سعر الدولار اليوم. أرخص أجهزة التلفاز الملونـة للبيـع اليوم مع نفس حجم الشاشـة أو أكبر، وبصورة أكـثر وضوحا بكثير، وبقدرة على تشغيل مئات القنوات بدلا من ثلاث قنوات فقط - متوافر حاليا بقيمة

زهيدة تصل إلى أقل من 50 دولارا - أو ما يقرب من نصف واحد في المائة من سعر التكلفة في مقابل الحصول على منتج ذي جودة وكفاءة أعلى بكثير من ذلك.

في هذه الأيام نحن نعتبر هذه التخفيضات الهائلة في السعر (وتحسينات الجودة المتزامنة معها) أمرا مسلّما به، لكن على أساس تراكمي لم يعد بالإمكان تجاهل آثارها في عالم العمل. في الواقع، يشير الاقتصاديون إلى العديد من المنتجات الاستهلاكية التي كانت توصف في السابق بأنها ذات تكنولوجيا فائقة على أنها مجرد سلع. الزيادة الهائلة في التجارة العالمية، جنبا إلى جنب مع الاستعانة بمصادر خارجية وروبوتات، والتدفقات الجديدة من المعلومات والاستثمارات التي تربط في العالم الافتراضي جميع المواقع في العالم بعضها ببعض تعمل جميعها على دعم بعضها البعض في حلقة عالمية واسعة النطاق من التغذية الاسترجاعية.

الاستعانة بالروبوتات

هذا النمط من التحسين التدريجي في فعالية وفائدة الآلات الذكية يجري على قدم وساق في الآلاف من الصناعات وتأثيرها التراكمي هو الذي يقود التغيير العالمي في طبيعة وهدف العمل في العالم. انظر، على سبيل المثال، في صناعة الفحم في الولايات المتحدة. في الربع الأخير من القرن الماضي، ازداد الإنتاج بنسبة 133 في المائة، على الرغم من أن الوظائف انخفضت بنسبة 33 في المائة[87].

لنأخذ مثالا آخر، انخفضت فرص العمل في صناعة تعدين النحاس في الولايات المتحدة بشكل حاد في النصف الأخير من القرن الماضي حتى مع زيادة الإنتاج بشكل كبير خلال معظم تلك الفترة[88]. كما هي الحال في الغالب عندما تحل التكنولوجيا الجديدة محل الوظائف البشرية، فإن نمط انخفاض الوظائف لا يكون متساويا وثابتا، وإنما يهبط للأسفل بحركة غير منتظمة من مستوى إلى آخر مع توافر الابتكارات الجديدة ودخولها حيز التطبيق. في إحدى الفترات التي امتدت على مدار ست سنوات - من العام 1980 إلى 1986 - انخفض عدد ساعات العمل اللازمة لإنتاج طن من النحاس بنسبة 50 في المائة[89]. في العقد نفسه من الزمن، زادت إنتاجية العمل في أحد المناجم الكبيرة التابعة لإحدى أكبر الشركات، وهي شركة كينكوت Kennecott، بنسبة 400 في المائة[90].

وعند النظر عن كثب في هذه الصناعة كمثال توضيحي عن هذا الاتجاه الواسع، فقد كانت التكنولوجيات الجديدة التي حلت محل الوظائف تشمل شاحنات ومجارف أكبر بكثير، واستخدام أوسع بكثير لأجهزة الحاسوب للإدارة الدقيقة لجدول عمل الشاحنات وتشغيل المصانع، وكسّارات أكثر كفاءة بكثير متصلة مع أحزمة ناقلة أفضل، وإدخال عمليات كيميائية وكهروكيميائية جديدة لفصل النحاس النقي من الرِكاز.

توضح صناعة تعدين النحاس في الولايات المتحدة أيضا التغييرات التي طرأت من جرّاء الاستعانة الخارجية بالعمالة والروبوتات التي تؤثر على العامل التقليدي الثالث للإنتاج - وهو الموارد. مع زيادة التكنولوجيا لإنتاجية العمل وعدد الأطنان التي تُنتَج سنويا من النحاس، وصلت الصناعة في نهاية المطاف إلى منعطف عندما بدأت الكميات المتوافرة من خام النحاس القابل للاستخلاص اقتصاديا في التناقص. طُوِّرت مصادر جديدة للنحاس في بلدان أخرى[91]، لاسيما جمهورية التشيلي على وجه التحديد. تدفع الزيادات الحادة في كفاءة الإنتاج، التي ترافقها زيادة في معدلات الاستهلاك نتيجة النمو السكاني وزيادة الثراء، العديد من الصناعات نحو فرض قيود على إمدادات الموارد الطبيعية الضرورية لعمليات الإنتاج.

في عملية أسهمت في زيادة تخفيض الوظائف والطلب في العالم الصناعي، بدأت الآن أيضا عمليات الاستعانة بالروبوتات ومصادر خارجية متمكنة في تكنولوجيا المعلومات في أداء دور رئيس في التأثير على الوظائف في أكبر فئة للتوظيف: وهي قطاع الخدمات. لنأخذ بعين الاعتبار تأثير البرامج الذكية في الأبحاث القانونية والوثائقية في الشركات القانونية. تشير بعض الدراسات إلى أنه بإضافة هذه البرامج، يمكن لمحامٍ في السنة الأولى من عمله أن ينجز وبدقة عالية كم العمل الذي كان يؤديه 500 محامٍ مثله في السابق[92].

في الواقع، يتوقع كثيرون أن يكون تأثير الاستعانة بالروبوتات أقوى بشكل أكبر في قطاع الخدمات من قطاع التصنيع. لقد كتب الكثير عن نجاح موقع غوغل في تطوير سيارات ذاتية القيادة، قطعت حتى الآن 300 ألف ميل في جميع ظروف القيادة من دون وقوع حادث واحد[93]. إذا ما جرى إتمام هذه التكنولوجيا قريبا - كما يتوقع الكثيرون - تخيل التأثير الذي سيحدثه ذلك على وظائف 373

ألف شـخص يعملون سـائقين عموميين لسيارات الأجرة وسـائقين خصوصيين[94] في الولايـات المتحـدة الأمريكية وحدهـا. وبالفعل، قامت بعـض شركات التعدين الأسـترالية باستبدال الشاحنات التي يقودها سائقون مرتفعو الأجر بشاحنات تسير من دون سائق.

عندمـا يتعلـق الأمر بالخدمات نشـهد أيضا اتجاها ثالثا يمكـن أن نطلق عليه اسـم «التوظيف الذاتي»: المسـتهلكون الأفراد للخدمات، المزودون بأجهزة حاسوب محمولة، وهواتف ذكية، وحواسب لوحية، وغيرها من الأجهزة التي تعزز الإنتاجية، يتعاملـون مع برامج ذكية لإقامة شراكة فعّالة مع الآلات الذكية لاسـتبدال وظائف العديد من الناس الذين كانوا يعملون في وظائف خدمية. يقوم العديد من المسافرين عبر الخطوط الجوية بحجز تذاكرهم بشـكل روتيني، واختيار مقاعدهم الخاصة في الطائـرة، وطباعة بطاقـات العبور والصعود على متن الطائـرة الخاصة بهم. العديد من أسـواق التسـوق المركزية والمحال التجارية الأخرى تمكّن جموع المتسوّقين من الزبائن من إجراء عمليات دفع فاتورة التسوق والخروج عن طريق الخدمة الذاتية. بدأت البنوك بتوفير العملـة النقدية للعملاء عن طريق أجهزة الصراف الآلي وتوفير الخدمات المصرفية الإلكترونية عبر شـبكة الإنترنت على نطاق واسـع. يتعامل عملاء العديد من الشركات التجارية الآن بشـكل روتيني مع حواسـب ترد على مكالماتهم الهاتفيـة. خدمات البريد الوطنية في العديد من البلـدان، بما فيها الولايات المتحدة، تفقد وسـاطتها شيئا فشيئا (أي أن دورها «كوسـيط» أصبح من الطراز القديم وقد عفى عليه الزمان) وذلك بسبب البريد الإلكتروني وشبكات التواصل الاجتماعي.

لا يـزال هـذا الاتجاه نحو التوظيف الذاتي في مراحله الأولى وسـوف يتسـارع بشكل هائل مع تحسّن الذكاء الاصطناعي عاما بعد عام. إحدى المشكلات الواضحة هـي أنه لا يوجد أي تعويض لجميع الأعمال الجديـدة التي يقوم به الأفراد، حتى التعويضات التي كانت تدفع سابقا لأصحاب تلك الوظائف في الشركات الذين فقدوا وظائفهم تبخّرت أيضا للاقتصاد ككل. الراحة الزائدة التي تصاحب التوظيف الذاتي تحسّن الكفاءة وتوفر الوقت بالتأكيد، لكن في المعدل العام فإن الانخفاض الإجمالي في دخل أصحاب الأجور متوسطة الدخل قد بدأ يظهر له تأثير ملحوظ على إجمالي الطلب - لا سيما في المجتمعات الاستهلاكية.

ومـن منظور عالمي، فإن الاستعانة بكل مـن المصادر الخارجيـة والروبوتات تدفع الاقتصاد إلى الإضعاف الفوري للطلب والفائض في الإنتاج. استخدام سياسات التحفيـز الكينزية[*] Keynesian - أي الاقـتراض الحكومي لتمويل زيادات مؤقتة في إجـمالي الطلب - قد يصبح أقـل فعالية مع مرور الوقـت، بحيث يمثل التحوُّل الجهـازي العلـماني إلى اقتصاد يمتلك وظائف أقل نسـبة إلى الإنتاج أحد الأسـباب الرئيسة في انخفاض الدخل، وبالتالي انخفاض الاستهلاك والطلب. بالإضافة إلى ذلك، كما سـأشرح بالتفصيل لاحقا، تشمل التحولات الديموغرافية التي لم يسبق لها مثيل نسـبة أكبر من الناس المتقاعدين من كبار السـن في البلدان الصناعية الذين تحول دخلهم إلى برامج الضمان الاجتماعي - مما يحد من قدرة الحكومات على اسـتبدال الدخل إلى أجل غير مسمى بالنسبة إلى الناس الذين في سن العمل.

مـا لم يُسـتبدل الدخل المفقـود للعاطلين عن العمـل ولعمال المصانـع الذين لا يجـدون وظائف كافية في البلـدان الصناعية بطريقة أو بأخرى، فـإن الطلب العالمي عـلى منتجات المصانع الجديدة المؤتمتة بدرجة عالية سيسـتمر في التراجع. ومع ذلك، تسـتمر الاقتصادات الصناعية في توفير أكبر حصة من الطلب والاستهلاك العالميين. من المرجـح إلى درجة كبيرة أن تذهب الأجور المرتفعة المدفوعة للعمال في البلدان النامية والاقتصادات الناشئة نحو التوفير والادخار بدلا من الاستهلاك[95]، وذلك يعود جزئيا إلى أسباب ثقافية. فيما جرت عولمة العمالة ورأس المال، ظلّ الجزء الأكبر من الاستهلاك في الاقتصاد العالمي متمركزا في البلدان الصناعية الغنية. ينجم عن هذا الأمر عدم تناسـب بين توزيع الدخل والدور المركزي للاستهلاك في دفع النمو الاقتصادي العالمي.

إعادة النظر في الموارد

سـتتطلب هذه التغييرات المتسـارعة بالتالي إعادة تصوّر للـدور المركزي الذي يلعبـه حاليا الاسـتهلاك في اقتصادنا ويسـتبدل في الوقت نفسـه تدفقات الدخل للعمال التي تساعد على الاستهلاك في الوقت الراهن. العلاقة الحالية بين المستويات المرتفعة غير المسـبوقة للاستهلاك وسـلامة الاقتصاد العالمي غير مستقرة على نحو متزايد في أي حال من الأحوال.

(*) نسبة إلى عالم الاقتصاد الإنجليزي كينز. [المترجم].

الثورة التكنولوجية المتسارعة لا تحوِّل دور العمالة ورأس المال كعوامل للإنتاج في الاقتصاد العالمي فحسب، وإنما تحوِّل دور الموارد أيضا. فقد أدت التكنولوجيات الجديدة للتلاعب الجزيئي إلى تطورات ثورية في علوم المواد والمواد الهجينة الجديدة كلية التي تمتلك مزيجا من المواصفات المادية تتجاوز بكثير تلك المواصفات الموجودة في أيٍّ من المواد التي طُوِّرت بواسطة التكنولوجيات الأقدم منها بكثير في مجال علم المعادن والسيراميك[96]. كما تنبأ بيير تيلهارد دي شاردان قبل أكثر من ستين عاما، «عندما تصبح الإنسانية موَّحدة على مستوى الكرة الأرضية فإنها تكتسب قوى مادية جديدة تجعلها قادرة على تنظيم المادة بتفوق»[97].

يتضمن المجال الجديد لعلم المواد المتقدم دراسة المادة الصلبة، والتلاعب بها، واختلاقها باستخدام أدوات متطورة للغاية تعمل على مبدأ الذرات الواحدة تلو الأخرى تقريبا. وهذا يشمل العديد من المجالات المتعددة التخصصات، بما في ذلك الهندسة، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الأحياء. الأفكار الجديدة التي يجري تطويرها في الطرق التي تتحكم فيها الجزيئات بالوظائف الأساسية وتوجهها في علم الأحياء، والكيمياء، وتفاعل العمليات الذرية وتحت الذرية التي تشكل المادة الصلبة تعمل على تسريع ظهور ما يسميه بعض الخبراء الاقتصاد الجزيئي[98].

ومن المهم أن الجزيئات والمواد الجديدة التي تُنتَج ليست بحاجة إلى التقييم عبر عملية الاختبار التقليدية الشاقة التي تعتمد على مبدأ التجربةِ والخطأ. أجهزة الحاسوب العملاقة المتطورة قادرة الآن على محاكاة الطريقة التي تتفاعل فيها هذه الإبداعات الجديدة مع الجزيئات والمواد الأخرى، مما يسمح بانتقاء الأفضل بينها وما هو واعد للتجريب في العالم الحقيقي[99]. في الواقع، لقد اعتُرِف بالحقل الجديد المعروف باسم العلوم الحاسوبية باعتباره الشكل الأساسي الثالث لإبداع المعرفة - جنبا إلى جنب مع الاستدلال الاستقرائي والاستدلال الاستنتاجي (الاستنباطي) - وهو يجمع بين عناصر من الشكلين الأساسيين الأول والثاني من خلال محاكاة واقع اصطناعي يعمل بمنزلة شكل ملموس أكثر من الفرضية ويسمح بالتجريب الدقيق لفحص خصائص المواد الجديدة وتحليل كيفية تفاعلها مع الجزيئات والمواد الأخرى.

غالبا ما تختلف خصائص المادة على مقياس النانومتر (ما بين واحد و100 نانومتر) إلى حد كبير عن خصائص الذرات والجزيئات نفسها عندما تكون مجتمعة

بمقاديـر كبيرة[100]. وقد وفرت هـذه الاختلافات للتكنولوجيين إمكانية اسـتخدام المواد المتناهية في الصغر على أسطح المنتجات الشائعة من أجل التخلص من الصدأ، وتعزيز مقاومتها للخدوش والطعجات، وبالنسبة إلى الملابس تعزيز مقاومتها للبقع والتجاعيد والنار[101]. التطبيق الوحيد الأكثر شـيوعا حتى الآن هو استخدام الفضة المتناهيـة في الصغـر للقضاء على الميكروبـات - وهو اسـتخدام ذو أهمية خاصة للأطباء والمستشفيات للحماية ضد العدوى[102].

الأهميـة على المـدى الطويل المتصلة بظهور مجموعة جديـدة تماما من المواد الأساسـية بخصائـص متفوقة تنعكس في الأسـماء التي يعطيهـا المؤرخون لعصور الإنجازات التكنولوجية في المجتمعـات البشرية: العصر الحجري، والعصر البرونزي، والعصر الحديدي. كما هو صحيح بالنسبة إلى الحقب التاريخية للتنمية الاقتصادية التـي بدأت مع الحقبة البدائية الطويلة للإنسـان الصيَّـاد، فإن أولى هذه الحقب، وهي حقبة العصر الحجري، كانت أطول الحقب التاريخية على الإطلاق.

يختلف علماء الآثار حول الزمان والمكان اللذين مهد بهما الاعتماد على الأدوات الحجريـة الطريق إلى الظهور الأول للتكنولوجيـات المعدنية. يُعتقد أن أول عملية صهر للنحاس حدثت في شرق صربيا قبل نحو 7 آلاف سنة، علما أن الأشياء المصنوعة من نحاس الصّب ظهرت في العديد من المواقع في الحقبة نفسها[103].

الإبداع الأكثر تطورا للبرونز - الأقل هشاشـة والأكثر فائدة للعديد من الأغراض من النحاس - يجري بعملية يُضاف فيها القصدير إلى النحاس المنصهر، وهو أسلوب يجمع ما بـين درجات الحرارة العالية وتكييف الضغط إلى حد ما[104]. أُنتِج البرونز لأول مرة قبل 5 آلاف سنة في كل من اليونان والصين، وفي بريطانيا بعد مرور أكثر من ألف سنة[105].

على الرغم من أن القطع الأثرية الحديدية الأولى تعود إلى ما قبل 4500 سـنة في شـمال تركيا[106]، بدأ العصر الحديدي قبل 3 آلاف و3200 سنة مع تطوير أفران أفضـل تصل فيها درجات الحرارة إلى درجة عالية قادرة على تسـخين رِكاز الحديد وتحويلـه إلى حالة لَدنة قابلة للطرق يمكن أن تُصنع منها الأدوات والأسـلحة[107]. الحديـد، بطبيعة الحال، أقسى وأقوى من البرونز[108]. أمـا الصلب (الفولاذ)، وهو سـبيكة مصنوعة من الحديد وعناصر أخرى في الغالب لكن بكميات أصغر، اعتمادا على الخصائص المرغوبة، فلم يُصنع حتى منتصف القرن التاسع عشر[109].

يقـود العصر الجديد لإنتاج المواد على المســتوى الجزيئي إلى تحوّل تاريخي في عمليـة التصنيع. مثلما أُطلِقت الثورة الصناعيــة قبل ربع ألفية من الزمان بمزاوجة الطاقة التي تعمل بالفحم مع الآلات من أجل اســتبدال العديد من أشــكال العمل البشري، فإن تكنولوجيا النانو تَعِد بإطلاق ما يسميه الكثيرون الثورة الصناعية الثالثة القائمة على أساس الآلات الجزيئية التي يمكن أن تعيد تجميع الهياكل المصنوعة من العناصر الأساسية لإنتاج فئة جديدة تماما من المنتجات، بما في ذلك[110]:

- أنابيب الكربون المتناهية في الصغر المزودة بإمكانية تخزين الطاقة وتجســيد خصائص لم يسبق تصوُرها[111].

- ألياف الكربون ذات القوة الهائلة التي بدأت تستبدل بالفعل الصلب في بعض التطبيقات المتخصصة[112].

- المركبــات المتناهية في الصغر لمصفوفة الســيراميك التــي يتوقع أن تكون لها تطبيقات واسعة في الصناعة[113].

ثـورة تكنولوجيا النانو الناشــئة، التي تتلاقى مع الثــورات المتعددة في علوم الحياة، لها أيضا آثار في طيف واســع من المســاعي البشرية الأخرى. يوجد بالفعل أكثر من ألف منتج من تكنولوجيا النانو متوافر حاليا، يُصنَّف معظمها كتحسينات إضافيــة على عمليــات معروفــة ســابقا، ومعظمها في مجــال الصحــة واللياقة البدنية[114]. اســتخدام هياكل النانو لتعزيز معالجة الحاسوب، وتخزين الذاكرة، وتحديد المواد الســامة في البيئة، وتنقية وتحلية المياه، وغيرها من الاســتخدامات لاتزال في طور التطوير.

إن مُفاعليــة المواد النانوية وخصائصها الحراريــة والكهربائية والبصرية تندرج ضمن التغييرات التي يمكن أن يكون لها تأثير تجاري كبير. على سبيل المثال، تطوير الغرافـين، وهو أحد أشــكال الغرافيت الذي لا تتعدى ســماكته مقدار ذرة واحدة فقط، خلق حالة من الحماس بشــأن تفاعله الاستثنائي مع الإلكترونات، الذي يفتح المجال واسعا أمام مجموعة متنوعة من التطبيقات المفيدة[115].

يُجرى حاليا عدد لا يستهان به من الأبحاث حول المخاطر المحتملة للجسيمات المتناهية في الصغر. يقلل معظم الخبراء حاليا من شأن احتمال «الروبوتات المجهرية ذاتية الاستنساخ»، الذي أدى إلى نشوء مخاوف جديّة وجدل كبير في السنوات الأولى

من القرن الحادي والعشرين[116]، بيد أن المخاطر الأخرى - التي تتمثل في تراكم الجسيمات النانوية في الكائنات البشرية وإمكانية تلف الخلايا الناجمة عنه - تؤخذ على محمل الجد إلى حد كبير[117]. وفقا لديفيد ريجيسكي، مدير برنامج الابتكار في العلوم والتكنولوجيا في مركز وودرو ويلسون الدولي للباحثين، «نحن نعلم القليل جدا عن الآثار الصحية والبيئية [للمواد النانوية] ولا نعلم فعليا أي شيء على الإطلاق حول تأثيراتها التآزرية (التعاونيّة)»[118].

بمعنى من المعاني، فإن علم النانو موجود على الأقل منذ أعمال لويس باستور، وبالتأكيد منذ اكتشاف اللولب المزدوج في العام 1953[119]. أثار عمل ريتشارد سمالي على آثار جزيئات فوليرين بكمنستر(*) («كرات بوكي») في العام 1985 موجة جديدة من الاهتمام في تطبيق تكنولوجيا النانو في تطوير مواد جديدة[120]. بعد ست سنوات، بعثت أنابيب الكربون النانوية الأولى الأمل في التوصل إلى ناقلية كهربائية تتجاوز تلك التي يقدمها النحاس وإمكانية إنشاء ألياف تفوق قوتها قوة الفولاذ بـ 100 مرة ووزنها لا يتجاوز سدس وزن الفولاذ[121].

الخط الفاصل بين تكنولوجيا النانو وعلوم المواد الجديدة هو خط عشوائي جزئيا. فالقواسم المشتركة بينهما هي التطوير الحديث لمايكروسكوبات جديدة ذات قوة أكبر، وأدوات جديدة لتوجيه عمليات التلاعب بالمادة على مقياس النانومتر، وتطوير برامج أكثر قوة للحواسيب العملاقة لصياغة المواد الجديدة ودراستها في المستوى الذري، والتيار المستمر من إنجازات البحوث الأساسية الجديدة حول السمات المتخصصة للاختراعات الجزيئيّة النانوية، بما في ذلك الخصائص الكميّة العميقة.

ظهور الطباعة ثلاثية الأبعاد

إن القدرة الجديدة لبني البشر على التلاعب في الذرات والجزيئات تقود أيضا نحو ثورة جامحة في التصنيع معروفة باسم الطباعة ثلاثية الأبعاد. ومعروفة أيضا باسم تصنيع الإضافة (التصنيع الجمعيّ)، وهذه العملية الجديدة تبني جسيمات من ملف رقمي ثلاثي الأبعاد بإضافة طبقة رقيقة للغاية من المادة أو المواد التي سيصنع منها الجسيم، ومن ثم تضيف الطبقات الرقيقة إضافية - الواحدة تلو

(*) شكل من أشكال الكربون. [المترجم].

الأخرى - حتى يُشَكل الجسـيم في فراغ ثلاثي الأبعاد[122]. ويمكن استخدام أكثر من نوع مختلـف من المواد[123]. على الرغم من أن هذه التكنولوجيا لاتزال في المراحل الأولى مـن تطورها، فلا مغـالاة في إبراز الفوائد التي سـتقدمها لعمليات التصنيع. فبعض النتائج التي ظهرت حتى الآن تدعو إلى الذهول.

منذ العام 1908، عندما اسـتخدم هنري فورد للمرة الأولى قطعا متطابقة قابلة للتبديل جرى تركيب بعضها مع بعض على خط تجميع متحرك لإنتاج الطراز تي T، هيمنـت على التصنيع عمليات الإنتاج بالجملة[124]. فقد أحدثت الكفاءة والسرعة والتوفـير في التكلفة في هـذه العملية ثورة في الصناعة والتجارة. لكن يتوقع العديد من الخبراء اليوم أن التطور السريع للطباعة ثلاثية الأبعاد سيغيِّر التصنيع إلى درجة كبيرة بالقدر نفسه الذي أحدثه الإنتاج بالجملة[125] قبل أكثر من 100 سنة خلت.

هذه العملية تُسـتخدم بالفعل منذ عدة عقود في تقنية تُعرف باسـم تصميم النماذج الأولية السريعة – وهي قطاع متخصص تستطيع من خلاله شركات التصنيع إنتاج نموذج أولي لما سُـينتَج لاحقا بكميات كبيرة في عمليات تقليدية أكثر[126]. على سـبيل المثال، توضع في أغلبية الأحيان نماذج أولية ثلاثية الأبعاد لتصاميم الطائرات الجديدة لاختبارها في النفق الهوائي[127]. هذا القطاع في حد ذاته قد تعطل بسـبب الطابعات الجديدة ثلاثيـة الأبعاد، فقد أقدمت إحدى الشركات في كولورادو والتي تصمم نماذج أولية من المباني للمهندسين المعماريين، وهي شركة LGM، على إحداث تغيـيرات جذرية بالفعل. فقـد نقلت صحيفة نيويورك تايمز عن مؤسـس الشركة، السـيد تشارلز أوفري، قوله: «لقد كان الأمر في السابق يستغرق شهرين لبناء نماذج تكلفتهـا 100 ألف دولار». وبدلا من ذلك، فهو يبني الآن نماذج تكلفتها ألفا دولار وينتهي منها بين عشية وضحاها[128].

تُسـلِّط الإمكانات الناشـئة لاسـتخدام الطباعة ثلاثية الأبعاد الضوء على بعض أوجـه القصور في الإنتاج بالجملة: تخزين المكونـات وقطع الغيار، والكمية الكبيرة مـن رأس المال العامل المطلوبة لمثل هذا التخزين، والهدر المُفرط للمواد، أضف إلى ذلك بطبيعة الحال تكاليف توظيف أعداد كبيرة من الناس[129]. يؤكد المتحمسـون لهذه التقنية أيضا أن الطباعة ثلاثية الأبعاد تتطلب في الغالب 10 في المائة فقط من المواد الخام التي تُستخدم في عملية الإنتاج بالجملة[130]، فضلا عن النزر القليل من

تكاليـف الطاقة[131]. وهذا يواصل ويـسرِّع في الاتجاه طويل الأجل نحو «التجريد من المادة» للسـلع المصنَّعة - وهو اتجاه أبقى بالفعل على أطنان البضائع العالمية برمتها ثابتة على مدار الخمسين سنة الفائتة، وذلك على الرغم من ازدياد قيمتها إلى أكثر من ثلاثة أضعاف[132].

بالإضافـة إلى ذلك، فإن شرط توحيد حجم وشـكل المنتجات المصنوعة في إنتاج الجملة يؤدي إلى اتباع أسـلوب «حجم واحد يناسـب الجميع» الذي لا يتناسـب مع العديد مـن المنتجات الخاصة[133]. يتطلب إنتـاج الجملة أيضا مركزية مرافق التصنيع وما ينجم عنها من تكاليف نقل لتسليم قطع الغيار إلى المصانع والمنتجات الجاهزة إلى الأسـواق البعيدة[134]. في المقابل، فإن الطباعة ثلاثية الأبعاد تَعدُ بنقل المعلومـات الرقمية التي تجسـد التصميم والطبعة الأولى لـكل منتج إلى طابعات ثلاثية الأبعاد منتشرة على نطاق واسع[135] وتقع في جميع الأسواق ذات الصلة.

وقد قال نيل هوبكنسـون، المحاضر البـارز في مجموعة بحوث تصنيع الإضافة (التصنيـع الجمعيّ) في جامعة لوبورو، «يمكن أن تجعـل التصنيع في الخارج حول العـالم أقل فعالية بكثير مـن حيث التكلفة من التصنيع الداخلي في البلد، وذلك إن كان بمقدور المسـتخدمين الحصول على الجزء الـذي يحتاجونه مطبوعا في مطبعة ثلاثيـة الأبعـاد موجودة على ناصية الشـارع من الطريق العـام. فبدلا من تخزين قطع الغيار والمكونـات في مواقع متفرقة حول العالم، يمكن تخزين التصاميم مجانا في مسـتودعات افتراضية على الحاسوب بانتظار طباعتها محليا عندما تدعو الحاجة إلى ذلك»[136].

في هـذه المرحلة من تطورها تُركِّز الطباعة ثلاثية الأبعاد على المنتجات الصغيرة نسـبيا، لكن مع تحسُّـن هذه التقنية على نحو متواصل، سـوف تصبح الطابعات ثلاثية الأبعاد المتخصصة لقطع الغيار والمنتجات الأكبر متوافرة قريبا. صنعت إحدى الـشركات التي يقـع مقرها في لوس أنجلوس، وهي شركة كونتـور كرافتينغ، طابعة ثلاثية الأبعاد ضخمة متنقلة على شـاحنة مقطورة يمكن أن تذهب إلى موقع البناء وتطبع منزلاً كامل في غضون عشرين سـاعة فقط[137] (من دون الأبواب والنوافذ)! علاوة على ذلك، في حين تستطيع الطابعات ثلاثية الأبعاد المتوافرة حاليا إنتاج نسخ تتألـف من تصميم واحد وقد تصل، في بعض الحالات، إلى ألف تصميم[138]، يتوقع

الخبراء أنه في غضون السـنوات القليلة المقبلة ستكون هذه الآلات قادرة على إنتاج مئات الآلاف من قطع الغيار والمنتجات المتطابقة[139].

هنـاك العديد من الأسـئلة لاتزال بحاجة إلى إجابة بشـأن التعامل مع مسـألة الملكية الفكرية في عصر الطباعة ثلاثية الأبعاد. سـوف يحصد التصميم ثلاثي الأبعاد حصة الأسد من القيمة في اقتصاد الطباعة ثلاثية الأبعاد، بيد أن قوانين حقوق الطبع والنـشر وبراءات الاخـتراع وُضِعت من دون توقع لظهور هـذه التكنولوجيا ويجب تعديلها لمراعاة هذه الحقيقة الناشئة الجديدة. بشكل عام، الأشياء المادية «المفيدة» لا يكون لها في الغالب حماية ضد النسخ بموجب قوانين حقوق التأليف والنشر[140].

على الرغم من وجود مشككين في مدى سرعة نضوج هذه التكنولوجيا الجديدة، يبـذل المهندسـون والتكنولوجيون في الولايـات المتحدة، والصـين، وأوروبا جهودا مضنية للاسـتفادة من إمكاناتها[141]. إن استخدامها المبكر في الطباعة الخاصة بعلم الأعضـاء الاصطناعية والأجهزة الأخرى التي لها تطبيقات طبية[142] يكتسـب زخما بسرعة. وقد وَجَدت الطابعات ثلاثية الأبعاد الرخيصة طريقها[143] إلى سـوق الهواة بأسـعار منخفضة تصل إلى ألف دولار. وقد قال كارل باس، الرئيس التنفيذي لشركة أوتوديسـك، التي استثمرت في مجال الطباعة ثلاثية الأبعاد، في العام 2012: «بعض الناس يرون أنها سـوق لهـا مكانتها الخاصة. ويدَّعون أنهـا لا يمكن أن تصعد على نطاق واسع. لكن هـذا اتجاه، وليس موضة. هناك شيء يحدث كالزلزال»[144]. يُروِّج بعض دعاة السـماح بامتلاك السـلاح[145] على نطاق واسـع للطباعة ثلاثية الأبعاد للبنادق كوسيلة للتحايل على اللوائح الخاصة بمبيعات السلاح. أعرب المعارضون عن قلقهم حيال اسـتخدام أي من هذه الأسـلحة في ارتكاب جرائم بحيث يمكن إذابتها بسـهولة[146] لتفادي أي محاولة تقوم بها السـلطات المعنية بتطبيق القانون على استخدام البنادق كدليل مادي على ارتكاب الجريمة.

سـوف تبدأ قريبـا موجة الأتمتة التي تسـهم في الاسـتعانة بالعمالة الخارجية والروبوتات لوظائف من البلدان المتقدمة إلى الأسـواق الناشـئة والنامية في تهجير العديـد مـن فرص العمل التـي وُفِّرت أخيرا في تلـك البلدان نفسـها ذات الأجور المنخفضـة. من الممكن أن تعمل الطباعـة ثلاثية الأبعاد على تسريع هذه العملية، وقد تسـتطيع في نهاية المطاف أيضا أن تعيد عملية التصنيع مرة أخرى إلى البلدان

المتقدمة. وقد أفاد عديد من الشركات الأمريكية أن أشكالا مختلفة من الأتمتة مكنتها على الأقل من إعادة بعض الوظائف التي كانت تستعين فيها بالعمالة الخارجية في البلدان ذات الأجور المتدنية[147].

الرأسمالية في أزمة

ظهور شركة الأرض وتعطيلها لجميع العوامل الثلاثة للإنتاج - وهي العمل، ورأس المال، والموارد الطبيعية - أسهما فيما يشير إليه كثيرون باسم أزمة في الرأسمالية. كشف استطلاع للرأي أجرته شركة بلومبرغ غلوبال في العام 2012 لكبار رجال الأعمال في جميع أنحاء العالم، أن 70 في المائة يعتقدون أن الرأسمالية «في ورطة». وقال ثلثهم تقريبا إن الرأسمالية تحتاج إلى «إعادة صياغة جذرية للقواعد واللوائح» - علما أن المشاركين الأمريكيين في الاستطلاع كانوا أقل استعدادا من أقرانهم العالميين على قبول أي من الرأيين[148].

الفوائد المتأصلة في الرأسمالية التي تتميز بها عن أي نظام آخر لتنظيم النشاط الاقتصادي مفهومة بشكل جيد. فهي نظام أكثر كفاءة في تخصيص الموارد وموازاة العرض بالطلب، وذات فعالية أكبر في إنتاج الثروة، كما أنها أكثر انسجاما مع المستويات الأعلى من الحرية. وفي الجوهر، فإن الرأسمالية تطلق العنان لقسم أكبر من الإمكانات البشرية مع حوافز عضوية واسعة الانتشار لمكافأة الجهود والابتكار. إن تجارب العالم مع النُّظم الأخرى - بما في ذلك التجارب الكارثية مع الشيوعية والفاشية في القرن العشرين - أدت إلى توافق الآراء بالإجماع تقريبا في بداية القرن الحادي والعشرين على أن الرأسمالية الديموقراطية كانت أيديولوجية الاختيار في جميع أنحاء العالم.

ومع ذلك فقد اهتزت الجماهير في جميع أنحاء العالم بفعل سلسلة من الاضطرابات الكبيرة في السوق على مدى العقدين الماضيين، التي بلغت ذروتها في الكساد الأعظم لعام 2008 وما خلّفه من تداعيات. فضلا عن أن التباين المتزايد بين معظم الاقتصادات الكبيرة في العالم وتزايد تركيز الثروة في أعلى سلم الدخل خلقا أزمة ثقة بنظام رأسمالية السوق في صيغة عمله الحالية. كما أن تواصل ارتفاع معدلات البطالة وندرة فرص العمل في البلدان الصناعية، إضافة إلى المعدلات

المرتفعة بشــكل استثنائي للمديونية العامة والخاصة، قد قلّصت أيضا الثقة في قدرة أدوات السياســة الاقتصادية المســتخدمة حاليا على تحقيــق الانتعاش الذي يمتلك القوة الكافية لاستعادة النشاط المطلوب.

ووفق ما جاء على لســان الاقتصادي جوزيف ســتيغليتز الحائز جائزة نوبل في العام 2012:

> ليس من قبيل المصادفة أن تكون الفترات التي أفادت فيها شريحة واسعة من الأميركيين بارتفاع صافي الدخل لديها - عندما تراجعت نســبة التفاوت في الدخل، جزئيا نتيجة للضرائب المتصاعدة - هي الفترات التي نما فيها الاقتصاد الأمــيركي بأعلى سرعــة له. وليس من قبيــل المصادفة أيضــا أن الركود الحالي، مثل الكســاد الأعظم، ســبقته زيادات كبيرة في التفــاوت. عندما يتركز معظم المال في جعبة أعلى شريحة في ســلّم المجتمع، ينخفض بالضرورة معدل إنفاق المواطن الأميركي العادي - أو على الأقل ستكون الحال كذلك في ظل عدم وجود ســند (دعم) اصطناعي. نقل الأموال من الأسفل إلى الأعلى يخفّض الاستهلاك لأن الأفــراد ذوي الدخل المرتفع يســتهلكون جزءا مــن دخلهم[149] أقل مما يستهلكه الأفراد ذوي الدخل المنخفض.

في حين تشــهد الاقتصادات النامية والناشــئة زيادات في الإنتاجية، والوظائف، والدخــل، والمخرجــات، يتزايد التفاوت داخل هذه البلدان أيضــا. وبطبيعة الحال، لايــزال عديد من هذه البلدان يعاني فيها أعداد كبــيرة من الناس من الفقر المدقع والحرمان. لايزال أكثر من مليار شــخص في العالم يعيشــون على أقل من دولارين في اليوم، وقرابة 900 مليون منهم لايزالون يعيشون في «فقر مدقع» - مُحدَّد بحصولهم على دخل لا يتجاوز 1.25 دولار في اليوم الواحد[150].

الأهم من ذلك كله، يأتي ضمن الإخفاقات في طريقة عمل نظام الســوق العالمي اليــوم رفضها الكامل تقريبا لإدراج أي اعتراف بوجود عوامل خارجية رئيســة لتبرير هذه الإخفاقات، بدءا من إخفاقها في النظر في التكاليف والعواقب المترتبة على نسبة التلــوث التي تصــل إلى 90 مليون طن نتيجة احــترار الأرض والتي تنبعث كل أربع وعشرين ســاعة في الغلاف الجوي لكوكب الأرض[151]. مســألة العوامل الخارجية في نظرية السوق هي مسألة مألوفة لكنها لم تصل إلى هذه الدرجة من الحدة قبل الآن.

وغالبا ما تُتجاهل العوامل الخارجية الإيجابية بشـكل روتيني، مما يؤدي إلى تراجع مزمن في الاستثمار في مجالات التعليم، والرعاية الصحية، والسلع العامة الأخرى.

في عديـد من البلدان، بما فيها الولايات المتحـدة، أدى التركيز المتزايد للثروة في أيدي نسبة الواحد في المائة في أعلى السلم أيضا إلى تشوهات في النظام السياسي تحدّ الآن من قدرة الحكومات على النظر في التغييرات السياسية التي قد تفيد (في المدى القصير على الأقل) الكثيرين على حسـاب مجموعة قليلـة من الناس. وقد أصيبت الحكومات بالشـلل الفعلي وأصبحت عاجزة عن اتخاذ الإجراءات اللازمة. هذا أيضا قوّض ثقة عامة الناس في الطريقة التي تعمل بها حاليا رأسمالية السوق.

مع ما يرافق ذلك بشـكل حثيـث من تدفقات رأس المال الضخمـة والمتزايدة عبر الاقتصاد العالمي، تشعر جميع الحكومات الآن بأنها رهينة التصوّرات السائدة حول رأس المال في السوق العالمي. هناك عديد من الأمثلة - فاليونان، وإيرلندا، وإيطاليا، والبرتغال، وإسـبانيا، ليست إلا غيضا من فيض - عن الدول التي تواجه خيارات سياسية يبدو أنها مفروضة من قبل تصورات السـوق العالمية، وليس من قبل إرادة الشـعوب التي أعرب عنها ديموقراطيا مواطنو تلك البلدان. توصل كثيرون إلى اسـتنتاج مفاده أن السياسـات الفعّالة الوحيدة الكفيلة باسـتعادة النفوذ البشري على شكل مستقبلنا الاقتصادي هي السياسات التي تتناول الواقع الاقتصادي العالمي الجديد في سياقه العالمي.

الرأسمالية المستدامة

إلى جانب شريكي في «شركة إدارة استثمارات الجيل» ومؤسسها معي السيد ديفيد بلـود، أيّدنـا معا مجموعة من العلاجات الهيكلية التي من شـأنها تعزيز ما نسـميه الرأسـمالية المستدامة. واحدة من المشـاكل المعروفة هي هيمنة وجهات النظر التي تقـدم رؤى قصيرة الأجل وهاجـس تحقيق الأرباح على المدى القصـير، التي غالبا ما تكون على حسـاب تجميع القيمة طويلة الأجل. قبل أربعين عاما، كان متوسـط فترة اسـتثمار الأوراق المالية[152] في الولايات المتحدة يصل إلى سـبع سـنوات تقريبا[153]. وكان هذا الأمر منطقيا لأن ما يقرب من ثلاثة أرباع القيمة الحقيقية لأي تجارة عادية تتجمع على مدى دورة اقتصادية كاملة ونصف، أي سبع سنوات تقريبا. أما اليوم، فإن متوسط فترة استثمار الأوراق المالية هو أقل من سبعة أشهر[154].

هناك أسباب كثيرة تدعو المستثمرين إلى الاعتماد المتزايد على التفكير قصير الأجل. وتزداد حدة هذه الضغوط بفعل الاتجاهات الأكبر في الاقتصاد العالمي المتحوِّل والمترابط بعضه مع بعض الآن. كما أشار أحد المحللين في العام 2012: «مصارفنا، وصناديق التحوط والمستثمرون في المشاريع التي تكتنفها المخاطر مستعدون للاستثمار في الأدوات المالية وشركات البرمجيات. في هذه المساعي، يمكن حتى للاستثمارات المتواضعة أن تحقق بصورة استثنائية عوائد سريعة وكبيرة. أما تمويل مصانع القرميد والملاط، في المقابل، فهو مكلف ويتطلب جهودا مضنية ولا يقدم إلا احتمالا ضئيلا في تحقيق عوائد سريعة»[155].

تُمارس رؤية المستثمرين القصيرة الأجل ضغوطا على المديرين التنفيذيين لتبني وجهات نظر قصيرة الأجل بالمثل. على سبيل المثال، أجرت إحدى الشركات الرائدة في مجال أبحاث الأعمال التجارية في الولايات المتحدة، وهي شركة (BNA)، دراسة استقصائية لكبار المديرين التنفيذيين والمديرين الماليين قبل بضع سنوات وكان من جملة الأسئلة التي طرحت فيها سؤال افتراضي مفاده: لديك فرصة استثمارية في شركتك ستجعل الشركة أكثر ربحية وأكثر استدامة، لكن إذا قمت بذلك، فلن تتسلم تقرير الأرباح الفصلية المقبل الخاص بك، في ظل هذه المعطيات، هل ستقوم بذلك الاستثمار؟ أجاب 80 في المائة من عينة الدراسة بكلمة لا[156].

والمشكلة الثانية المعروفة في طريقة عمل الرأسمالية حاليا هي اختلال الحوافز على نطاق واسع. يُحسب تعويض معظم مديري الاستثمار - وهم الأشخاص المعنيون باتخاذ معظم القرارات الخاصة باستثمار رأس المال - على أساس ربع سنوي، أو سنوي في غالبيته. وبالمثل، يُعوض عديد من المديرين التنفيذيين للشركات بطرق تُمنَح فيها مكافآت على النتائج التي تتحقق على المدى القصير. بدلا من ذلك، ينبغي موازاة التعويض مؤقتا بطول الفترة التي يمكن فيها أن تزداد القيمة القصوى للشركات، ويجب أن تتوازى مع المحركات الأساسية للقيمة طويلة الأجل.

بالإضافة إلى ذلك، ينبغي تشجيع الشركات على التخلي عن الممارسة الافتراضية لتوفير التوجيه الخاص بالأرباح الفصلية. هذه المقاييس قصيرة الأجل تستقطب الكثير من الاهتمام بحيث ينتهي بها المطاف إلى إنزال أشد العقاب على الشركات التي تحاول بناء قيمة مستدامة، ولا تهتم بالفائدة التي قد تجلبها الاستثمارات، والتي تدفع لهم بسخاء على مدى فترات أطول من الزمن.

الطبيعة المتغيّرة للعمل

شيء واحد مؤكد هو أن: تحوُّل الاقتصاد العالمي وظهور شركة الأرض سيتطلبان نهجا جديدا بالكامل للسياسة من أجل استعادة دور الإنسانية في تشكيل مستقبلنا. ما نمر به في الوقت الراهن يتعلق بشكل طفيف بالمشاكل الكامنة في الدورة الاقتصادية أو بأنواع الاضطرابات المؤقتة في السوق التي أصبحت أمرا مألوفا بالنسبة إلى التجارة العالمية. التغيّرات التي أحدثها ظهور شركة الأرض هي بالفعل تغيّرات عالمية وتاريخية، ولاتزال في تسارع.

على الرغم من أن التغيّرات الحالية لم يسبق لها مثيل من حيث السرعة والحجم، فإن نمط النشاط الإنتاجي بالنسبة إلى غالبية البشر قد مرَّ بالطبع بعدة تغييرات ضخمة على مدى تاريخ البشرية. وكان أبرزها الثورتين الزراعية والصناعية اللتين أدتا إلى إحداث تغييرات جذرية في نمط الحياة اليومية لغالبية الناس في العالم.

كانت أولى الأدوات المعروفة التي صنعها الإنسان، بما في ذلك حربة الرماح والفؤوس، مرتبطة بنمط الصيد والحصاد الذي استمر، وفقا لعلماء الأنثروبولوجيا، ما يقرب من مائتي ألفية من السنين[157]. وقد استغرق استبدال ذلك النمط السائد بنمط جديد قائم على الزراعة (الذي بدأ بعد فترة ليست بطويلة من انحسار العصر الجليدي الأخير) أقل من ثمانية ألفيات من السنين[158]، في حين أن الثورة الصناعية تطلبت أقل من 150 عاما لتخفيض نسبة الأعمال التي تعتمد على الزراعة في الولايات المتحدة من 90 إلى 2 في المائة من القوة العاملة[159]. حتى عندما نُدرج ضمن الحسْبَة العالمية المجتمعات التي لاتزال تعتمد على الزراعة كمصدر رزقها، فإن أقل من نصف الأعمال المتوافرة في جميع أنحاء العالم هي الآن في المزارع[160].

المحراث والمحرك البخاري - جنبا إلى جنب مع العالم المعقد للأدوات والتقنيات التي رافقت الثورات الزراعية والصناعية على التوالي - أضعفت من قيمة المهارات والخبرات التي كان يُعتمد عليها لفترة طويلة لربط معنى حياة الشعوب بتوفير مصدر الرزق والمكاسب المادية لهم ولأسرهم ومجتمعاتهم. ومع ذلك، في كلتا الحالتين، صَاحبَ اختفاء الأنماط القديمة ظهور أنماط جديدة أخرى جعلت الحياة أسهل، بالنظر إلى جميع الاعتبارات، وأبقت على العلاقة ما بين النشاط الإنتاجي وتلبية الاحتياجات الحقيقية.

وبالتأكيد فقد تطلّب تحوّل فرص العمل إجراء تغييرات كبيرة في الأنماط الاجتماعية، بما في ذلك الهجرات الجماعية الداخلية من المناطق الريفية إلى المدن، والتباعد الجغرافي ما بين المنازل وأماكن العمل، وهذان الأمران ليسا سوى اثنين من أبرز الاضطرابات. بيد أن النتيجة النهائية كانت لاتزال متلازمة مع السياق المأمول للتقدم وكان يرافقها نمو اقتصادي زاد من صافي الدخل إلى حد كبير وخفّض بشكل حاد كمية العمل اللازمة لتلبية الاحتياجات الإنسانية الأساسية: الغذاء والكساء والمأوى، وما شابه ذلك. في كلتا الحالتين، أصبحت المهن الشائعة سابقا بالية وقد عفى عليها الزمن فيما ظهرت مهن جديدة تتطلب مهارات جديدة وإعادة فهم ما يعنيه أن يكون المرء مُنتجا.

كلا هذين التحولين الهائلين حَدثَ على مدى فترات طويلة من الزمن دامت عدة أجيال. في كلتا الثورتين فتحت التكنولوجيات الجديدة المجال أمام فرص جديدة لإعادة تنظيم المؤسسة البشرية في نمط سائد جديد كان في كل حالة نمطا معطِّلا - وبالنسبة إلى الكثيرين، مربكا - لكنه رفع من معدلات الإنتاجية إلى حد كبير، وأحدث زيادة كبيرة في عدد الوظائف، ورفع من معدلات الدخل، وحدّ من الفقر، وأجرى تحسينات تاريخية في جودة مستوى المعيشة بالنسبة إلى معظم الناس.

لننظر مرة أخرى في النمط الأكبر الذي يعود في التاريخ إلى هذه العهود الثلاثة: العهد الأول الذي دام 200 ألف سنة، والعهد الثاني الذي دام 8 آلاف سنة، والثورة الصناعية التي دامت 150 سنة فقط[161]. كل تغيير من هذه التغيّرات التاريخية في طبيعة التجربة الإنسانية كان أكثر أهمية مما سبقه وحدث في فترة زمنية أقصر جذريا. وجميعها كانت مرتبطة بالابتكارات التكنولوجية.

عند النظر إليها مجتمعة، نجدها تتبع فترة الحمْل الطويلة، ومرحلة الطفولة، والتطور البطيء لثورة التكنولوجيا التي نمت في نهاية المطاف لتؤدي دورا محوريا في تقدم الحضارة البشرية - ومن ثم اكتسبت بشكل تدريجي وعلى نحو متواصل سرعة وزخما في كل من القرون الأربعة الأخيرة، ودفعت العجلة بقوة أكبر، وبدأت تتسارع بمعدل سرعة لم يسبق له مثيل حتى بدت كأنها قد بُعثت من جديد. وهي الآن تحملنا معها بسرعة تفوق حدود تصوّرنا نحو عوالم واقعية جديدة مقولبة تكنولوجيا تظهر في غالبية الأحيان، على حد قول آرثر سي. كلارك(*)، بشكل: «لا يمكن تمييزها فيه عن السحر»[162].

(*) مؤلف روايات في الخيال العلمي، أشهرها «2001: أوديسا الفضاء». [المحررة].

لأن التغيير الحاصل ليس كميا فحسب بل نوعي أيضا، فنحن بصورة عامة غير مستعدين لما يحدث. لا تختلف بنية أدمغتنا كثيرا عن تلك التي كانت لدى أسلافنا قبل 200 ألف سنة[163]. لكن بسبب التغيرات الجذرية التي أحدثتها التكنولوجيا في الطريقة التي نعيش بها حياتنا، نحن مضطرون للنظر في إدخال تعديلات في تصميم حضارتنا بسرعة أكبر مما يبدو ممكنا أو حتى معقولا.

لدينا صعوبة حتى في الإدراك والتفكير الجلي حول وتيرة التغيير الذي نحن بصدد مواجهته الآن. يواجه معظمنا مشكلة في فهم المعنى العملي للتغيير الأُسِّي - أي التغيير الذي لا يتزايد فحسب وإنما يتزايد بوتيرة أسرع بانتظام. إذا نظرت في الشكل الأساسي لجميع المنحنيات الأُسِّية فسترى أن نمط التغيير الذي تقيسه هذه المنحنيات يكون بطيئا في البداية، ومن ثم يتصاعد بمعدل تدريجي ولكن متزايد بشكل غير مسبوق عندما تنحدر زاوية الصعود بشدة. مرحلة الانحدار الحاد للمنحنى تسوق التغييرات بمعدل أسرع بكثير من الجزء المنبسط (المستوي) من المنحنى - وتعتبر هذه المرحلة بخاصة ذات عواقب ليست كمية فقط وإنما نوعية أيضا. كما هو مشروح في قانون مور(*)، فإن جهاز آيباد الجيل الرابع يمتلك الآن قوة حوسبة تفوق القوة التي كان يمتلكها أقوى جهاز حاسوب عملاق في العالم قبل ثلاثين سنة، وهو جهاز كري Cray 2 [164].الآثار المترتبة على هذه الفترة الجديدة من التغيير المُفرط ليست رياضية أو نظرية فقط. فهي تحوّل الرابط الأساسي بين الطريقة التي نؤدي فيها دورا إنتاجيا في الحياة والطريقة التي نلبي فيها احتياجاتنا. ما يفعله الناس - عملهم، وظائفهم، الفرص المتاحة لهم لمقايضة النشاط الإنتاجي بالدخل لتلبية الاحتياجات البشرية الأساسية وتوفير الشعور بالرفاه، والأمن، والاحترام، والكرامة، والشعور بالانتماء كعضو في المجتمع: هذه المقايضة الأساسية في صلب حياتنا تتغير الآن على نطاق عالمي وبسرعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية.

في المجتمعات الحديثة نستخدم منذ فترة طويلة المال والرموز المادية الأخرى للائتمان والخصم باعتبارها الوسيلة الرئيسة لقياس وتتبع هذه السلسلة المتواصلة من التبادلات (المقايضات). لكن حتى في أشكال المجتمع القديمة التي لم يكن فيها

(*) نسبة إلى غوردون مور، أحد مؤسسي شركة إنتل. [المحررة].

المـــال وســـيلة التبادل (المقايضـــة)، كان العمل الإنتاجي مرتبطـــا أيضا بالقدرة على تلبيـــة احتياجـات المرء، مع اعـتراف ضمني من المجتمع لأولئك الذين أســـهموا في تلبيـــة احتياجـات المجموعة، والذين لُبّيت احتياجاتهـم جزئيا من قبل الآخرين في المجموعة. هذا الرابط الأســـاسي في صلب المجتمعات البشرية هو الذي بدأ يتحوّل بشكل جذري.

يرتاح العديد من الاقتصاديين للفكرة القائلة بأن هذا ليس في الواقع ســوى حكاية قديمة ومتواصلـــة يعرفونها ويفهمونها جيدا - وهي حكاية أثارت الذعر غير المبرر منذ أن حطم الحائك نيد لَد أطر الحياكة الجديدة التي اختُرعت أواخر القـــرن الثامن عـــشر، إدراكا منه أنها جعلت وظائـــف الحائكين باطلة ولا حاجة إليهـــا[165]. «مغالطة مُحطِّم الماكينا Luddite fallacy»[166] - وهي العبارة التي صيغـــت لوصف الاعتقاد الخاطئ بأن التكنولوجيات الجديدة ســـوف تؤدي إلى خفـــض نهائي في عدد الوظائف الجيدة المتوافرة للبشر - جرى تأييدها من جديد عـــلى نطاق واســـع عندما أدت عمليـــة مكننة الزراعة إلى الاســـتغناء عن جميع الوظائف المتعلقة بالمزارع ما عدا حفنة ضئيلة منها، على الرغم من أن الوظائف الجديدة التي ظهرت في المصانع لم تتجاوز تلك التي فُقدت في المزارع فحسب بل إنها زادت من معدلات الدخل، حتى إن المزارع أصبحت أكثر إنتاجية وانخفضت أســـعار المواد الغذائية بشـــكل حاد. حتى في الآونة الأخيرة، بدت الأتمتة واسعة النطاق في الصناعة كأنها تعيد تكرار النمط نفسه مرة أخرى: جرى التخلص من الوظائف الروتينية، المتكررة، والشـــاقة في أكثرهـــا، وحلت محلها وظائف أفضل بأجور مرتفعة أكثر من تلك التي جرى الاستغناء عنها.

بيد أن ما تعلمناه حســـب اعتقادنا من المراحل الأولى لهذه الثورة التكنولوجية ربمـــا لم يعد ذا صلة بوتيرة التغيير الجديد المتســـارعة على نحو مفرط. قد يؤدي في وقت قريب اســـتحداث الآلات الذكية المتصلة بالشبكة - والذكاء الاصطناعي الآن - إلى تعريض نسبة أعلى من فرص العمل للخطر في قطاعات كبيرة نسبيا من الاقتصاد العالمـــي. ولكي نتكيّف مع هذا الواقع الناشـــئ الجديد قـــد يتعين علينا قريبا إعادة النظـــر في الطريقة التي نقايض بها نحن البـــشر طاقاتنا الإنتاجية بالدخل الضروري لتلبية احتياجاتنا.

لقـــد وصف العديد من العلماء المتخصصين في دراســة تفاعــل التكنولوجيا مع نمــط المجتمع، بمن فيهم مارشــال ماكلوهان، التكنولوجيــات الجديدة المهمة بأنها «امتدادات (ملحقات)» للقدرات البشرية الأساسية[167]. السيارة، وفقا لأحكام هذا التشــبيه، هي امتداد لقدرتنا على الحركة. وبالطريقة نفسها يمكن وصف التلغراف، والمذيــاع، والتلفزيــون، بأنها امتــدادات لقدرتنا على التحــدث بعضنا مع بعض في مكالمات خارجية بعيدة المدى. وكل من المجرفة اليدوية والمجرفة البخارية ليس إلا امتدادات لأيدينا وقدرتنا على الإمســاك بالأجسام المادية. مثل هذه التكنولوجيات الجديدة جعلت بعض الوظائف غير مطلوبة، لكنها بالتوازي خلقت مزيدا من فرص العمــل الجديدة - ويعود ســبب ذلك في غالب الأحيــان إلى أن القدرات الجديدة المعــززة تكنولوجيا كانت بحاجة إلى أناسٍ يقومون بتشــغيلها أو اســتعمالها ممن تتوافــر لديهم الرؤيــة الواضحة التي تمكّنهم من تلقي التدريبات على اســتخدامها بشكل فعّال وآمن.

في هذا الســياق، لا يمثل ظهور أشــكال جديدة وقوية من الــذكاء الاصطناعي امتدادا لقدرة بشرية أخرى فحســب، وإنما امتداد لقدرة التفكير المهيمنة والفريدة عنــد البشر. على الرغم من أن العلم قد أثبت أننا لســنا المخلوقات الحيّة الوحيدة الحسّاســة، لكن من الواضح تماما أننا كجنس بشري قد أصبحنا مهيمنين على الأرض بســبب قدرتنا على صناعة نمــاذج عقلية من العالم الذي من حولنــا والتلاعب بها بفضل التفكير الذي نمتلكه وذلك لكسب القدرة على تحويل ما يحيط بنا وممارسة السيادة على هذا الكوكب. الامتداد التكنولوجي للقدرة على التفكير يختلف بالتالي بشكل جذري عن أي امتداد تكنولوجي آخر للقدرة البشرية.

عندما ينضج الذكاء الاصطناعي ويصبح مرتبطا بجميع الامتدادات التكنولوجية الأخرى للقدرة البشرية – الإمساك بالأجسام المادية والتلاعب بها، وإعادة تجميعها بصيغ جديدة، وحملها عبر المســافات، والتواصل بعضنا مع بعض باســتخدام الكم الهائــل من المعلومات المتدفقة بغزارة وبسرعة تفوق قدرة الإنســان على مجاراتها، وصناعــة نماذجهــا الخاصة المعنوية من الواقع، والتعلم بطــرق متفوقة أحيانا على القدرة البشرية على التعلم - ســيكون تأثير ثورة الذكاء الاصطناعي (AI) أكبر بكثير من أي تأثير للثورة التكنولوجية السابقة.

سـيتجلى أحد هذه التأثـيرات في عملية تسريع فصل المكاسـب الإنتاجية عن مكاسـب مسـتوى المعيشـة للطبقة المتوسـطة. في الماضي، أدت التحسينات التي أُدخلت على الكفاءة الاقتصادية عموما إلى تحسينات في الأجور بالنسبة إلى الغالبية العظمى، لكن عندما يؤدي اسـتبدال رأسمال التكنولوجيا بالعمل إلى الاستغناء عن أعـداد كبيرة جـدا من الوظائف، تذهب حصة أكبر من المكاسـب إلى أولئك الذين وفروا رأس المال. العلاقة الجذرية بين التكنولوجيا والتوظيف تمر بمرحلة من التحوّل.

يقـترب هذا الاتجـاه الآن من حد يُفقَد من ورائه الكثـير من الوظائف بحيث ينخفض مستوى الطلب على السلع الاستهلاكية إلى ما دون المستوى اللازم للحفاظ على النمو الاقتصادي السليم. في دراسة جديدة لفترة الكساد الأعظم، يرى جوزيف سـتيغليتز أن الخسـائر الكبيرة في الوظائف في مجال الزراعة التـي رافقت عملية مكننـة الزراعة أدت إلى تقلص مماثـل للطلب الذي كان في الواقع عاملا أكبر بكثير مما كان يُعتَقد سـابقا في التسـبب في الكسـاد - ولربما كنا نسـير في اتجاه مرحلة انتقالية موجعة أخرى مع الخسارة المستمرة حاليا في وظائف التصنيع.

لا بـد من خلق فرص عمل جديدة وهذا أمر ممكن ويمثل واحدا من الأهداف الواضحة للتوظيف الجديد في توفير السلع العامة من أجل استبدال الدخل المفقود لأولئك الذين جرت الاستعانة بالعمالة الخارجية والروبوتات للقيام بوظائفهم. لكن النُخب التي اسـتفادت من ظهور شركة الأرض اسـتخدمت بشكل فعَّال حتى الآن الثروة المتراكمة التي حصدتها والنفوذ السـياسي الذي تمتعت به لمنع أي تحوّل من الوظائـف إلى القطاع العام. والخبر السـار هو أنه على الرغـم من أن الإنترنت قد سهلت مسـألة الاسـتعانة بالعمالة الخارجية والروبوتات، فإنها وفرت أيضا وسيلة جديـدة لبناء أشـكال جديدة من النفوذ السـياسي لا تهيمن عليـه النُّخب. وهذا سيكون محور نقاشنا في الفصل التالي من هذا الكتاب.

2

العقل العالمي

تماما مثلما أدت الاستعانة بالعمالة الخارجية المتزامنة بالاستعانة بالروبوتات في النشاط الإنتاجي إلى ظهور شركة الأرض، كذلك أدى انتشار الإنترنت المتزامن مع وجود قوة الحوسبة في كل مكان إلى تمدد الجهاز العصبي البشري الذي ينقل المعلومات، والأفكار، والمشاعر من وإلى مليارات البشر بسرعة الضوء في جميع أنحاء كوكب الأرض.

نحن نتصل بشبكات بيانات عالمية ضخمة - وبعضنا مع بعض - عبر البريد الإلكتروني، والرسائل النصية، وشبكات التواصل الاجتماعية، والألعاب متعددة اللاعبين، وأشكال أخرى من الاتصالات الرقمية بسرعة لم يسبق لها مثيل. هذا التحول الثوري والمتسارع على نحو متواصل في الاتصالات العالمية يقود إعصارا من التغيير يشبه تسونامي ويفرض تعديلات

«دفعت المساعي التي تقوم بها بعض الشركات للسيطرة على المعلومات على شبكة الإنترنت البعض إلى الخشية من احتمال تفكك الإنترنت في نهاية المطاف إلى عدة شبكات منفصلة. بيد أن ذلك من غير المرجح أن يحدث، لأن القيمة الكاملة التي تولدها الإنترنت تعتمد على حقيقة أنها متصلة بطريقة أو أخرى مع الأغلبية العظمى من الناس، والشركات، والمنظمات في العالم»

هدامة - وخلاقة - في الأنشطة تتفاوت ما بين الفن والعلم وما بين صنع القرار السياسي الجماعي وبناء المؤسسات التجارية.

بعض المؤسسات التجارية المألوفة تكافح من أجل بقائها: الصحف، ووكالات السفر، والمكتبات، ومتاجر الموسيقى، وشركات تأجير أشرطة الفيديو، ومحلات التصوير الفوتوغرافي هي من بين الأمثلة الأولى للمؤسسات المعروف بشكل شائع أنها تواجه أمرا رسميا مدفوعا تكنولوجيا يفرض عليها إما أن تتغير بشكل جذري أو تختفي عن الوجود. بعض المؤسسات الكبيرة تكافح أيضا: الخدمات البريدية الوطنية تعاني نزفا في عدد العملاء مع إحلال الاتصالات الرقمية محل كتابة الرسائل، تاركا مكتب البريد الموقر للعمل بشكل رئيس كخدمة توزيع للإعلانات والرسائل البريدية غير المرغوب فيها[1].

في الوقت نفسه، نحن نشهد نموا هائلا لنماذج جديدة من المؤسسات التجارية، والمنظمات الاجتماعية، وأنماط السلوك التي كان لا يمكن تصورها قبل الإنترنت والحوسبة: من الفيسبوك وتويتر إلى موقع الأمازون وآي تيونز، ومن موقع إي بي ebay وغوغل إلى بايدو Baidu، وياندیکس دوت رو Yandex.ru، وغلوبو دوت كوم Globo.com، إلى عشرات الشركات الأخرى التي بدأت منذ أن بدأتَ أنت بقراءة هذه الجملة - جميعها ظواهر يقودها اتصال ملياري نسمة (حتى الآن) بشبكة الإنترنت[2]. بالإضافة إلى الناس، فإن عدد الأجهزة الرقمية المتصلة مع أجهزة وآلات أخرى - من دون مشاركة العنصر البشري - قد تجاوز بالفعل عدد سكان الأرض قاطبة[3]. تتوقع بعض الدراسات أنه بحلول العام 2020، سيكون هناك أكثر من 50 مليار جهاز متصل بشبكة الإنترنت ويتبادل المعلومات بشكل متواصل[4]. عندما نشمل أيضا أجهزة أقل تطورا مثل بطاقات أجهزة تحديد الترددات اللاسلكية (RFID) القادرة على نقل المعلومات لاسلكيا أو نقل البيانات إلى أجهزة تستطيع قراءتها، يصبح عدد «الأشياء الموصولة» بالفعل أكبر من ذلك بكثير[5]. (بعض النظم المدرسية، بالمناسبة، بدأت تطلب من التلاميذ ارتداء بطاقات تعريف (هوية) مزودة بعلامات تحديد الترددات اللاسلكية (RFID) في مسعى منهم إلى مكافحة مسألة التغيب عن المدرسة[6]، وهو إجراء أثار حفيظة واحتجاج بعض التلاميذ.

التكنولوجيا و«الدماغ العالمي»

استخدم الكُتاب الجهاز العصبي البشري لوصف الاتصالات الإلكترونية منذ اختراع التلغراف. في العام 1851، وبعد ست سنوات فقط من تلقي صموئيل مورس الرسالة «ماذا صنع الله؟» كتب ناثانيال هوثورن ما يلي: «من خلال وسائل الكهرباء، أصبح عالم المادة عصبا كبيرا يهتز على بعد آلاف الأميال في نقطة ساكنة من الزمن. الكرة الأرضية هي دماغ ضخم مُفعمٌ بالذكاء الفطري»[7]. بعد أقل من قرن من الزمان، قام أتش. جي ويلز بتعديل استعارة هوثورن عندما قدم اقتراحا لتطوير «دماغ عالمي» - وصفه بأنه الكومنولث لجميع المعلومات في العالم، وفي متناول جميع سكان العالم «كنوع من مركز ذهني للعقل لتبادل المعلومات: مستودع يجري فيه تلقي المعرفة والأفكار، وفرزها[8]، وتلخيصها، واستيعابها، وتوضيحها ومقارنتها». بالطريقة التي استخدم فيها ويلز عبارة «الدماغ العالمي» أصبح ما بدأ كمجاز الآن حقيقةً واقعة. يمكنك البحث عنه الآن في موسوعة ويكيبيديا أو البحث في الشبكة العالمية عن طريق غوغل، لتحصل على صفحات إلكترونية حول هذا الموضوع يُقدر عددها بنحو تريليون صفحة[9].

بما أن الجهاز العصبي مرتبط بالدماغ البشري والدماغ يؤدي إلى نشوء العقل، كان مفهوما أن يقوم أحد أعظم اللاهوتيين في القرن العشرين، تِيار دو شاردان، بتعديل استعارة (مجاز) هوثورن مرة أخرى. في خمسينيات القرن العشرين 1950s، تصور «توحيد الوعي العالمي» «planetization» ضمن شبكة مُفعلة تكنولوجيا من الأفكار البشرية التي اصطلح على تسميتها «العقل العالمي»[10]. وفيما قد لا ينسجم الواقع الراهن مع المعنى الموسع لتيار عندما استخدم تلك الصورة الاستفزازية، يعتقد بعض خبراء التكنولوجيا أن ما ينشأ قد يكون، على الرغم من ذلك، نقطة البداية لحقبة جديدة كليا. وبصياغة عبارة ديكارت بكلمات أخرى، «هو يفكر، فهو بالتالي موجود»[*].

(*) هناك جدل كبير وخلاف حول متى - وهل - سيصل الذكاء الاصطناعي إلى مرحلة من التطور تصبح معها قدرته على «التفكير» بالفعل مشابهة لقدرة الدماغ البشري. ويستند التحليل المقدم في هذا الفصل إلى افتراض أن مثل هذا التطـور لايزال نظريا، وقد لا يتحقق لعدة عقود على أقل تقدير. الخلاف حول ما إذا كان سيتحقق بالفعل يتطلب مستوى من التفاهم حول طبيعة الوعي لم يصل إليه العلماء بعد. وقد أظهرت أجهزة الحاسوب العملاقة بالفعل بعض القدرات التي تفوق بكثير تلك القدرات الموجودة لدى البشر، وهي تقوم بشكل فعال باتخاذ بعض القرارات المهمة بالنسبة إلينا - مثل التعامل مع التداولات الحسابية ذات الترددية العالية في أسواق المال - وفهم (استبصار) العلاقات المعقدة المُخفاة سابقا ضمن كميات كبيرة جدا من البيانات.

جميع أجهزة الحاسوب العملاقة والبرمجيات قيد الاستخدام هي من تصميم بني البشر، ولكن كما قال مارشال ماكلوهان ذات مرة: «نحن نُشكل أدواتنا، وبعد ذلك، أدواتنا تُشكلنا»[11]. بما أن شبكة الإنترنت العالمية ومليارات الأجهزة والآلات الذكية المرتبطة بها - العقل العالمي - تمثل ما يمكن اعتباره، من دون أدنى شك، الأداة الأكثر نفوذا على الإطلاق بين كل الأدوات التي استخدمها بنو البشر حتى الآن، فلا عجَب أن تبدأ بإعادة تشكيل الطريقة التي نفكر بها سواء بالأمور التافهة أو الجدية - بشكل شامل وفي كل مكان.

بالطريقة ذاتها التي أصبحت فيها الشركات المتعددة الجنسيات أكثر كفاءة وإنتاجية من خلال الاستعانة بالعمالة الخارجية في بلدان أخرى والاستعانة بعمل الروبوتات الموظفة في الآلات الذكية المتصلة بعضها مع بعض، بدأنا نحن كأفراد نصبح أكثر كفاءة وإنتاجية من خلال الربط الفوري لأفكارنا مع أجهزة الحاسوب، والخوادم، وقواعد البيانات في جميع أنحاء العالم. ومثلما أدت حلقة التغذية الاسترجاعية (ردود الفعل) الإيجابية بين الاستعانة بالعمالة الخارجية والروبوتات إلى حدوث تغييرات جذرية في الاقتصاد العالمي، كذلك أسهم انتشار القدرة الحاسوبية، وزيادة عدد الأشخاص الموصولين بشبكة الإنترنت في تعزيز هذه الاتجاهات بشكل متبادل. وكما تغيِّر شركة الأرض دور البشر في عملية الإنتاج، كذلك يفعل العقل العالمي في تغيير علاقتنا مع عالم المعلومات.

التغيير الذي يقوده التبني الجماعي للإنترنت كوسيلة أساسية لتبادل المعلومات هو تغيير هدام وخلاق في آن واحد. يقول أحد أنصار الحركة المستقبلية كيفن كيلي إن عالمنا التكنولوجي الجديد - المُشبع بالذكاء - يشبه على نحو متزايد «كائنا حيا معقدا جدا يتبع في كثير من الأحيان دوافعه»[12]. في هذه الحالة، لا يشمل النظام المعقد الضخم الإنترنت وأجهزة الحاسوب فحسب، بل يشملنا نحن أيضا.

لننظر في تأثير ذلك على المحادثات. الكثير منا الآن يستعينون بشكل روتيني بالهواتف الذكية للعثور على أجوبة عن الأسئلة التي تُطرح على مائدة العشاء من خلال البحث في شبكة الإنترنت بلمسات من رؤوس أصابعنا. في الواقع، يقضي العديد من الناس الآن وقتا طويلا في استخدام هواتفهم الذكية وغيرها من الأجهزة

المحمولــة المتصلــة بالإنترنت إلى درجــة أن المحادثة الشــفوية بينهم تتوقف على الأغلب. باعتباره فيلسوفا بارزا في مجال الإنترنت، كتب شيري تاركل أخيرا أننا نقضي مزيدا من الوقت «وحيدين معا»[13].

دفعت الطبيعة الشــاغلة والغامرة للتكنولوجيــات الإلكترونية عبر الإنترنت العديد من الناس إلى التســاؤل عما إذا كان اســتخدامها يشكل نوعا من الإدمان بالنسبة إلى بعض الناس. عند تحديث الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقليــة (DSM)، في مايو من العام 2013، ســوف يُدرَج «اضطراب اســتخدام الإنترنت» في ملحقه للمرة الأولى[14]، كفئة مســتهدفة لمزيد من الدراسة. هناك ما يقدر بـ 500 مليون شــخص[15] في العالم يشاركون الآن في الألعاب الإلكترونية عبر الإنترنت لمدة ســاعة واحدة في اليوم الواحد على الأقل. في الولايات المتحدة، يُمضي الآن الشخص العادي تحت سن الحادية والعشرين وقتا في ألعاب الإنترنت يســاوي تقريبا مقدار الوقت الذي يمضيه في حضور الصفوف المدرســية[16] من الصف السادس حتى الصف الثاني عشر. وهذا ليس محصورا بفئة الشباب فقط: في المتوســط يكون المشــارك في ألعاب الإنترنت الاجتماعية[17] من النساء اللواتي في منتصــف الأربعينيات من أعمارهــن. ما يقدر بنحــو 55 في المائة من الذين يلعبون الألعاب الاجتماعية[18] على الإنترنت في الولايات المتحدة - و60 في المائة في المملكة المتحدة - هم من النســاء. (على مســتوى العالم، تشــكل النساء أيضا نســبة 60 في المائة ممن يكتبون التعليقــات و70 في المائة ممن ينشرون الصور على الفيسبوك)[19].

من الذاكرة، «الإشارات»، وأثر غوتينبرغ

على الرغم من أن هذه التغييرات في السلوك قد تبدو تافهة، فإن الاتجاه الأكبر الــذي تمثله ليس كذلك عــلى الإطلاق. واحدة من المناقشــات الأكثر إثارة للاهتمام بين الخبراء الذين يدرســون العلاقة بين الناس والإنترنت تتعلق بالطريقة التي يمكن أن نكيــف بها التنظيم الداخلي لأدمغتنا - وطبيعة الوعي - مع مقدار الوقت الذي نمضيه على الإنترنت[20].

تتأثـر الذاكــرة البشرية على الـدوام بكل تقـدم يحصــل في تكنولوجيا الاتصالات. وقد أظهرت الدراســات النفســية أنه عندما يطلب من الناس أن يتذكــروا قائمــة من الحقائق، فــإن الذين قيل لهم مســبقا إن هذه الحقائق يمكن اســترجاعها لاحقا على شــبكة الإنترنت لم يتذكــروا القائمة بالقدر الذي اســتطاعت به تذكر القائمة المجموعة الأخرى التي لم تُعْلَم بأن هذه الحقائق يمكن إيجادها على الإنترنت[21]. وقد أظهرت دراسات مماثلة أن المستخدمين الدائمين لأجهــزة تحديد المواقــع GPS بدأوا يفقدون حاســتهم الفطرية في تحديد الاتجاهات[22].

النتيجــة هــي أن كثيرا منا يســتخدم الإنترنــت - والأجهزة، والبرامــج، وقواعد البيانات المتصلة بها - كامتداد لأدمغتنا. وهذا ليس مجازا، إذ تشــير الدراســات إلى أن ذلك هــو موقع حقيقي وواقعي للطاقة العقلية[23]. وبشــكل ما، يبدو منطقيا الحفاظ على قدرة الدماغ عن طريق تخزين البيانات الضئيلة فقط التي من شــأنها أن تسمح لنا باسترداد الحقائق من جهاز تخزين خارجي. أو على الأقل هذا ما كان يعتقــده العالم ألبرت أينشــتاين، الذي قال ذات مــرة: «لا تحفظ عن ظهر قلب ما يمكنك البحث عنه في الكتب»[24].

لنصف قــرن من الزمان كان علــماء الأعصاب يدركون أن هناك مســارات محددة للخلايا العصبية تنمو وتتكاثر عند استخدامها، في حين أن عدم استخدام «أشــجار» الخلية العصبيــة يؤدي إلى انكماشــها[25] وفقدان فعاليتها بشــكل تدريجي. حتى قبل تلك الاكتشــافات، وصــف ماكلوهان هذه العملية مجازيا، عندمــا كتــب قائلا إننا عندما نتكيــف مع أداة جديدة تكــون امتدادا لإحدى الوظائــف التي كان يقوم بها العقل وحده ســابقا، فإننا نفقد تدريجيا الاتصال مع قدرتنا الســابقة، لأن هناك «جهــاز تخدير داخليا» يقــوم بتخديرنا بمهارة لاســتضافة وصلة عضو صناعي عقلي يربط أدمغتنا بسلاسة بالقدرة المعززة[26] الكامنة في الأداة الجديدة.

في حــوارات أفلاطون، عندما يقول الإله المصري تحــوت لثاموس (آمون)، أحد ملوك مــصر، إن تكنولوجيا الاتصالات الجديدة للعصر - الكتابة - ستســمح للناس بالتذكر أكثر بكثير من قبل، ولكن الملك لا يوافقه الرأي قائلا: «سيزرع ذلك النسيان

في نفوسـهم: سـيتوقفون عن تمرين الذاكرة لأنهم سيعتمدون على ما هو مكتوب، ولن يعودوا يطرقوا أبواب الذاكرة[27] في داخلهم لتذكر الأشـياء، وإنما سيستعينون بوسائل الإشارات الخارجية»[*].

إذن هذه الدينامية ليسـت جديدة البتة. ولكن ما هو مختلف بشـكل جذري حول هذا الدمج الثنائي لخدمة الوصول إلى الإنترنت مع أجهزة الحاسوب الشخصية المحمولـة هو أن هـذا الربط الفوري بين دماغ المرء والعالم الرقمي سـهلٌ جدا إلى درجـة يمكن معها أن يصبح الاعتماد المعتاد على ذاكرة خارجية سـلوكا شـائعا إلى حد بعيد. كلما أصبح هذا السـلوك أكثر شـيوعا، زاد اعتماد الشـخص على الذاكرة الخارجية - وقل اعتماده على الذكريات المخزنة في الدماغ نفسه[29]. وما يصبح أكثر أهميـة بدلا من ذلك هو «العلامات (الإشـارات) الخارجية» التي أشـار إليها الملك ثاموس (آمون) قبل 2400 سـنة. في الواقع، أحد التدابير الجديدة للذكاء العملي في القـرن الحادي والعشرين يكمن في قدرة المـرء على تحديد مكان وجود المعلومات ذات الصلة على الإنترنت بسرعة بسهولة ويسر.

يتشـكل وعي الإنسـان على الدوام عن طريق الإبداعات الخارجية. وما يجعل البـشر كائنـات فريدة من نوعها بين أشـكال الحياة الأخرى عـلى الأرض - وقادرة عـلى الهيمنة عليها - هو قدرتنـا على التفكير المعقد والمجـرد[30]. ومع ذلك، منذ ظهـور القشرة المخية الحديثة بقالبها العصري تقريبا قبل نحو 200 ألف سـنة[31]، تم تحديد مسـار سيادة الإنسان على الأرض، وذلك بدرجة ضئيلة نسبيا عن طريق مزيـد من التطورات في التطور المـادي للبشر وبدرجة أكبر عن طريق تطور علاقتنا بالأدوات التي نستخدمها لتعزيز هيمنتنا على الواقع.

يختلف العلماء حول ما إذا كان استخدام البشر الكلامَ المعقد قد ظهر فجأة بطفرة جينية، أو أنه تطور بشـكل تدريجـي[32]. ولكن أيا كان مصدره، فالكلام

(*) بنك الذاكرة للإنترنت يتدهور خلال عملية يسميها فينت سيرف، وهو صديق مقرّب وغالبا ما يوصف بأنه «أبو الإنترنت» (إلى جانب روبرت كان، الذي اشترك معه في تطوير بروتوكول التحكم في الإرسال TCP/IP[28] الذي يسمح لأجهزة الحاسوب والأجهزة الموجودة على شبكة الإنترنت بأن يتصل بعضها مع بعض)، «تلف الوحدة الحاسوبية» bit rot - تختفي المعلومات إما لأن البرامج الأحدث لا تسـتطيع قراءة هيئات الملفات المعقدة القديمة، وإما لأن مُحدد مواضع الموارد المنتظم URL الذي ترتبط به المعلومات ليس متجددا. يطالب سيرف «بالورق الرقي الرقمي» - وهي وسيلة موثوقة وقابلة للحياة لحفظ ذاكرة الإنترنت.

المعقـد أحدث تغييرا جذريـا في قدرة البشر على اسـتخدام المعلومات لامتلاك اليد الطولى في التفوق عـلى ظروفهم من خلال تمكيننا وللمرة الأولى من إيصال الأفكار المعقدة من شـخص إلى أشـخاص آخرين[33]. كما يمكن القول إنها كانت تمثل أول مثال عن تخزين المعلومات خارج الدماغ البشري. وعبر معظم التاريخ البشري، كانت الكلمة المنطوقة (المحكية) هي «تكنولوجيا المعلومات» الرئيسـة المستخدمة في المجتمعات البشرية.

ارتبطت الحقبة البدائية الطويلة للإنسـان الصياد بالتواصل الشفهي[34]. ارتبط أول اسـتخدام للغـة المكتوبة مع المراحل الأولى للثورة الزراعيـة[35]. ارتبط التطور التدريجي للغة المكتوبة واسـتخدام أدوات أكثر تطـورا – من الألواح الحجرية إلى ورق البردي إلى الأغشـية إلى الورق، ومن الرموز الكتابية الصُورية إلى الهيروغليفية إلى أبجديـة الأصوات - مع ظهور الحضارات المعقدة في بلاد ما بين النهرين، ومصر، والصين، والهند، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، وأمريكا الوسطى[36].

أدى الكـمال الذي قدمه قدماء الإغريق في الأبجديـة التي اخترعها الفينيقيون أولا إلى طريقـة جديـدة من التفكير تفسر الانفجار المفاجـئ في أثينا خلال القرنين الرابع والخامس قبل التقويم الميلادي للخطاب الفلسفي، والمسرح الدرامي، وظهور مفاهيم متطورة مثل الديموقراطية[37]. مقارنـة بالكتابة الهيروغليفية، فإن الكتابة بالرمـوز الصُورية، والكتابة المسـمارية، والأشـكال المجردة التي شـكلت الأبجدية اليونانيـة - كتلك التي تشـكل جميع الأبجديات الغربية المعـاصرة، لم تكن تحمل معنـى كامنا بحـد ذاتها أكثر مما تحمله الآحاد والأصفـار في الرموز الرقمية. ولكن عندما يتم ترتيبها وإعادة ترتيبها في مجموعات مختلفة، يمكن أن تُسنَد إليها معان «غشتالتية» (صور متكاملة). ارتبط التنظيم الداخلي للدماغ اللازم للتكيف مع هذه الأداة الجديـدة للاتصالات مع الاختلاف اللافت الذي وجـده المؤرخون في حضارة اليونان القديمة مقارنة بكل الحضارات التي سبقتها.

أدى اسـتخدام هذا الشـكل الجديد من التواصل الكتابي إلى زيادة القدرة على تخزين مجموعات الحكم المختارة من الأجيال السابقة بصيغة خارجية عن الدماغ، ولكـن يمكن الوصـول إليها. ارتبطت التطورات اللاحقة أيضا - لاسـيما اختراع الآلة الطابعة في القرن الرابع عشر (في آسـيا) والقرن الخامس عشر (في أوروبا) - بتوسـع

آخـر في كمية المعرفـة المخزنة خارجيا، وزيادة أخرى في سـهولة توافرها في متناول نسـبة أعلى بكثير من السـكان. مع إدخال الطباعة، يتصاعد فجـأة المنحنى الأسي الـذي يقيس مدى تعقيد الحضارة الإنسـانية بزاوية حـادة جدا إلى الأعلى. تغيرت مجتمعاتنا؛ وتغيرت ثقافتنا؛ وتغيرت تجارتنا؛ وتغيرت سياساتنا.

قبـل ظهور ما وصفه ماكلوهان بمجرة غوتنـبرغ، كان معظم الأوروبيين أميين. وكان الجهل وراء ضعفهم وعجزهم نسـبيا[38]. فمعظم المكتبات كانت فقيرة، ولا تحوي سـوى بضع عشرات من الكتب المنسـوخة باليد، وكانت هذه الكتب أحيانا مقيدة بسلاسـل إلى المقاعد التي كانـت مركونة عليها، وقد كُتبـت بلغة لا يقدر على فهم معظمها سـوى الرهبان آنذاك[39]. فالوصول إلى المعرفة الموجودة في تلك المكتبات كان مقتصرا إلى حد كبير على طبقة النُخب الحاكمة في النظام الإقطاعي، التي تسـلمت زمام السلطة عبر تحالفها مع الكنيسـة في العصور الوسطى، وغالبا بقوة السـلاح. القدرة التي منحتها المطبعة على التقاط مجموعات الحكم المختارة من العصور السابقة، وطباعتها مرارا، وتوزيعها بكميات كبيرة من العصور السابقة أطلقـت العنان لمزيدٍ مـن التقدم في مجال المشـاركة في المعلومات الذي أدى إلى العالم الحديث.

بعد أقل من جيلين على إنشـاء مطبعة غوتنبرغ جاءت «رحلات الاستكشاف». عندما عاد كولومبوس من جزر البهاما، أَسَرت أوروبا سيرة رحلته[40] التي طُبعت في إحدى عشرة نسخة. وفي غضون ربع قرن من الزمن أبحرت السفن الشراعية وطافت أرجـاء المعمورة، وجلبت معها القطع الأثرية والمعرفة[41] من الشـمال، والجنوب، وأمريكا الوسطى، وآسيا، وعوالم من أفريقيا كانت مجهولة سابقا.

في الربـع ذاته من القرن، أدى انتشـار أعداد كبيرة من نسـخ الإنجيل (الكتاب المقدس المسيحي) باللغة الألمانية وبعض اللغات الشائعة الأخرى إلى حركة الإصلاح البروتسـتانتية (التي أثـار فتيلها الغضب الأخلاقي لمارتن لوثر بشـأن الفقاعة التي أطلقتهـا دور الطباعة في السـوق حول موضوع الانغماس الذاتي في الشـهوات[42]، بما في ذلك المشـتقات الجديدة والمثيرة التي نتجت عنه: الانغماس في الآثام التي لم ترتكـب بعد). تم تعليق أطروحات لوثر البالغ عددها خمسـة وتسـعين على باب الكنيسـة في ويتنبرغ في العام 1517، وكانت مكتوبـة باللغة اللاتينية، ولكن وُزعت

آلاف النســخ التي كانت مطبوعــة باللغة الألمانية على النــاس[43]. خلال عقد من الزمن، طُبع أكثر من ستة ملايين نسخة من مختلف كراريس الإصلاح، كتب أكثر من ربعها مارتن لوثر بنفسه[44].

أثار انتشــار النصوص في اللغات التي يتحدث بها الشــخص العادي سلسلة من التعديــلات الكبيرة على التدفق الجديد للمعلومــات، ابتداء من موجة محو الأمية التي بدأت في شــمال أوروبــا وانتقلت جنوبا[45]. في فرنســا، حيث وصلت الموجة إلى أوجهــا، نُبذت المطبعــة على أنها من «عمل الشــيطان»[46]. ولكــن مع زيادة شــهية الجماهير على تلقف المعلومات اللامحــدودة التي كانت تنقل عبر الكلمات المطبوعــة، أصبحــت الحكم اليونانيــة والرومانية القديمة في متنــاول الجميع. أثار الانفجــار الحاصل في الفكر والتواصل انبثاق طريقة جديــدة في التفكير حول إرث الماضي واحتمالات المستقبل.

بدأ الانتشار الكبير للمعرفة حول العالم الراهن يهز أركان النظام الإقطاعي. العالم الحديــث الذي يمر حاليــا في مرحلة تحول نوعي وليس كميا خــرج من بين أنقاض الحضارة التي يمكننا القول إنها دُمرت بشــكل خــلاق على يد المطبعة. بدأت الثورة العلمية بعد أقل من مائة عام بطباعة غوتنبرغ للكتاب المقدس، مع نشر كتاب «ثورة الكواكب الســيارة (ثورة الكرات السماوية)» لنيكولاس كوبرنيكوس[47] (الذي حصل على نســخة مطبوعة منه من المطبعة مباشرة وهو على فراش الموت). بعد أقل من قرن من الزمان أكــد غاليليو نظرية مركزية الشــمس heliocentrism. وبعد بضع سنوات جاء كتاب ديكارت «عالم آلية الساعة»، وانطلق السباق بعد ذلك.

أصبحت التحديات لســيادة الكنيســة في العصور الوســطى وأمــراء الإقطاعية تحديات للحكم المطلق للملوك. بدأ التجار والمزارعون يتساءلون لماذا لا يستطيعون ممارســة شكل من أشــكال تقرير المصير على أســاس المعرفة المتوافرة لديهم الآن. انبثقت عن ذلك «ســاحة عامة» افتراضيــة كان يجري من خلالها تبادل الأفكار بين الأفراد (المواطنين). كانت الساحة العامة في أثينا القديمة والمنتدى العام للجمهورية الرومانية هي الأماكن الفعلية التي يجري فيها النقاش وتبادل الأفكار، ولكن المنتدى الافتراضي الأكبر الذي أنشــأته المطبعة كان يحاكي بعض السمات المهمة لسابقاته في العالم القديم.

أدت التحسينات التي أُجريت على المطبعة إلى انخفاض التكاليف وانتشار المطابع التي تبحث عن مواد للنشر. وكانت موانع التدوين ضعيفة جدا، سواء على صعيد الحصول على الأعمال المطبوعة من الآخرين أو على صعيد مساهمة الأفراد في تقديم الأفكار الخاصة بهم. وسرعان ما أدى الطلب على المعرفة إلى ظهور أعمال حديثة - من سرفانتس وشكسبير إلى المجلات ومن ثم الصحف. كانت الأفكار التي تلقى صدى لدى شريحة عريضة من الجماهير تجذب المزيد من الجماهير - بطريقة مشابهة لمحرك البحث العملاق غوغل هذه الأيام.

في عصر التنوير الذي تلا ذلك، أصبحت المعرفة والعقل مصدرا للسلطة السياسية التي كانت تنافس الثروة وقوة السلاح. وكانت إمكانية الاستقلالية الذاتية ضمن إطار الديموقراطية التمثيلية بحد ذاتها ثمرة هذه الساحة العامة الجديدة التي جرى إنشاؤها داخل النظام الإيكولوجي للمعلومات الصادرة عن المطبعة. فقد كان في مقدور الأفراد في ظل حرية القراءة والتواصل مع الآخرين صنع القرارات بشكل جماعي وتقرير مصيرهم بأنفسهم.

في بداية يناير من العام 1776[48]، نشر توماس بين - الذي كان قد هاجر من إنجلترا إلى فيلادلفيا، ولم يكن يمتلك المال أو روابط عائلية أو مصدر نفوذ، بل كانت لديه قدرة على التعبير عن نفسه بوضوح في المقالات المطبوعة - كتيب «الحس السليم»، الذي أسهم في إشعال فتيل حرب الاستقلال الأمريكية في شهر يوليو من ذلك العام[49]. كانت نظرية رأسمالية السوق الحر الحديثة، التي وضعها آدم سميث في العام نفسه[50]، تعمل وفق المبادئ الأساسية نفسها. كان بإمكان الأفراد الذين يمتلكون حرية الوصول إلى المعلومات عن الأسواق اختيار البيع أو الشراء - وكان مجموع قراراتهم كلها يُشكل «اليد الخفية» لتخصيص الموارد، وتحقيق التوازن بين العرض والطلب، وتحديد الأسعار على المستوى الأمثل لتحقيق أقصى قدر من الكفاءة الاقتصادية. وقد جاء في الوقت المناسب نشر المجلد الأول لغيبون «انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية» في العام ذاته أيضا[51]. وقد كانت شعبيته الحاسمة مُصاحِبة بشكل متناقض للابتهاج السائد حول المستقبل[52]. فقد ولى النظام القديم إلى غير رجعة، وكان أبناء الجيل الحالي منشغلين في تكوين العالم من جديد مرة أخرى، بطرق جديدة للتفكير ومؤسسات جديدة كونتها ثورة الطباعة.

يجب ألا نستغرب إذن أن الثورة الرقمية التي تجتاح العالم بسرعة أكبر وبقوة أشد من ثورة الطباعة في حينها، تجلب معها موجة أخرى من الأنماط الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والتجارية الجديدة التي باشرت في صناعة عالمنا من جديد مرة أخرى. بقدر ما كانت التغيرات التي جلبتها ثورة الطباعة مثيرة (وكذلك أيضا التغييرات الناجمة سابقا عن ظهور الكلام المعقد، والكتابة، والأبجدية الصوتية)، لم يكن أي من هذه الموجات السابقة من التغيير يشبه بأي حال من الأحوال ما بدأنا نمر به حاليا نتيجة الدمج الناشئ اليوم ما بين الحوسبة المنتشرة في كل مكان تقريبا، والوصول إلى الإنترنت. قوة المعالجة في أجهزة الحاسوب كانت تتضاعف (لقاء كل دولار يُنفَق) كل 18 - 24 شهرا تقريبا على مدار نصف القرن الماضي. استمر هذا النمط اللافت - الذي يتبع قانون مور - على الرغم من أن التوقعات الدورية تشير إلى أنها ستأخذ مجراها الطبيعي قريبا. على الرغم من أن بعض الخبراء يعتقدون الآن أن قانون مور قد ينتهي مفعوله أخيرا على مدى العقد المقبل، هناك آخرون غيرهم يعتقدون أن التطورات الجديدة مثل الحوسبة الكمية[53] ستؤدي إلى استمرار الزيادات السريعة في قوة الحوسبة.

مجتمعاتنا، وثقافاتنا، وسياساتنا، وتجاراتنا، ونُظُمنا التعليمية، وطرق التواصل مع الآخرين - وأساليب تفكيرنا - تخضع جميعها لعملية إعادة تنظيم جذرية مع ظهور العقل العالمي ونمو المعلومات الرقمية بمعدلات فائقة السرعة. الإنتاج السنوي للبيانات الرقمية ومخزونها لدى الشركات والأفراد[54] يفوق بـ 60 ألف مرة المخزون الإجمالي للمعلومات الموجود في مكتبة الكونغرس. بحلول العام 2011، زادت كمية المعلومات الناشئة والمتكاثرة بعامل تصل قيمته إلى تسعة في غضون خمس سنوات فقط[55]. (مقدار سعة المخزون الرقمي لم يتجاوز المخزون اللارقمي (التناظري) حتى العام 2002، ولكن في غضون خمس سنوات فقط نمت نسبة المعلومات المخزنة رقميا إلى 94 في المائة من جميع المعلومات المخزنة). قبل ذلك بعامين، كان حجم البيانات المرسلة من الأجهزة النقالة بالفعل يفوق الحجم الإجمالي لجميع البيانات الصوتية المرسلة. ليس من قبيل المصادفة أن ينخفض معدل المكالمات الهاتفية، من العام 2003 إلى العام 2010،

إلى النصـف تقريبا[56]، من مدة ثلاث دقائق إلى دقيقة واحدة وسـبع وأربعين ثانية.تضاعف عدد الناس الموصولين إلى شـبكة الإنترنت في جميع أنحاء العالم في الفترة الواقعة بين عامي 2005 و2010[57]، وفي العام 2012 بلغ عدد مستخدمي الإنترنت على مسـتوى العالم 2.4 مليار مستخدم[58]. بحلول العام 2015، سيصل عدد أجهزة الهواتف النقالة إلى رقم يساوي عدد الناس[59] الموجودين في العالم. ومن المتوقع أن يزيد عدد مسـتخدمي الإنترنت عبر الهاتف النقال فقط إلى 56 ضعفـا على مدى السـنوات الخمس المقبلة[60]. ويتوقـع أن يزيد إجمالي تدفق المعلومات باسـتخدام الهواتف الذكية إلى 47 ضعفا خلال الفترة نفسها[61]. لقد اسـتحوذت الهواتف الذكية بالفعل على أكثر من نصف سوق الهاتف النقال في الولايات المتحدة[62] والعديد من البلدان المتقدمة الأخرى.

بيـد أن هذا الأمر ليـس مجرد ظاهرة في البلدان الغنيـة فقط. على الرغم من أن أجهزة الحاسـوب والأجهزة اللوحية لاتزال متركزة أكـثر في الدول المتقدمة، فإن انخفاض تكلفة الطاقة الحاسوبية وانتشار الأجهزة الحاسوبية النقالة الأصغر حجما يعمـل على توفير إمكانية الوصول إلى العقل العالمي وانتشـارها على نطاق واسـع في جميـع أنحاء العالم. أصبحـت الهواتف المحمولة الآن في متناول أكثر من 5 إلى 7 مليارات نسـمة[63] في العالم. في العام 2012، كان هناك 1.1 مليار مسـتخدم فعلي للهواتف الذكية في جميع أنحاء العالم[64] - ولايزال هذا يشكل أقل من خمس السوق العالمية. على الرغم من أن أسـعار الهواتف الذكيـة القادرة على الاتصال بالإنترنت لاتـزال مرتفعة فوق إمكانيـات أغلبية الناس في البلدان الناميـة، فإن التخفيضات في التكلفـة المتواصلـة بلا هوادة، والتـي ميزت العصر الرقمي منذ نشـأته، بدأت الآن تقـود عملية ارتحال الميزات الذكية والروابط بشـبكة الإنترنت إلى نسـخٍ من الهواتف الذكية المنخفضة التكلفة والتي في مقدور الجميع شراؤها والتي سـتكون قريبا متوافرة في كل الأماكن[65].

وبالفعل، أدت القيمة المُدْرَكة لإمكان الاتصال بالإنترنت إلى إدراج الوصول إلى الإنترنت باعتباره حقا جديدا من «حقوق الإنسـان» في تقرير الأمم المتحدة[66]. ولقد قاد نيكولاس نيغروبونتي إحدى المبادرتين العالميتين المتنافستين الرامية إلى تأمين حاسوب أو جهاز لوحي بسعر زهيد (ما بين 100 دولار و140 دولارا) لكل

طفل في العـالم لا يملك واحدا منها[67]. هذا الجهد لإغـلاق «فجوة المعلومات» يتبع أيضا نمطا بدأ في الدول الغنية. على سـبيل المثال، تعاملت الولايات المتحدة في تسـعينيات القرن المنصرم مـع المخاوف المتعلقة بالفجـوة بين «من يملكون المعلومـات» و«من لا يملكون المعلومات» عن طريـق إقرار قانون جديد يقدم معونة حكومية لدعم عملية ربط كل مدرسة ومكتبة بشبكة الإنترنت[68].

التغييرات السـلوكية التي سـاقتها الثـورة الرقمية في البلـدان المتقدمة تمتلك أيضـا بعض القيمـة التنبؤية على الأقل للتغييرات المُحدِثـة الآن بالعالم ككل. وفقا لاسـتطلاع أجرته شركة إريكسـون، فإن 40 في المائة من أصحـاب الهواتف الذكية يشـبكون أنفسهم بشبكة الإنترنت فور اسـتيقاظهم من النوم[69] - وحتى قبل أن يغادروا السرير. وهذا النشـاط يبدأ نمطا سـلوكيا يمتد طوال ساعات يقظتهم. وفي أثناء قيادتهم للسـيارة وهم ذاهبون إلى العمل صباحا فهم يواجهون، على سـبيل المثال، أحد المخاطر الجديدة على الصحة والسـلامة العامة: وهي اسـتخدام أجهزة الاتصالات المحمولة لإرسـال رسـائل البريد الإلكتروني، والرسـائل النصية، وممارسة ألعاب التسـلية، والتحدث عـلى الهاتف في الوقت ذاته الـذي يحاولون فيه قيادة مركباتهم وشاحناتهم[70].

في أحد الأمثلة المتطرفة لهذه الظاهرة، حلقت طائرة تجارية لمدة تسعين دقيقة بعد وصولها إلى وجهتها النهائية المقررة، ولم تحط على الأرض لأن الطيار ومساعده كانا منشـغلين بأجهزة حواسيبهما الشخصية المحمولة في قمرة القيادة، وكانا غافلين تمامـا عن كل المحاولات التي قـام بها أكثر من اثني عشر مراقبا جويا في ثلاث مدن للفـت انتباههـما - وبينما كانت القيادة الجوية الاسـتراتيجية تُعد طائرات مقاتلة لاعتراض الطائرة - توقف الطياران الملتهيان أخيرا عن اسـتخدام أجهزة الحاسـوب الخاصة بهما[71].

شـعبية هاتـف الآي فـون iPhone وكميـة الوقت التي يمضيهـا الناس في اسـتخدام ميزة التخاطب بالصوت والصورة، عبر برنامج فيس تايم الموجود فيه، جعلت بعـض الناس يعملون على تحسـين مظهر وجوههم مـن أجل التكيف مـع هذه التكنولوجيا الجديدة. فقد قال جراح التجميل روبرت ك. سـيغال إن «المـرضى يأتون إليّ مع أجهزة الآي فون الخاصة بهـم، ويُرونني كيف يبدون في

الصوَرة عــلى برنامج فيس تايم. فالزاوية التي يحمل بها الناس هاتف الآي فون التــي يكــون فيها المتصل ينظر إلى الأســفل على كاميرا الهاتــف، تلتقط بالفعل أي مظاهــر للبدانــة أو الامتــلاء أو الترهل في الوجه والرقبــة. الناس يقولون: لم أكن أعرف أنني أبدو بهذا المظهر! يجب أن أفعل شــيئا! لقد بدأت أســمي هذا الأمر بتأثير «شــد الوجه على فيس تايم» Face Time Facelift[72]. ولقد طورنا إجراءات لمعالجة هذا الأمر بالتحديد.

ظهور تقنية جمع «البيانات الكبيرة» Big Data

مثلما مددنا آفاق وعينا إلى داخل العقل العالمي، نمد الآن آفاق الجهاز العصبي المحيطي لدينا إلى داخل إنترنت الأشــياء Internet of Things، التي تعمل بكاملها تقريبا تحت مســتوى الوعي وتتحكــم بوظائف مهمة للحفــاظ على كفاءة شركة الأرض. وهذا هو الجزء من شــبكة الإنترنت العالمية الذي ينتشر بسرعة أكبر، ويولد بيانــات تفوق بكثير الحجم الذي ينتجه الناس أنفســهم، ويتطور نحو ما يســميه البعض «إنترنت جميع الأشياء» Internet of Everything [73].

تقوم التقنية الناشئة التي تسمى «البيانات الكبيرة» Big Data، وهي واحدة مــن الحقول الجديدة الرائدة والمثيرة لعلــم المعلومات، على تطوير خوارزميات جديــدة لأجهزة الحاســوب العملاقة لغربلــة الكميات الجديــدة الضخمة من البيانات[74] التي كان يُنظر إليها ســابقا على أنها غــير قابلة للمعالجة والتحكم بها. أكثر من 90 في المائة من المعلومات التي جمعتها أقمار لاندســات الصناعية تُرســل مباشرة إلى مســتودع تخزين إلكتروني من دون تشغيل عصبون واحد في دماغ الإنســان، ومن دون معالجتها بواســطة أجهزة الحاســوب لتحديد أنماطها ومعناهــا[75]. هذا الكنز الدفين وغيره من البيانات غير المســتخدمة يمكننا الآن تحليلها أخيرا.

وبالمثــل، فــإن معظم البيانــات التي تُجمَــع الآن خلال تشــغيل العمليات الصناعية بواســطة الأنظمة المدمجة، وأجهزة الاستشعار، والأجهزة الدقيقة مثل أجهــزة التشــغيل الميكانيكي، يُتخلّص منها بعد فترة وجيــزة من جمعها[76]. مع الانخفاض الكبير في تكلفة تخزين البيانات والتطور المتزايد لتقنية جمع البيانات

الكبيرة Big Data، يجري الاحتفاظ حاليا ببعض هذه المعلومات وتحليلها، وقد أصبحت تنتج بالفعل طوفانا من الأفكار التي تعزز الكفاءة في الصناعة والتجارة[77]. وكمثال آخر على ذلك، تعمد بعض المركبات التجارية إلى نصب كاميرا فيديو صغيرة على حاجب الريح (الزجاجي) الأمامي للمركبة تجمع البيانات بشكل متواصل، ولكنها تحفظ فقط عشرين ثانية في كل مرة؛ في حال وقوع حادث، تُحفَظ المعلومات التي جُمعت خلال الثواني الواقعة قبل الحادث وفي أثناء وقوعه[78] للتحليل فيما بعد. وينطبق الشيء نفسه على الصندوقين الأسودين على متن الطائرات، ومعظم الكاميرات الأمنية في المباني[79]. يجري مسح البيانات التي جُمعت باستمرار لإفساح المجال لحفظ المعلومات الأحدث. وفي القريب العاجل، سيجري الاحتفاظ بمعظم هذه المعلومات وتخزينها ومعالجتها بواسطة خوارزميات البيانات الكبيرة للحصول على أفكار مفيدة.

يجري إعداد الخطط حاليا في جميع أنحاء العالم لجمع - وتحليل - أكبر قدر ممكن من المعلومات. تعمل شركة IBM مع المعهد الهولندي لعلم الفلك الإشعاعي على تطوير جيل جديد من تكنولوجيا الحاسوب لتخزين ومعالجة البيانات التي سيلتقطها قريبا تلسكوب «مجموعة الكيلومتر المربع» Square Kilometre Array، وهو تلسكوب إشعاعي جديد سيجمع كل يوم ضعف كمية المعلومات التي تولدها في الوقت الحاضر[80] الشبكة العالمية WWW بأكملها.

عمليا، جميع المساعي البشرية التي تنتج عادة كميات كبيرة من البيانات ستتأثر قريبا بشكل جذري باستخدام تقنيات جمع البيانات الكبيرة. بعبارة أخرى، كما يبحث علماء النفس والفلاسفة عن معانٍ أعمق لعمليات الإنسان اللاشعورية، تتنبأ الآن أحدث أجهزة الحاسوب العملاقة أنماطا ذات معنى في كميات هائلة من البيانات جُمعت بشكل متواصل ليس فقط على إنترنت الأشياء فحسب، بل أيضا من خلال تحليل أنماط طوفان المعلومات المتبادلة بين الناس، بما في ذلك مليارات الرسائل المرسلة يوميا على شبكات التواصل الاجتماعي[81] مثل تويتر وفيسبوك.

أنشأت هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية نظام كاشف الزلازل على تويتر Twitter Earthquake Detector[82] لجمع المعلومات بسرعة أكبر

حــول تأثير وموقع حــوادث الهزات الأرضية، ولاســيما في المناطــق المأهولة بالســكان وبعدد قليــل من الأدوات الزلزالية. وفي العــام 2009، أطلق الأمين العام للأمــم المتحدة بان كي مون[83] برنامج النبــض العالمي Global Pulse لتحليــل الاتصالات الرقميــة من أجل كشــف وفهم الصدمــات الاقتصادية والاجتماعية بسرعة أكبر. النمط الذي يتبعه الناس في إضافة المال إلى حسابات هواتفهم النقالة يعتبر إنذارا مبكرا لفقدان الوظيفة. يُمكن اســتطلاع أســعار المواد الغذائية على الإنترنت للمســاعدة في توقع ارتفاع الأسعار ونقص المواد الغذائيــة. وعمليات البحث عــن مصطلحات مثل «الإنفلونــزا» و«الكوليرا» يمكن أن تُنذر بتفشي الأمراض.

المجتمع الذكي يســتخدم تقنيات تحليل البيانات الكبــيرة للبحث عن أنماط في التدفقات الواسعة من الاتصالات للتنبؤ بالاضطرابات الاجتماعية في بلدان ومناطق ذات أهميــة خاصة[84]. بعض الشركات الجديدة تســتخدم الآن تقنيات مشــابهة لتحليــل ملايين الرســائل أو التغريــدات للتنبؤ بجودة مبيعــات[85] أفلام هوليوود وبوليوود في شباك التذاكر.

الديموقراطية في الميزان

كما هــي الحال دائما، فإن الضرورات التي تقود التجارة والأمن القومي تتكيف بسرعــة مع ظهور تكنولوجيات جديدة، ولكن ماذا عن الديموقراطية في هذا العصر الجديد؟ النهوض السريع والمتواصل بلا هوادة للتواصل المعتمد على شبكة الإنترنت هو بالتأكيد علامة تبعث على الأمل لاســتعادة عافية الحوكمة الذاتية، وذلك يعود بدرجة كبيرة إلى أن الخصائص الهيكلية للإنترنت متشابهة جدا مع خصائص المطبعة: فقيود وموانع التدوين للأفراد في أدنى مســتوياتها وإمكان الوصول للإنترنت أســهل من أي وقت مضى. وكما كان صحيحا في عصر الصحافة المطبوعة، فإن نوعية الأفكار المطروحــة على الإنترنــت يمكن أن يجــري تقييمها جزئيا على الأقــل على يد عدد مــن الناس الذين تلقى هــذه الأفكار صدى لديهم. ومع ازديــاد عدد الناس الذين يتجاوبــون مع تعابــير معينة يظل هناك عــدد أكبر ممن يوجهــون اهتمامهم إلى التعابير ذات الشعبية المتصاعدة.

يرتبط الطلب على المحتوى في شـبكة الإنترنت أيضـا بنهوض مهم في القراءة - وهـذا صدى طفيف لنظرية «الانفجار الكبير» في تعلم القراءة والكتابة الذي رافق نشـوء مجرة غوتنبرغ. في الواقـع، بعد تراجع القراءة في أعقـاب ظهور التلفزيون، تضاعفت الآن ثلاث مرات في غضون السنوات الثلاثين الماضية لأن ما يهيمن بشكل كبير على محتوى الإنترنت هو الكلمات المطبوعة[86].

مع مرور الديموقراطية في مخاض عسير نظرا إلى هيمنة الثروة وسلطة الشركات حاليا على المصلحة العامة في العديد من البلدان - وفي بلدان أخرى بسبب السلطة الراسـخة للأنظمة الديكتاتورية الاسـتبدادية - فإن العديد مـن مؤيدي الحوكمة الذاتيـة الديموقراطيـة يعلقون آمالهم على إحياء الخطـاب الديموقراطي القوي في عصر الإنترنت.

وبالفعل، فإن الحركات السياسـية الثورية - من المتظاهرين في ميدان التحرير في القاهرة إلى حركة الاحتجاجات الشعبية الناقمة في إسبانيا إلى حركة «احتلوا وول ستريت» إلى الحشود الجماهيرية الضخمة للمحتجين على الانتخابات في موسكو[87] - تتشـكل في الأغلب عن طريـق الإنترنت. وقد أدت مواقع فيسـبوك وتويتر دورا مهـما في العديد من هذه الحركات، إلى جانب البريد الإلكتروني، والرسـائل النصية، والرسـائل الفورية. واحتل برنامـج غوغل إيـرث Google Earth لتحديد المواقع الجغرافية مكانة مهمة أيضا في تسليط الضوء على تجاوزات النخب[88]، في البحرين على سـبيل المثال - وفي الثورة الليبية، استُخدم برنامج غوغل إيرث بالفعل من قبل المتمرديـن في مصراتة لتوجيه إطلاق قذائف الهاون التي بحوزتهم[89]. (بالمناسـبة، أثار برنامج غوغل إيرث أيضا نزاعا حدوديا طفيفا ومواجهة مسلحة قصيرة الأمد بين نيكاراغوا وكوسـتاريكا، عندما نَسـبَ عن طريق الخطأ جزءا صغيرا جدا من أراضي كوستاريكا إلى الأراضي الوطنية التابعة لنيكاراغوا).

بيد أن الحـركات الإصلاحية والثورية التي بدأت على الإنترنت حتى الآن كانت جُلها تتبع نمطا واحدا: قطع العصب وفوران الدم تليها خيبة الأمل والركود الدموي. ويبقى السؤال المطروح هو ما إذا كانت ستدب الحياة في هذه الحركات الإصلاحية التـي أثارتهـا الإنترنت مرة ثانية بعـد أن هدأ غليانها، وتنهـض من جديد وتحقق أهدافها في نهاية المطاف.

إحدى الحركات الثورية الأولى التي مارست الإنترنت دورا رئيسا في إشعال فتيلها كانت ثورة الزعفران في العام 2007 في ميانمار. وقد واجه النشطاء مخاطر شخصية جسيمة لنشر رسائل تطالب بإصلاحات ديموقراطية عن طريق استخدام الشبكة العالمية بأسماء وهمية من مقاهي الإنترنت وتهريب أدوات حفظ المعلومات (فلاش ميموري) عبر الحدود إلى شركائهم (المتعاونين معهم) في الشتات الذين يعيشون في تايلاند[90]. للأسف، تمكنت الحكومة الاستبدادية في ميانمار من كبح جماح ثورة الزعفران وإخمادها، وكان ذلك فقط على حساب قطع شبكة الإنترنت وإغلاقها تماما داخل حدود البلاد[91].

ومع ذلك، ظلت شعلة النار الثورية قبل إغلاق الإنترنت متقدة في ميانمار وواصلت احتراقها لتضيء أجزاء أخرى من العالم صَحَت فيها قوى الضمير على الانتهاكات والمظالم التي ترتكبها الحكومة الدكتاتورية في ميانمار. (لقد عملت الإنترنت على تمكين مجموعات الشتات من جديد، لاسيما المتعلمين والأثرياء منهم في الدول الغربية، لكي يمارسوا أدوارا مهمة في تعزيز حركات الإصلاح ومساندتها في بلدانهم الأصلية). وبعد بضع سنوات، مُورست الضغوط على حكومة ميانمار لتخفيف قيودها على الحوار السياسي والإفراج عن زعيمة حركة الإصلاح، أونغ سان سو كي، من الإقامة الجبرية الطويلة التي فُرضت عليها[92]، وفي شهر مارس من العام 2012 حققت نصرا بفوزها في الانتخابات البرلمانية وسط دلائل كثيرة تشير إلى أن الحركة الشعبية التي بدأت على الإنترنت كانت تنشأ من جديد كقوة من أجل التغيير، وقد بدت متجهة إلى السيطرة على الحكومة[93].

مع ذلك، في العديد من الدول الاستبدادية الأخرى، كانت المقاومة الشرسة للإصلاح أكثر فعالية في وأد حركات المعارضة المستندة إلى الإنترنت. في العام 2009، بدأت الثورة الخضراء في إيران كاحتجاج شعبي على الانتخابات الرئاسية المزورة[94]. على الرغم من أن المتعاطفين الغربيين كان لديهم الانطباع بأن موقع تويتر أدى دورا رئيسا في إشعال فتيل حركة الاحتجاج ومساندتها، فإن وسائل الإعلام الاجتماعية في واقع الأمر لم تمارس إلا دورا صغيرا داخل إيران أقل من الدور الذي مارسته خارج إيران، لأن الحكومة الإيرانية كانت ناجحة في السيطرة بشكل كبير على استخدام الإنترنت من قبل المحتجين[95]. صحيح

أن أفـلام الفيديو التي عرضت عـلى موقع يوتيوب وثقت تجـاوزات الحكومة (التي كان من أشهرها، حادثة مقتل ندا آغا سلطان المأساوية)[96]، بيد أن مواقع وسائل الإعلام الاجتماعية ذات النفوذ الأكبر التي كان يمكن أن تعمل على تمكين المعارضين من بناء حركة احتجاج أكبر كانت قد حُجِبت بشـكل شـبه تام[97]. في الواقع، وإبّان الحملة الانتخابية نفسـها، عندما كان مرشح المعارضة الرئيس، مير حسـين موسوي، قد بدأ يكتسب المزيد من الزخْم من خلال التنظيم على موقع فيسبوك، أقدمت الحكومة ببساطة بحجب الموقع[98].

الأسـوأ من ذلك، أن قوات الأمن الإيرانية أظهـرت للعالم ما يمكن أن تفعله أي حكومة اسـتبدادية بمواطنيها عن طريق استخدام المعرفة التي تكتسبها من روابطهـم على الإنترنت والبيانات الاجتماعيـة للتعرف على المعارضين وتعقبهم، والاطلاع على اتصالاتهم الخاصة، والقيام بشكل فعال بكبت أي مقاومة حقيقية للسـلطة الديكتاتورية[99]. الحادثة برمتها كانت إنذارا خطيرا يؤكد إلى أي مدى يمكـن لانعـدام الخصوصية على شـبكة الإنترنت أن يزيد من سـلطة الحكومة المحتملـة على المواطنين التابعين لها بسـهولة أكبر مـن قدرتها على تمكين قوى الإصلاح والثورة.

الصـين، على وجـه الخصوص، اسـتقدمت أكثر الإجراءات تطـورا على الإطلاق في فرض رقابة على محتوى الإنترنت وممارسـة السـيطرة عـلى إمكاناتها في تعزيز التوجه الإصلاحي أو الثوري. يُعتبر «برنامج الحماية (حائطِ النار) العظيم في الصين» أكبر محاولة للسـيطرة على الإنترنت في العـالم اليوم. (إيران والديكتاتورية الرجعية السـتالينية في بيلاروس[100] هما البلدان الآخران اللذان قاما بمثل هذه المحاولات). اتصـال الصين بشـبكة الإنترنت العالمية تحتكره شركات تديرهـا الدولة، وهي تتبع بعنايـة نظام بروتوكولات يحول عـلى نحو فعال الإنترنت داخل الصين إلى شـبكة إنترنت داخلية وطنية[101]. في العام 2010، فُرضت الرقابة حتى على مقابلة أُجريت مع رئيس وزراء الصين آنذاك، ون جيا باو، الذي دافع فيها عن الإصلاحات، وحُجبت عن الجماهير في الصين[102].

في العـام 2006 اصطدمـت الخطة الصينية للسـيطرة على محتوى شـبكة الإنترنت مع القيـم المفتوحة لأضخم محرك بحث في العالم، وهو غوغل[103]. بما

أنني كنت أحد الأشخاص الذين شاركوا في مداولات الشركة في ذلك الوقت، رأيت بأم عيني كيف كانت الخيارات محدودة. بعد البحث عن سبل للتوفيق بين التزامها بالانفتاح الكامل للمعلومات وجهود الصين الحثيثة لحجب أي محتوى كانت تجده معارضا، اتخذت غوغل القرار المبدئي بالانسحاب من الصين، وتغيير مسار موقعها ليكون عبر هونغ كونغ بدلا من الصين، التي لاتزال تحتفظ بسقف أعلى من الحرية، وإن كان ذلك في إطار القيود المفروضة من بكين. بالمناسبة، لم يُسمح لموقع فيسبوك بدخول الصين على الإطلاق. وقال أحد مؤسسي غوغل، سيرجي برين، في العام 2012 إن الصين كانت أكثر فعالية بكثير في السيطرة على الإنترنت مما كان متوقعا. وأضاف: «كنت أعتقد أنه لا توجد وسيلة لإعادة الجني إلى القمقم»[104]، ثم أشار برين قائلا: «ولكن يبدو الآن في بعض المناطق أن الجني قد عاد إلى القمقم».

أما الفنان الصيني آي ويوي الذي يتمتع بقدر كبير من الشعبية والاحترام فقد أعرب عن وجهة نظر مختلفة: «[الصين] لا يمكن أن تتحمل عواقب ذلك... فإنه من المستحيل محاولة السيطرة على الإنترنت»[105]. الصين اليوم لديها عدد من مستخدمي الإنترنت أكبر من أي بلد آخر في العالم - أكثر من 500 مليون شخص، أي 40 في المائة من مجموع سكانها[106]. نتيجة لذلك، يعتقد معظم المراقبين أنها ليست سوى مسألة وقت قبل أن تصبح الحوارات الحرة المفتوحة خارجة عن السيطرة داخل الصين - حتى في الموضوعات المثيرة للجدل في نظر الحزب الشيوعي. وبالفعل فقد اقتنع عدد من القادة الصينيين بضرورة التواصل عبر الإنترنت للرد على المواضيع المثيرة للجدل بين الجماهير[107]. في روسيا المجاورة، شعر الرئيس السابق ديمتري ميدفيديف أيضا بالضرورة الملحة للمشاركة شخصيا على شبكة الإنترنت[108].

مع بروز الدور الذي تقوم به شبكة الإنترنت وأجهزة الحاسوب المتصلة بها وسعة انتشاره بشكل عام، قد تجد الحكومات الاستبدادية صعوبة متزايدة في ممارسة الدرجة نفسها من السيطرة. عندما بدأ الربيع العربي في تونس، كان الأمر يرجع جزئيا إلى حقيقة أن نسبة أربعة من كل عشرة تونسيين كانوا متصلين بشبكة الإنترنت[109]، وما يقرب من 20 في المائة منهم كانوا موجودين على موقع فيسبوك[110] (80 في المائة من مستخدمي فيسبوك هم دون الثلاثين من أعمارهم)[111].

على الرغم من أن تونس كانت واحدة من الدول المدرجة، وفقا لمنظمة «مراسلون بلا حدود»، ضمن الدول التي تفرض رقابة على المعارضة السياسية على شبكة الإنترنت[112]، تمكنت الثورة السلمية في معظمها من اكتساب الزخم بسرعة مذهلة، وانتشار دخول شبكة الإنترنت في تونس كبل قدرة الحكومة على السيطرة على التَفتح الرقمي المُزهر للتحدي الجماهيري. الشاب الذي أضرم النار في جسده احتجاجا، محمد البوعزيزي، لم يكن أول من فعل ذلك، لكنه كان أول من صُوِّر بالفيديو وهو يفعل ذلك. وكان هذا الفيديو الذي حُمِّل على شبكة الإنترنت هو الذي أشعل فتيل ثورات الربيع العربي[113].

في المملكة العربية السعودية، أسهم موقع تويتر في تسهيل عملية توجيه الانتقاد العلني[114] للحكومة، وحتى للأسرة المالكة. مع تسارع التغريدات على موقع تويتر في السعودية بشكل أكبر من أي مكان آخر في العام 2012، نقلت صحيفة نيويورك تايمز عن المحامي فيصل عبد الله البالغ من العمر واحدا وثلاثين عاما قوله «تويتر بالنسبة إلينا هو مثل البرلمان، ولكن ليس من نوع البرلمان الموجود في هذه المنطقة. فهو برلمان حقيقي يلتقي فيه الناس من جميع الأطياف السياسية ويتحدثون بحرية».

بيد أن الخبراء في المنطقة يرون أنه من الأهمية بمكان أن ننظر بعناية في التفاعل ما بين الإنترنت وعوامل مهمة أخرى في الربيع العربي - بما في ذلك بعض العوامل التي تتمتع بالأهمية ذاتها التي تتمتع بها الإنترنت في إحداث هذا الانفجار الاجتماعي والسياسي. إن عوامل النمو السكاني، والازدياد المطرد في أعداد الشباب، والركود الاقتصادي، وارتفاع أسعار المواد الغذائية أدت مجتمعة إلى خلق الظروف المواتية لهذه الاضطرابات. عندما وعدت حكومات المنطقة أولا بإجراء الإصلاحات الاقتصادية والسياسية، ومن ثم بدت وكأنها قد تراجعت عن ذلك، وصلت درجة الإحباط إلى نقطة الغليان.

يعتقد العديد من المحللين أن التغيير الأكثر أهمية في زرع بذور الربيع العربي كان ظهور قناة الجزيرة التلفزيونية الفضائية الجريئة والمستقلة نسبيا[115]. في أعقاب ظهور قناة الجزيرة سرعان ما ظهرت نحو 700 قناة من القنوات الفضائية الأخرى التي كان من السهل الوصول إلى مشاهدتها من خلال أطباق هوائيات

الأقـمار الصناعية الرخيصة - حتى في البلدان التـي تعتبر فيها هذه الأطباق غير قانونيـة من الناحية الفنيـة[116]. حاولت العديد من الحكومات السـيطرة على انتشـار هذه الأطباق الهوائيـة الصغيرة، ولكن النتيجة كانـت هيجانا لا يُصدق من النقاش السـياسي، بما في ذلك مواضيع لم يسـبق أن نوقشـت علنا من قبل. مـع اندلاع الربيع العربي في سـاحة التحرير في القاهرة، كانـت كل من القنوات الفضائيـة والإنترنت قد انتشرت في جميع أنحاء مـصر والمنطقة[117]. وقد مرت أوقـات عصيبة على علماء الاجتماع وعلماء السياسـة في تحليل التأثير النسـبي لهاتين الوسـيلتين الإلكترونيتين الجديدتين في إشعال ثورات الربيع العربي وشحذ هممها، بيد أن معظمهم يعتقد أن قناة الجزيرة وشـقيقاتها الكُثر كانت العامل الأبرز في ذلك[118]. في العام 2004، عندما زار حينها الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك مقر قناة الجزيرة في قطر، قال: «كل هذه المشـاكل ليسـت إلا نتاج علبة الكبريت الصغيرة هذه؟»[119] ربما كانت هاتان الوسيطتان الإعلاميتان ضروريتين، ولكن لم يكن أي منهما كافيا.

وكـما كانت الحال في تونس، وجدت مصر صعوبة في حجب إمكان الوصول إلى الإنترنت بالطريقة التي قامت بهـا كل من ميانمار وإيران[120]. بحلول العام 2011 كانت الإنترنت منتـشرة إلى درجة أدت فيها محاولة الحكومة لحجب جميع منافذ الدخول إلى شـبكة الإنترنـت داخل البلاد إلى ردود فعل شـعبية قوية جدا إلى حد إلهـاب نيران الثورة بصب مزيد من الزيت عليها[121]. إن تصميم المحتجين آتى أُكُله في نهايـة المطاف في إجبار الرئيس مبارك على التنحي، ولكن تلاحمهم بدأ يتلاشى في أثناء الصراع السياسي الذي جاء في أعقاب ذلك.

يـرى بعـض المحللين، بمن فيهم مالكـولم غلادويل[122]، أن الاتصالات بشـبكة الإنترنـت ضعيفة ضمنيا، وغالبا ما تكون مؤقتة لأنها لا تدعم العلاقات الأقوى التي تُبنـى عندما تعتمد الحركات الجماهيرية على حضور التجمعات بشـكل شـخصي. في مصر، على سـبيل المثال، لم تكن الحشـود الموجودة في ميـدان التحرير تمثل إلا نسـبة ضئيلة من تعداد سـكان مصر الضخـم[123] - وأولئك الموجـودون في بقية أنحـاء البلاد ممن تعاطفوا مع مطالب هـذه الجماهير ضد حكومة مبارك لم يبقوا مصطفين وراء المتظاهرين عندما جاء الوقت لتشـكيل إجماع سـياسي جديد حول

شـكل الحكومة[124] التي ستعقب سـقوط حكومة الرئيس مبارك. سرعان ما فرض الجيش المصري سـيطرته عـلى الحكومة، وفي الانتخابات التـي تلت ذلك، هيمنت القوى الإسـلامية في تأسـيس نظام جديد يقوم على مبـادئ مختلفة كثيرا عن تلك التي كان ينادي بها معظم الإصلاحيـين[125] الذين أوجدتهم الإنترنت والذين كانوا مهيمنين سابقا على ميدان التحرير.

في الواقع، تكشـف ذات النمط ليس في مصر وحدها فحسب، بل في كل من ليبيا وسورية والبحرين واليمن وأماكن أخرى - بما في ذلك إيران - وهو أن حركة إصلاحية ناشئة مدعومة من قبل الوعي السياسي الجماعي الجديد الذي وُلدَ على شبكة الإنترنت حرّضت على التغيير، ولكنها فشلت في توطيد انتصارها. أحكمت قوى الثورة المضادة قبضتها على وسائل الإعلام وأعادت فرض هيمنتها.

يقدم التاريخ الفريد لتكنولوجيا الاتصالات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أحد الأسباب التي أدت إلى فشل الإصلاحيين في توطيد مكاسبهم. الوعي السياسي الناشئ الذي صاحَبَ ثورة الطباعة في أوروبا، ولاحقا في أمريكا الشمالية، مر عبر الشرق الأوسط وشـمال أفريقيا عندما فرضت الإمبراطورية العثمانية حظرا على الصحافة المطبوعة[126] للشـعوب الناطقة بالعربية. أسهم هذا الحظر في إبعاد الأراضي الواقعـة تحت الحكم العثماني وعزلها عـن التقدم السريع (مثل الثورة العلميـة) الذي أثارته الصحافة المطبوعة في أوروبا. بعد قرنين من الزمان، عندما طرح المسلمون العرب لأول مرة السؤال التاريخي «ما الخطأ الذي حصل؟» جاء الجواب جزئيا بأنهم قد حرموا أنفسهم من قطف ثمار ثورة الطباعة[127].

ونتيجـة لذلـك، لم تتشـكل المؤسسـات التي نشـأت في الغرب لتجسـيد الديموقراطية التمثيلية في الشرق الأوسط على الإطلاق. وبالتالي، وبعد مرور قرون من الزمن، لم يتمكن الوعي السـياسي الجديد الذي وُلدَ على شبكة الإنترنت من التجسد بسـهولة في الهياكل الرسمية التي كان بإمكانها أن تحكم وفقا للمبادئ التي عبر عنها الإصلاحيون. غير أن قوى التسـلط والاستبداد كانت قادرة بسهولة على تجسيد رغبتها في السيطرة على المجتمع والاقتصاد في المؤسسات التي كانت قائمة بالفعل - بما في ذلك المؤسسة العسكرية، والشرطة الوطنية، وبيروقراطيات الحكم الاستبدادي.

ربــط محللــون آخرون خيبة الأمل التــي أعقبت الثورة في ميــدان التحرير بما يعتبرونــه مثالا آخر على «التفــاؤل التكنولوجي»، الذي يمكن مــن خلاله أن تقوم تكنولوجيا جديدة مثيرة في زرع آمال غير واقعية، بينما تُغفَل حقيقة بســيطة وهي أن كل التكنولوجيــات يمكن اســتخدامها إما للخير وإما للــشر، اعتمادا على كيفية استخدامها ومن هم المستخدمون الذين يستخدمونها بدرجة كبيرة[128]. الإنترنت لا يمكن أن يستخدمها الإصلاحيون فحسب، وإنما يمكن أن يستخدمها مناهضو الإصلاح أيضا. ومع ذلك، فإن الوعد المثير للإصلاح المعتمد على شــبكة الإنترنت - سواء على صعيد تحقيق المصالح العامة، وبدرجة أهم إعادة إحياء الديموقراطية - لايزال يُلهم دعاة الحرية، وذلك لأنه يســاعد على وجه التحديد في ظهور وعي ســياسي جماعي جديد وتعزيزه لكي يتمكن أفراد المجتمع من خلاله من استيعاب الأفكار السياسية، وطرح أفكارهم الخاصة، والمشاركة في حوار سياسي يتطور بسرعة.

ويغــذي هذا التفــاؤل أيضا حقيقة أن بعض الحكومــات التي تقدم الخدمات للأفراد يجرون تحســينات كبيرة عــلى قدرتهم على إيصــال المعلومات المهمة على الإنترنــت والانخراط بصدق في التواصل المتبادل المثمر مع المواطنين. بعض الدول - خصوصا أستونيا - ذهبت إلى حد تجريب إجراء التصويت في الانتخابات والاستفتاءات عــبر الانترنــت[129]. وفي جَارَتِها لاتفيا، أُقِر بالفعل قانونــان نتيجة لمقترحات قدمها المواطنون على موقع الحكومة الإلكتروني[130] المفتوح لاستقبال اقتراحات الجماهير. أي فكــرة تحصــل على تأييد 10 آلاف شــخص أو أكثر تذهب مبــاشرة إلى العملية التشريعيــة. بالإضافــة إلى ذلك، العديد من المدن تســتخدم إحصاءات حاســوبية وعروض مرئية متطورة لاســتهداف اســتخدام الموارد بدقة أكبر وتحقيق مستويات أعلى من الجودة في الخدمات التي تقدمها[131]. وقد اقترح بعض النشطاء المؤيدين لأشــكال الديموقراطية المستندة إلى الإنترنت، ومن بينهم البروفسور كلاي شيركي من جامعــة نيويورك، بعض الطرق المبتكرة لاســتخدام البرمجــة مفتوحة المصدر لربط المواطنين معا في حوارات ونقاشات مثمرة حول القضايا والتشريعات[132].

ولكــن في الــدول الغربية فإن احتــمالات قيام حركات إصلاح مســتندة إلى الإنترنــت أصبحت ضعيفــة حتى في الولايــات المتحدة، على الرغــم من الآمال السائدة بأن الإنترنت ســتعيد تنشيط الديموقراطية في نهاية المطاف، فإنها حتى

هــذه اللحظة لم تنجح في تحقيق ذلك. ولكي نفهم أســباب ذلــك، من الأهمية بمكان أن نحلل التأثير الناشــئ للإنترنت على الوعي الســياسي في السياق الأوسع للعلاقة التاريخية بين وسائل إعلام الاتصالات والحوكمة - مع إيلاء اهتمام خاص إلى اســتبدال وســائل الإعلام المطبوعــة بالتلفزيون الذي يُعَد إحدى الوســائط الجماهيرية القوية.

في سياســات العديــد من البلــدان - بما فيهــا الولايات المتحدة - نجد أنفســنا عالقــين مؤقتا في تحول بطيء مفاجئ من عصر التلفزيون إلى عصر الإنترنت. لايزال التلفزيــون أكثر وســائط الاتصالات هيمنــة على الإطلاق في العــالم الحديث، حتى إن المزيد من الناس يشــاهدون أفلام فيديو الإنترنت على شاشــات التلفزيون[133] أكثر من مشــاهدتها على شاشات الكمبيوتر. في نهاية المطاف، فإن محدودية عرض النطاق الترددي على أفلام الفيديو عالية الجودة لن تكون عائقا أمام التلفزيون الذي «ســتجري مواءمته مع العالم الرقمي»[134]، على حد تعبير الروائي ويليام غيبســون. ولكــن إلى أن يتم ذلك، فإن قنــوات البث التلفزيوني، والقنوات الســلكية (قنوات الكيبل)، والقنوات الفضائية ســوف تستمر في الهيمنة على الساحة العامة. ونتيجة لذلك، سيظل المرشحون وقادة حركات الإصلاح مطالبين بدفع أموال طائلة لقاء نَيْل امتياز التواصل مع الجماهير الشعبية بشكل فعال.

قبل إطلاق ثورة الإنترنت والحاســوب بفترة طويلة، كان تقديم وســائل الإعلام الإلكترونيــة قد بدأ بالفعل بتحويل العالم الذي شــكلته الصحافة المطبوعة. وخلال جيــل واحد، حــل التلفزيون محل الطباعــة في موقع النمط الســائد للتواصل مع الجماهــير. حتى الآن، وفي الوقت الذي لاتزال فيــه الإنترنت في أيامها الأولى، يمضي الأميركيون وقتا في مشــاهدة التلفزيون أطول من الوقت الذي يمضونه في ممارســة أي نشــاط آخر إلى جانب النوم والعمل[135]. المواطــن الأمريكي العادي الآن يمضي في مشــاهدة التلفزيون أكثر من خمس ساعات في اليوم الواحد[136]. ونتيجة لذلك، ينفق المرشح العادي للكونغرس ينفق 80 في المائة من أموال حملته الانتخابية[137] على الإعلانات التلفزيونية التي تستغرق ثلاثين ثانية.

مــن أجل فهــم الآثار المترتبة عــلى الديموقراطيــة التي تنبع مــن الهيمنة المســتمرة للتلفزيون، خذ بعــين الاعتبار الاختلافات الكبيرة بــين النظام البيئي

لمعلومات الصحافة المطبوعة والنظـام البيئي لمعلومات التلفزيون. ففي المقام الأول، كان الوصول إلى السـاحة العامة الافتراضية التي نشـأت في أعقاب ثورة الطباعة زهيد الثمن إلى درجة كبيرة، فقد كان توماس بين يستطيع عند الخروج من باب داره في فيلادلفيا أن يجد بسـهولة عدة مَحَال تجارية لبيع المطبوعات المنخفضة التكلفة[138].

بيـد أن الوصـول إلى السـاحة العامة التي شـكلها التلفزيون مكلـف للغاية. فالمجموعة الصغيرة مـن الشركات التي تعمل بمنزلة حراس يتحكمون بالوصول إلى جماهير التلفزيون العريضة متضامنة الآن بعضها مع بعض بشكل أكبر من أي وقت مضى، ومسـتمرة في فرض رسوم مالية باهظة للحصول على هذه الخدمة. فلو مشى في العصر الحديث توماس بين إلى أقرب محطة تلفزيونية وحاول بث نسخة متلفزة من كتيب «الفطرة السـليمة»، لسخروا منه وطردوه خارج المبنى إن لم يتمكن من دفـع ثروة صغيرة لقـاء ذلك. على النقيض من ذلك، يُمنح النقـاد المأجورون الذين تعكس آراؤهم الفلسفة السياسية للشركات التي تملك معظم الشبكات التلفزيونية ساعات عديدة من البث كل أسبوع لنشر أيديولوجيتهم.

مـادام التلفزيـون التجـاري يهيمن على النقاش السـياسي، فإن المرشـحين سـيجدون أنه من الضروري اسـتجداء الأشـخاص الأثرياء والـشركات والمصالح الخاصة للحصول على مبالغ كبيرة ومتزايدة من المال بغية كسب إمكان الوصول إلى السـاحة العامة التي سـتكون ذات شـأن كبير عندما يمضي أغلبية الناخبين معظم أوقات فراغهم متسـمرين أمام شاشات التلفاز. أدى هذا الشرط، بدوره، إلى الهيمنـة الفاحشـة على صنـع القـرار في الديموقراطية الأمريكيـة من قبل المساهمين الأثرياء أنفسهم - لاسـيما مجموعات الضغط لمصلحة الشَركات. لأن قرارات المحكمـة العليا الأخيرة – وخصوصا المتعلقـة بقضية مجموعة الضغط «سـيتيزن يونايتد» (المواطنين المتَحِدين) - أسـقطت كل قرارات الحظر القائمة منذ فترة طويلة ضد اسـتخدام أموال الشركات لدعم المرشحين، فإن هذا التوجه الهـدام من المرجح أن يزداد سـوءا قبل أن يتحسـن[139]. يعتبر هذا الأمر، بكل معنى الكلمة، انقلابا بطيء الحركة للشركات يهدد بتدمير سـلامة وحسـن سير العملية الديموقراطية الأمريكية.

على الرغم من أن الأنظمة السياسية والنظم القانونية للبلدان تختلف على نطاق واسع، فإن الأدوار النسبية للتلفزيون والإنترنت متشابهة إلى درجة تثير الدهشة. ومن الجدير بالذكر أن التلفزيون في كل من الصين وروسيا يخضع لرقابة مشددة أكثر من الإنترنت[140]. في ديموقراطية بوتيمكين Potemkin التي بُنيت في روسيا في ظل حكم فلاديمير بوتين، تبنت الحكومة سياسة التسامح مع سقف أعلى للحريات وحرية التعبير عن الرأي بشكل أقوى على الإنترنت مما هو في التلفزيون. ميخائيل كاسيانوف، وهو أحد رؤساء الوزراء السابقين في حكومة بوتين (الذي كان ترشحه للرئاسة ضد ديمتري ميدفيديف، الذي اختاره بوتين بنفسه ليكون خلفا له، قد خرج عن مساره عندما أمره بوتين بسحب ترشحه للانتخابات)، أخبرني أنه عندما كان رئيسا للوزراء في ظل حكم بوتين أُعطي تعليمات واضحة بأن الجدل على الإنترنت لا يهم كثيرا مادامت الحكومة كانت تفرض رقابة مشددة على ما يُبث على شاشات التلفزيون الروسي.

بعد أربع سنوات تلت، وفي ربيع العام 2012، في أثناء حركة الاحتجاج التي أثارتها الإنترنت ضد عملية التزوير الواضحة التي مورِسَت في الجولة الأولى من الانتخابات (التي خرج في نهايتها بوتين منتصرا، كما كان متوقعا)، قال أحد المحللين الروس: «يأتي المسنون الكبار ويأتي المسنون ويأتي المسنون والجميع يدلون بأصواتهم لمرشح واحد - وهو بوتين. لماذا يصوتون لبوتين؟ شاهد التلفاز. هناك وجه واحد فقط هو وجه بوتين»[141]. وبالفعل، فإن أحد الأسباب الكثيرة وراء هيمنة التلفزيون على المشهد الإعلامي السياسي لكل البلدان تقريبا هو أن كبار السن هم من يصوتون بنسب عالية وهم في الوقت ذاته من يشاهدون التلفزيون ساعات أطول يوميا من أي فئة عمرية أخرى. في الولايات المتحدة، كبار السن الذين في عمر الخامسة والستين أو أكثر يشاهدون التلفاز، في المتوسط[142]، لفترة تقارب سبع ساعات في اليوم الواحد.

في العديد من الدول تأثرت أيضا المؤسسات المهمة لنهوض الديموقراطية ونجاتها، مثل الصحافة، إلى حد كبير بالتحول التاريخي لتكنولوجيا الاتصالات. تعاني الصحف ظروفا مالية صعبة للغاية. فقد كان في مقدورها سابقا جمع الإيرادات من الاشتراكات، والإعلانات التجارية والإعلانات المبوبة، ليس فقط لتسديد نفقات

الطباعة وتوزيع صحفها فحسـب، بل لدفع رواتب المراسـلين الصحافيين المحترفين والمحررين والصحافيين المختصين بإجراء التحقيقات الصحافية أيضا. مع ظهور التلفزيون - وخاصة مع إطلاق البرامج الإخبارية التلفزيونية المسائية - كانت الصحف التـي تصدر بعـد الظهر في معظم المدن الكبرى والتي اعتـاد الناس قراءتها[143] في منازلهم بعد عودتهم من العمل هي أول الصحف التي أشـهرت إفلاسـها. وخسارة الكميـات المتزايدة من الإعلانات التجارية لمصلحـة التلفزيون والإذاعة بدأت أيضا تضر بمصالح الصحف الصباحية. ثم، عندما هاجرت الإعلانات المبوبة بشكل جماعي إلى الإنترنـت، وعندما أدى توافـر مصادر الأخبار الإلكترونية على نطاق واسـع إلى توقف العديد من القراء عن الاشـتراك في الصحـف، بدأت الصحف الصباحية أيضا بإشهار إفلاسها[144].

في نهاية المطاف، سـتبدأ الصحافة المعتمدة على شـبكة الإنترنت بالازدهار. في الولايـات المتحدة، تصل القصص الإخباريـة الرقمية بالفعل إلى عدد أكبر من النـاس[145] يفوق عـدد الناس الذيـن يتلقونها من الصحـف أو الراديو. ولكن حتى الآن، لاتزال نسـبة عالية من الصحافة ذات الجـودة العالية المتوافرة على شـبكة الإنترنت تسـتمد مادتها من إعـادة توظيف المقالات التـي أُعدت أصلا للنـشر في الصحف المطبوعة. وهنـاك حتى الآن عدد قليل مـن نماذج الأعمال للصحافة الناشئة على شبكة الإنترنت التي تجمع الإيرادات الكافية لدعم رواتب الصحافيين العاملين في مجال التحقيقات الصحافية الضرورية لتقديم المساءلة في ظل نظام ديموقراطي.

مثلـما الصحافة ضرورية لازدهارها، فإن الديموقراطية بحد ذاتها عالقة اليوم في عصر التحول الغريب والخطِر الذي يقع بين عصر تراجع الصحافة المطبوعة والنضج الذي لايزال حديث النشـأة في الخطاب الديموقراطي الفعال على شـبكة الإنترنت. الإصلاحيون ودعاة المصلحة العامة يتواصلون بعضهم مع بعض بأعداد أكبر من أي وقت مضى على شـبكة الإنترنت، ويبحثون بكثافة غير معهودة عن سـبل لاختراق سِـحْر التنويم المغناطيسي الـذي يُخيم على الجمهور الغفير لمشـاهدي التلفزيون - يومـا بعد يـوم، وليلة بعد ليلة - بفعـل البرامج التلفزيونيـة المتواصلة والمغرية والمكلفة والغنية بإنتاجها.

بشـكل فعلي يتخلل كلّ هذه البرامج عدة مرات ضمن كل سـاعة بثٌ رسـائل إعلانيـة بارعة وجذابة لـشركات صُممت لبيع منتجاتها، وإعلانات لمسـائل خاصة بالشركات مصممة لتشـكيل الأجندة السياسـية. خلال سـنوات الانتخابات، لاسيما في الولايات المتحدة، يُغرَق أيضا جمهور التلفاز بالإعلانات السياسـية من المرشحين الذين - ومرة ثانية بسـبب اقتصاد وسيلة التلفزيون - يرزحون تحت وطأة ضغوط متواصلة وصارمة من المانحين الأثرياء وأصحاب النفوذ لتبني الأجندات السياسـية لهـذه الجهات المانحـة - ولا عجب أن تكـون هذه الأجندات منسـجمة مع تلك الأجندات الواردة في الإعلانات الخاصة بمسائل الشركات.

المصالح العامة – كالتعليم، والرعاية الصحية، وحماية البيئة، والسـلامة العامة، والحوكمـة الذاتية - لم تسـتفد بعد من الكفاءات الجديـدة للعصر الرقمي بالقدر الذي اسـتفادت منه المصالح الخاصة. كانت قوة دافـع الربح أكثر فعالية في قيادة استغلال الفرص الجديدة في العالم الرقمي. على النقيض من ذلك، فإن قدرة الجماهير في الإصرار عـلى تبنـي نماذج رقمية جديدة أكثر كفـاءة لتحقيق المصالح العامة قد اصطدمت بشـدة بعوائق تصلب النظم الديموقراطية خـلال هذه الفترة الانتقالية التي لاتزال الديموقراطية الرقمية تسعى إلى ترسيخ أقدامها فيها.

التعليم والرعاية الصحية في عالم جديد

الأزمة في التعليـم الحكومي هي خير مثال على صحة ما نقول. حضارتنا بالكاد بدأت العمليـة الضرورية لمواءمة المدارس مع التحول الجـذري في علاقتنا مع عالم المعرفة. فالتعليـم لايزال يعتمد في كثير من الأحيان على حفظ الحقائق المهمة عن ظهـر قلب. لكن في عالم أصبحت فيه الحقائق جميعها في متناول أيدينا باسـتمرار، نستطيع صرف مزيد من الوقت على تدريس المهارات اللازمة ليس لمعرفة الحقائق فحسب وإنما أيضا لمعرفة الروابط فيما بينها، وتقييم جودة المعلومات، وتمييز أنماط أكبر، والتركيز على المعاني الكامنة العميقة في تلك الأنماط. الطلاب الذين اعتادوا على التجربة الغنية والغامرة للتلفزيون، وألعاب الفيديو، ووسـائل التواصل الاجتماعي كثيرا ما يجدون تجربة الجلوس في مكاتب والتحديق في الطباشير على السبورة[146] التجربة الأقل جاذبية وإقناعا، على المشاركة التي يمرون بها خلال يومهم.

مـن الواضـح أن هنـاك إمكانات كبـيرة لتطويـر مناهج جديدة تحـوي كتبا إلكترونيـة معتمدة على حواسـيب لوحية إلكترونية ومقررات إلكترونية تشـاركية وتجريبية وتحفيزية لجميع الحواس ومعتمدة على البحث. الكتاب المدرسي الرقمي الجديـد للمؤلف إي. أو. ويلسـون المعنون «الحياة عـلى كوكب الأرض» هو مثال رائع لما يمكن أن يحمله المسـتقبل. في التعليم العالي نشـأ جيل جديد من المشاريع عالية الجودة - من ضمنها كورسـيرا، يوداسـيتي، مينيرفا، وإديكس(*) - التي بدأت بالفعل بإحداث ثورة في التعليم الجامعي وعولمته على مستوى عالمي. معظم هذه المقررات مفتوحة للجميع مجانا!

نـزف الإيرادات الحكومية على المسـتوى المحلي، ومسـتوى الولايات، وعلى المسـتوى الوطني- الناجم جزئيا عن انخفاض الأجـور وارتفاع معدلات البطالة باستمرار بفعل الاستعانة بالعمالة الخارجية والآلات في شركة الأرض وتراجع قيمة العقارات في أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية التي أشعلت فتيلها جزئيا الرهون العقاريـة الممنوحة عن طريق الحاسـوب لمقترضين لا يتمتعون بسـجل ائتماني جيد، هذا النزف يؤدي إلى انخفاضات حادة في ميزانيات التعليم الحكومي[147]، في الوقت ذاته الذي نحن فيه بأمس الحاجة إلى الإصلاحات. فضلا على ذلك، فإن تقدم السـكان في العمر في البلدان المتقدمة وتراجع نسبة أولياء الأمور للأطفال الذين في سن المدرسـة قد قلص من النفوذ السياسي الذي يتمتع به دعاة زيادة هذه الميزانيات.

على رغم اسـتمرار تراجع التمويل الحكومي للتعليم، فإن العديد من المعلمين المبدعين ومديري المدارس وجدوا طرقا لمواءمة المواد التعليمية والروتين المدرسي مع

(*) موقع كورسيرا Coursera أسسه آندرو نغ وزميلته دافني كولر من جامعة ستانفورد، ويقدم الموقع المحاضرات عبر الإنترنت باللغات الإنجليزية والإسـبانية والفرنسـية والعربية والروسـية والبرتغالية والتركية والأوكرانية والعبرية والألمانيـة والإيطاليـة، وقد تجاوز عدد مسـتخدميه عشرة ملايين مسـتخدم. يوداسـيتي Udacity أسسـه كل من سباستيان ثرون وديفيد ستيفنس ومايك سوكولسكي، ويقدم المحاضرات باللغة الإنجليزية ويصل عدد مستخدميه إلى 1.6 مليون مستخدم. مشروع منيرفا Minerva أسسه بن نلسون وانطلقت أولى محاضراته عبر الإنترنت في أغسطس 2014. وموقع إديكس Edx أسس من قبل جامعة هارفارد ومعهد ماساتشوستس للتقنية (MIT)، وتقدم من خلاله المحاضرات باللغات الانجليزية والصينية والماندارين والفرنسـية والهندية والإسـبانية، وتجاوز عدد مستخدميه ثلاثة ملايين مستخدم. [المحررة].

العصر الرقمي. تعتبر أكاديمية خان(*) أحد الإنجازات المثيرة والمبتكرة التي تقدم المساعدة للعديد من الطلاب. ومع ذلك، لم يظهر حتى الآن، في التعليم أو الصحافة على حد سواء، نموذج دائم يلقى القبول والترحيب ليحل محل النموذج الهرم والمتآكل الذي لم ينجح حاليا في تحقيق المعايير المطلوبة. ويبدو أن بعض المشاريع على الإنترنت الرامية إلى الربح- كجامعة فينيكس وجامعة أرغوسي الإلكترونية - قد استفادت من التعطش للتعليم الجامعي على شبكة الإنترنت[148] من دون تأدية واجبهم تجاه الطلاب الذين يدفعون لهم. إحدى الجامعات الإلكترونية على الإنترنت، وهي جامعة ترينيتي الجنوبية، منحت درجة إلكترونية في إدارة الأعمال لقطة اسمها كولبي نولان، التي شاءت المصادفة أن تكون ملكا لمدعٍ عام. جرت ملاحقة الجامعة قضائيا فيما بعد وصدر حكم بإغلاقها[149].

الرعاية الصحية، مثل التعليم، تكافح للتكيف مع الفرص الجديدة الكامنة في العالم الرقمي. التدخل في الأزمات، والدفع لقاء الإجراءات، والأسعار المرتفعة للغاية لقاء حفظ السجلات التي تطلبها شركات التأمين ومزودو الخدمات الأخرى لاتزال تهيمن على تقديم الرعاية الصحية. نحن لم نستثمر حتى الآن القدرة الجديدة الكامنة في الهواتف الذكية والشاشات الصحية الرقمية التي بُنيت لهذا الغرض لتتبع الاتجاهات الصحية عند كل فرد والمساعدة في القيام بعمليات التدخل السريع ذات الجدوى الاقتصادية من حيث التكلفة في الوقت المناسب، وذلك لمنع ظهور الحالات المرضية المزمنة التي تمثل معظم المشاكل الطبية[150].

من الواضح أن الإستراتيجيات المتطورة القائمة على المعلومات التي تستخدم بيانات الجينوم (الخارطة البشرية) وإجمالي البروتينات لكل فرد يمكنها أيضا تحسين النتائج الصحية بشكل كبير وبتكلفة أقل بكثير. الإستراتيجيات المتعلقة بالأوبئة- كرصد عمليات البحث الإجمالية على الإنترنت عن أعراض الإنفلونزا- بدأت في تحسين عملية تخصيص وتوزيع الموارد الصحية العامة[151]. فيما تُجرى تجارب مثيرة للاهتمام في هذه المجالات وغيرها، غير أنه ليس هناك حتى الآن ضغط شعبي مركز وفعال أو مبادرة سياسية متواصلة لتطبيق استراتيجية جديدة شاملة للرعاية الصحية مدعومة عن طريق الإنترنت. بدأت بعض شركات التأمين

(*) مؤسسة غير ربحية أسسها سلمان خان في العام 2006 لتوفير تعليم عالي الجودة للجميع. [المحررة].

في اســتخدام تقنيات اســتخراج البيانات[152] للبحث في وسائل التواصل الاجتماعي وقواعد البيانات التي جمعتها شركات التسويق من أجل إجراء تقييم أفضل لمخاطر بيع بوليصات التأمين على الحياة لأشخاص معينين. وقد وجدت اثنان على الأقل من شركات التأمين الأمريكية هذا الأسلوب ناجعا إلى درجة أنهما تنازلتا عن طلب إجراء الفحوص الطبية للعملاء المصنفين حســب ملفات بياناتهم بأنهم عملاء ذوو نســبة مخاطر متدنية[153].

إشكالية الأمن

مــع كل ما تقدمه الإنترنت مــن إمكانات مثيرة لتحســين حياتنا، لماذا خرجت النتائــج متفاوتــة جدا حتى الآن؟ قد يكون الأمر عائــدا إلى الطبيعة البشرية، فمن الشــائع بالنســبة إلينا أن نبالغ في التأكيد على الآثار الإيجابية لأي تكنولوجيا مهمة جديدة عند تقديمها واســتخدامها لأول مرة. ومن الشائع أيضا، لسوء الحظ ، أننا لا نولي سوى قدر ضئيل من الاهتمام لمخاطر التكنولوجيات الجديدة، ونقلل من شأن الآثار الجانبية غير المقصودة.

لقــد تعلمنا من التاريخ، بطبيعة الحــال، أن أي أداة – بما فيها الإنترنت الخارقة- يمكن أن تُستخدم إما للخير وإما للشر. فيما تعمل الإنترنت على تغيير الأسلوب الذي ننظــم فيه تفكيرنــا، وأيضا الطريقة التــي ننظم بها علاقاتنا بعضنــا مع بعض، فهي بالتأكيد لا تغير من الطبيعة البشرية الأساســية. وبالتالي فإن الصراع القديم الأزلي بين النظام والفوضى- وأقول جازما بين الخير والشر- سوف يتواصل لكن بأساليب جديدة.

قبل أكثر من أربعة قرون، عندما كان انفجار المعلومات الذي أحدثته الصحافة المطبوعة في بداياته الأولى، ظهرت أسطورة الدكتور فاوست للمرة الأولى[154]. يزعم بعض المؤرخين أن قصة الدكتور فاوست كانت تستند[155] إلى القصة الواقعية لممول وشريك غوتنبرغ التجاري، يوهان فوســت، الذي اتهم في فرنســا بممارســة الســحر والشــعوذة بســبب العملية الســحرية التي تمكن في الظاهر من خلالها من تكرار طباعة آلاف النسخ الكاملة من النص نفسه.

في أســطورة الدكتور فاوست، التي ظهرت في أشــكال مختلفة على مر القرون، يعقد بطل الرواية صفقة مع الشيطان تجري من خلالها مقايضة روحه لقاء الحصول

عــلى «المعرفة والملذات الدنيوية غــير المحدودة». ومنذ ذلك الحين، ومع تســارع عجلة الثورة العلمية والتكنولوجيــة، وصفت مرارا العديد من الإنجازات الجديدة، كالطاقــة النووية وتقنية الخلايا الجذعية وغيرهما، بأنها «صفقات فاوســتية»[156]. وهذا التعبير اختزال أدبي لثمن الســلطة- وهو الثمن الذي لا يكون مفهوما بشكل كامل في بداية الصفقة.

في عصرنا هذا، عندما نغير عمليات تفكيرنا لاستخدام الإنترنت (والأجهزة وقواعــد البيانات المتصلة بها) كامتداد لعقولنــا، ندخل في نوع من «صفقة فاوستية حاسوبية (في العالم الافتراضي للإنترنت)» نكسب من خلالها «المعرفة والملذات الدنيوية غير المحدودة» للإنترنت. ومع ذلك، إذا لم نحسّن ضمانات الخصوصيــة والأمــن فإننــــا قد نخاطر بقيم أغلى وأثمــن بكثير من ثروات الدنيا الفانية.

بالنســبة إلى الأفراد، فوائد هذه الصفقة - قوة متزايدة إلى حد كبير للوصول إلى المعلومــات ومعالجتها في أي مكان وزمــان، وقدرة متزايدة إلى حد كبير على التواصل والتعاون مــع الآخرين- مغرية على نحو لا يصدق. غير أن الثمن الذي ندفعه مقابل هذه الفوائد التي لا تعد ولا تحصى هو الفقدان الكبير للســيطرة على أمــن وخصوصية الأفكار والمعلومات التي نرســلها إلى هذا الجهاز العصبي الموسع. لقد تسللت عبارتان جديدتان الى معجمنا اللغوي وهما «موت المسافة» و«اختفاء الخصوصية» – وهما عبارتان مرتبطتان ارتباطا وثيقا ببعضهما البعض. تقــوم العديد من المواقع الإلكترونية بتعقب معظم مســتخدمي الإنترنت ومن ثــم ببيع معلوماتهم. يمكن للحكومة أن تقرأ رســائل البريــد الإلكتروني الخاصة من دون أمر قضــائي[157]، ومن دون تصريح، ومن دون إخطار. كما أن القرصنة أصبحت سهلة ومنتشرة على نطاق واسع.

وقد أبرمت الشركات والحكومات الصفقة الفاوســتية الحاســوبية نفســها على الإنترنت. ومثل الأفراد، بدأت هذه الشركات والحكومات في إدراك فداحة ثمن الأمن الحاســوبي الذي من الواضح أنه يجب أن يُدفع بشــكل مستمر. وكي نكون واضحين فإن الجميع متفقون فعليا بشــأن مكاســب هــذه الصفقة من الكفــاءة، والقوة، والإنتاجيــة، والراحة التي تصاحب هذا التغيير الثــوري في بنية اقتصاد المعلومات.

لكــن ما هو ليس واضحا حتى الآن هو كيف يمكن للعالم حل- أو على الأقل إدارة- المخاطر الجديدة التي تهدد الأمن والخصوصية المرافقة لهذا التحول.

شركات الإنترنــت والبرمجيات ذاتها تعقد الصفقة نفســها أيضا، بتحول تاريخي وضخــم مــن البرمجيــات، وقواعد البيانــات، والخدمــات المتوافرة داخــل أجهزة الحاســوب ذاتها إلى «الســحابة» - ما يعني، في جوهره، الاستخدام عن بعد لشبكة الإنترنــت والخوادم وقواعد البيانات المتصلة بها كامتــدادات للذاكرة، والبرمجيات، وقوة المعالجة التي كانت في الأســاس موجودة داخل كل حاسوب. الاعتماد المتزايد على الســحابة يخلق نقــاط اختناق جديدة محتملة[158] قــد تكون لها مضاعفات عــلى كل من أمن البيانات وموثوقية الخدمــة. في أواخر العام 2012، خسرت عدة شركات معروفــة للإنترنت في الولايات المتحدة التي تعتمد على خدمات الســحابة التي يوفرها موقع أمازون دوت كــوم Amazon.com عمولاتها عندما أدت بعض المشاكل إلى إغلاق مراكز البيانات لموقع أمازون في ولاية فرجينيا.

يضــع التحــول التاريخي في العالم على شــبكة الإنترنــت أمامنا مجموعة مــن المعضلات المتأصلة في إنشــاء جهاز عصبي على نطــاق الكوكب يربطنا جميعا بالدماغ العالمي. نشــأت بعض هذه المعضلات لأن المعلومات الرقمية الآن مُدركة – ومُقيمــة- باعتبارهــا المــورد الاســتراتيجــي الرئيــس في القــرن الحادي والعشرين.

على العكس من اليابســة، فإن ركاز الحديد، أو النفــط، أو المال، أو المعلومات هــي موارد يمكن بيعها أو وهبها وتبقــى مع ذلك تمتلكها. قيمة المعلومات غالبا ما تزداد بازدياد عدد الأشــخاص الذين يتشــاركون بها، لكن يمكن في كثير من الأحيان فقــدان القيمة التجارية عندما يفقد صاحبها الأصــلي الحقوق الحصرية. إن قانون براءات الاختراع وحقوق الطبع والنشر ينص في جوهره على حل ذلك التوتر وتعزيز المصلحة العظمى لأكبر عدد ممكن، وذلك انســجاما مع مبادئ العدالة والإنصاف. يستحق أي مخترع لخوارزمية جديدة أو مكتشف لمبدأ جديد في الكهرومغناطيسية أن يُكافــأ - جزئيا لتوفير حوافز للآخرين للحذو حذوهم في تحقيق إنجازات مماثلة - لكن المجتمع برمته يســتحق أيضا أن يســتفيد من التطبيق الواسع النطاق لهذه الاكتشافات الجديدة .

وقد زادت حدة هذا التوتر الكامن بفعل التحول الذي أصاب العالم على شبكة الإنترنت. غالبا ما يستشهد الناس بقول أحد رواد الفكر التكنولوجي القدامى، ستيوارت براند، الذي قال إبان السنوات الأولى لظهور شبكة الإنترنت، «المعلومات تريد أن تكون مجانيةَ». لكن ما قاله في واقع الأمر هو، «من جهة، المعلومات تريد أن تكون باهظة الثمن، لأنها ذات قيمة كبيرة»، وأضاف قائلا «من جهة أخرى، المعلومات تريد أن تكون مجانية، لأن تكلفة الحصول عليها تتراجع وتنخفض شيئا فشيئا على الدوام. لذلك تجد أمامك هذين الأمرين يتصارعان أحدهما ضد الآخر»[159].

نظرا إلى أن المعلومات الرقمية أصبحت إستراتيجية جدا في عمليات شركة الأرض، فإننا نشهد صراعا عالميا متعدد الجوانب حول مستقبل الإنترنت، في جبهات قتال منتشرة في جميع أنحاء العالم المتداخل بعضه مع بعض في مجال السياسة والسلطة، والتجارة والصناعة، والفن والثقافة، والعلوم والتكنولوجيا:

• بين أولئك الذين يريدون المعلومات أن تكون مجانية، وآخرون يريدون السيطرة عليها وتبادلها مقابل الثروة أو السلطة؛

• بين أولئك الذين يريدون أن يكون الناس أحرارا وأولئك الذين يريدون التحكم في حياتهم؛

• بين الأفراد الذين يتقاسمون المعلومات الخاصة بحرية على شبكات التواصل الاجتماعي وآخرون ممن يستخدمون تلك المعلومات بطرق غير متوقعة وبطرق مؤذية أحيانا؛

• بين الشركات على شبكة الإنترنت التي تجمع من دون تمييز كميات هائلة من المعلومات عن عملائها والعملاء الذين يقدرون خصوصيتهم عاليا؛

• بين مراكز التميز السلطوية التي احتلت مناصب متميزة في النظام القديم للمعلومات التي تنهار الآن وتظهر مكانها مراكز جديدة للسلطة غير المكتملة التي تسعى جاهدة لكي تحتل موقعا لها في النمط الجديد الذي يكافح للظهور؛

• بين الناشطين activists (والقراصنة hacktivists) الذين يقدرون الشفافية والأمم والشركات التي تقدر السرية؛

• بين الشركات التي تعتمد نماذج عملها على القدرة على حماية الملكية الفكرية الموجودة في أجهزة الحاسوب المتصلة بالإنترنت والمنافسين الذين يسعون إلى سرقة تلك الملكية الفكرية من خلال استخدام أجهزة حاسوب أخرى متصلة أيضا بشبكة الإنترنت؛

• بين نية مجرمي العالم الافتراضي للإنترنت في استغلال أهداف جديدة غنية في تدفقات الثروة والمعلومات على الإنترنت ومنظمات إنفاذ القانون التي تهدد إستراتيجياتها لوقف جرائم العالم الافتراضي للإنترنت في بعض الأحيان بتدمير الحدود التاريخية التي جرى كسبها بشق الأنفس بين المجالات التي يحتلها الأفراد والرغبة العرضية لحكوماتهم في غزو تلك المجالات الخاصة.

إشكالية تحول العالم إلى شبكة الإنترنت هي أمر أكثر خطورة لأن كل هذه الصراعات تحدث في آن واحد على نفس شبكة الإنترنت المشتركة بين الجميع. ولا عجب أن تسهم على نحو متكرر المعالجات المقترحة لحل المشاكل في مجموعة واحدة من الصراعات، في تعطيل إمكانات الجهود الرامية إلى حل المشاكل في مجموعات أخرى من الصراعات.

تُشكل المقترحات التي تدعو إلى اتخاذ تدابير لإلغاء إخفاء الهوية (الأسماء المستعارة) على شبكة الإنترنت من أجل حماية أمن العالم الافتراضي ومكافحة الجريمة على الإنترنت تهديدا خطيرا لقدرة المعارضين في الدول الاستبدادية على اقتراح الإصلاحات والتواصل مع الآخرين الذين ينشدون التغيير في حكوماتهم. وفضلا عن ذلك، فإن حلم الإصلاحيين بأن تؤدي شبكة الإنترنت العالمية بشكل حتمي إلى التغيير العالمي المنشود في تحقيق مزيد من الحريات للأفراد، بغض النظر عن أماكن عيشهم ، يدب الرعب في قلوب الحكام المستبدين .

حتى في البلدان الحرة، النشطاء الذين يكشفون المعلومات التي تحاول الحكومات إخفاءها والمحافظة على سريتها غالبا ما يشعلون فتيل اتخاذ هذه الحكومات إجراءات تدخلية جديدة لزيادة حجم المعلومات التي تجمعها عن المواطنين. عندما نشرت منظمة ويكيليكس، التي يديرها أسترالي يعيش في السويد على خوادم مقرها السويد، وأيسلندا، وربما أماكن أخرى[160]، معلومات مسروقة من حكومة الولايات المتحدة، فإن حملة المداهمة التي أعقبت ذلك أثارت غضب

القراصنة الآخرين الذين اخترقوا بعد ذلك عددا من المواقع الإلكترونية التابعة لحكومات وشركات[161] أخرى حول العالم.

لأن الإنترنت تتخطى الحدود الوطنية، فإنها تقلل من قدرة الدول القومية على إدارة هذه الصراعات من خلال القوانين واللوائح التي تعبر عن القيم في كل أمة (أو على الأقل قيم الحكومات في السلطة). لقد تمكنت مجموعات مستقلة من القراصنة[162] من اختراق المواقع التي يسيطر عليها مكتب التحقيقات الفدرالي، ووكالة الاستخبارات المركزية، ومجلس الشيوخ الأميركي، ووزارة الدفاع (البنتاغون)، وصندوق النقد الدولي، والموقع الرسمي لحكومة الفاتيكان، والإنتربول، ومنزل رئيس الوزراء البريطاني في 10 داوننغ ستريت في لندن، ووزارة العدل البريطانية، ووكالة ناسا (حتى إنهم اخترقوا برمجيات المحطة الفضائية وهي تدور حول الأرض). عندما أجرى مكتب التحقيقات الفدرالي مكالمة سرية مع مركز استخبارات سكوتلانديارد لبحث كيفية الرد على مثل هذه الهجمات، سجّل القراصنة تلك المكالمة وبُثت على شبكة الإنترنت[163]. عندما تُبث المكالمات الخاصة للممرضة راتشيد(*) وهي تتحدث عن الأمن وتصبح في متناول الجميع ليسمعها، فإنه من الواضح أن المرضى يحتلون مساحة كبيرة من مصحة الإنترنت ليستمعوا لتلك المكالمات.

لقد تجلت الصعوبة القصوى في حماية أمن العالم الافتراضي على الإنترنت بشكل واضح عندما جرى اختراق شركة إيغان ومارينو (EMC) بهجوم إلكتروني جرى تدبيره على ما يعتقد في الصين[164]، وهي شركة لحماية أمن المعلومات التكنولوجية يستخدمها كل من وكالة الأمن الوطني، ووكالة الاستخبارات المركزية، ووزارة الدفاع (البنتاغون)، والبيت الأبيض، ووزارة الأمن الداخلي، إضافة إلى العديد من وكالات الدفاع الرائدة. وكان نظام الأمن في شركة إيغان وماريننو (EMC) يعتبر من أكثر الأنظمة تطورا في حماية أجهزة الحاسوب المتصلة بشبكة الإنترنت- ولهذا السبب بالطبع كانت تستخدمه المنظمات التي كانت في أمس الحاجة إلى حماية بياناتها الرقمية. ولم يُكشف بعد عن حجم المعلومات الحساسة التي سُرقت في تلك العملية، غير أن هذا الهجوم الإلكتروني كان بمنزلة نداء للاستيقاظ من غفوتنا.

(*) Nurse Ratched هي الشخصية الشريرة المتسلطة من رواية كن كيسي «أحدهم طار فوق عش المجانين» One Flew Over the Cuckoos Nest، الذي تحول إلى فيلم سينمائي شهير بالاسم بنفسه. [المحررة].

في العـام 2010، أطلـق وزير الدفـاع الأمريكي روبرت غيتس تسـمية «المجال الخامس» على الفضاء الإلكتروني للصراع العسكري المحتمل[165] - إلى جانب الصراع الـبري والبحري والجـوي والفضائي. في العـام 2012، قال اللـواء البحري صامويل كوكس، مدير الاسـتخبارات في القيادة الأميركية للفضاء الإلكتروني (التي أنشـئت في العام 2009) أننا نشـهد الآن «سباق تسـلح عالمي في الفضاء الإلكتروني»[166]. فيما ذكـر خبراء آخرون أنـه في هذه المرحلة من تطور تكنولوجيـا الأمن الإلكتروني فإن الهجوم يتفوق على الدفاع[167].

إن حماية سرية الاتصالات المهمة تشكل دائما نوعا من النضال. وقد ذُكر ذلك لأول مرة على لسـان «أبي التاريخ»، هيرودوتس، في وصفه لـ «الكتابة السرية» التي قال إنها كانـت وراء انتصار اليونانيـين في معركة تيرموبيلاي، التي حالت دون سـقوط اليونان القديمة في يد الفُرْس[168]. شهد أحد اليونانيين الذين كانوا يعيشون في بلاد فارس اسمه ديمارتوس التحضيرات التي كان يقوم بها ملك فارس، أحشـويروش (خشايار)، استعدادا لشن هجوم مُباغت على اليونان وأرسل تحذيرا مخفيا بشكل متقن إلى إسبارطة. ولاحقا إبان الحرب ذاتها، حلق أحد القادة اليونانيين شـعر رأس رسوله وكتب على فروة رأسه الرسـالة التي كان ينوي إيصالها، ومن ثم «انتظر إلى أن نما الشعر من جديد»[169]. من اسـتخدام «الحبر السري» في العصور الوسـطى إلى اسـتخدام ألمانيا النازية لآلة إنيغما خـلال الحـرب العالمية الثانية، كان في كثير من الأحيان يعـود الفضل في بقاء الأمم إلى التشفير بمختلف أشكاله[170] الذي كان يعتبر أحد العوامل الحاسمة في تحقيق ذلك.

السرعـة التي انتشرت بها الإنترنت زادت مـن صعوبة المهمة الملقاة على عاتق مصمميهـا الأصليين في إصلاح الخلل الناجم عن فقدان صيغة تشـفير آمنة بالفعل - والتي أدركوا بسرعة منذ الأيام الأولى لظهور الإنترنت أنها تعتبر مشـكلة هيكلية. وقال في ذلك فين سيرف: «النظام مُنفلت الزمام إلى حد ما»[171] (*).

(*) لقـد تجلى سـلفُ الإنترنت في العـام 1969، عندما جرى في 29 أكتوبر إرسـال أول اتصـال خارجي بين أجهزة الحاسـوب من جامعة كاليفورنيا UCLA إلى معهد ستانفورد للأبحاث SRI في منطقة مينلو بارك في كاليفورنيا. ومن ثم قامت لاحقا وزارة الدفاع بتطوير شـبكة وكالة مشـاريع الأبحاث المتقدمة ARPANET كوسـيلة لضمان عدم انقطاع الاتصالات بين الوحدات العسـكرية النائية، والتواصل مع مسـتودعات منصات الصواريخ الباليستية العابرة للقـارات في أعقـاب أي ضربة نووية محتملة يقوم بها الاتحاد السـوفييتي. ومع ذلك، فإن أول وصف لـ «الإنترنت» المبنية على بروتوكول التحكم في الإرسال IP / TCP ظهر في شهر مايو لعام 1974 في ورقة بحثية كتبها فينت سيرف وبوب كان، وأقيم أول عرض لثلاث شبكات في 22 نوفمبر من العام 1977. وقد حدث الإطلاق التشغيلي الرسمي ←

مــن الممكن نظريا تطوير وســائل حماية جديدة وأكثر فعاليــة لأمن البيانات المتدفقــة على الإنترنت، ويعمل العديد من المهندســين وعلماء المعلومات على حل هذه المشــكلة. ومــع ذلك، فإن السرعة التي تكيفت بهــا شركة الأرض مع الإنترنت والتحمت معها جعلت كلا من الصناعة والتجارة تعتمد بشــكل بالغ على التصميم الحــالي إلى درجة أن أي محاولة لتغيير تصميمها بشــكل جذري ســتكون محفوفة بالمصاعــب. كــما أن درجة التغيير التي طــرأت على حياة مليــارات البشر اليومية للتكيف مع الاســتخدام المتواصل للإنترنت ســوف تزيد من صعوبة الجهود الرامية إلى إحداث تغيير جذري في تصميمها.

خلصــت شركة ماكينزي للاستشــارات الإدارية العالمية، في تقرير لها صدر أخيرا، إلى أن أربعة اتجاهات تلاقت بعضها مع بعض لخلق مشكلة الأمن الإلكتروني[172]:

• لا تزال القيمة تواصل هجرتها إلكترونيا والبيانات الرقمية أصبحت مُخْترقة أكثر.
• مــن المتوقــع الآن أن تصبح الشركات أكــثر «انفتاحا» من أي وقت مضى.
• سلاســل شركات التوريــد أصبحت أكثر ترابطــا فيما بينها على نحو متزايد.
• الجهات الشريرة المؤذية أصبحت أكثر تطورا.

ونتيجــة لذلك، أنتــج هذا التحول الجــذري في الاقتصــاد العالمي ما يصفه معظــم الخبراء بالخطر الجســيم للأمن الإلكتروني الذي يهــدد جميع الشركات تقريبا التي تســتخدم الإنترنت كجزء من اســتراتيجية أعمالها الأساســية. يتجه

← للإنترنــت في 1 ينايــر من العام 1983. التمويل الحكومي لعرض الشــبكة التي تربط أجهزة الحاســوب العملاقة - الشــبكة الوطنية للبحوث والتعليم - كرر النمط المتبع في أربعينيات القرن التاســع عشر، عندما أظهر عرضا مُمولا حكوميا لاختراع صموئيل مورس، التلغراف، القدرة على إرسال رسالة من واشنطن إلى بالتيمور: وهي عبارة «ماذا صنع الله ؟» (مورس كان قد تلقى الرسالة الأولى فعلا قبل سبع سنوات وعلى مسافة ثلاثة أميال في نيو جيرسي- وهي العبارة الأقل إلهاما والأقل تذكرا «النادل الحليم لن يكون خاسرا»). ولد عصر الاتصال الإلكتروني «الفوري». بعد خمســة أيام، أجري أول عرض علني للتلغراف على خط بمســافة الميلين نفسها أمام حشد جماهيري صغير والرسالة التي كتبت فيها شددت على أهمية هذا الاختراع الجديد للتجارة : «وصلت عربات القطار من فورها، وعلى متنها 345 راكبا». وفي 24 مايو من العام 1876، بعد أقل من اثنين وثلاثين عاما على العرض العام للتلغراف، عرض ألكسندر غراهام بيل لأول مرة القدرة على إرسال الاتصالات الصوتية عبر الأسلاك الكهربائية برسالته «السيد واتسون، تعال إلى هنا؛ أريد أن أراك».

الاهتمام بصفة خاصة نحو التركيز على ما يبدو أنه جهد حثيث ومُنظم للغاية تقوم به بعض المنظمات في الصين لسرقة المعلومات الفائقة الحساسية لدى الشركات، والوكالات الحكومية، والمنظمات[173] التي لها روابط مع إحدى هاتين الشريحتين أو مع كلتيهما.

هناك افتراض طويل الأمد بأن تقوم وكالات الاستخبارات الأمريكية بعمليات مراقبة للحكومات الأجنبية، بما في ذلك المراقبة عبر أدوات العالم الافتراضي للإنترنت للحصول على المعلومات من أجهزة الحاسوب إذا كان لديها دافع قوي إلى الاعتقاد بأن أمن الولايات المتحدة في خطر. ما هو مختلف حول الجهد الصيني الظاهر هو أنه لا ينساق بفعل المخاوف الاستخباراتية القومية والعسكرية فحسب، وإنما بفعل الجهد الاقتصادي السياسي لتحقيق الفائدة لمصلحة الشركات التجارية الصينية. «هناك فرق كبير»، على حد قول ريتشارد كلارك، القيصر السابق المسؤول عن مكافحة الإرهاب. «نحن لا نخترق شركة حاسوب صينية مثل شركة هواوي Huawei ونكشف أسرارها التكنولوجية لشركة سيسكو الأمريكية Cisco المنافسة لها. نحن لا نفعل ذلك»[174].

لا شك في أن الشركات الأمريكية تتعرض بانتظام وبشكل متواصل لعمليات القرصنة. يشير البحث الذي نشره أخيرا معهد أسبن إلى أن الاقتصاد الأمريكي يفقد أكثر من 373 ألف وظيفة كل سنة - و16 مليار دولار خسائر في الإيرادات - من جراء سرقة الملكية الفكرية[175]. أفاد شون هنري، أحد كبار المسؤولين السابقين في وحدة الجرائم الإلكترونية في مكتب التحقيقات الفدرالي، في تقرير له بأن إحدى الشركات الأمريكية مُنيت بخسارة تساوي عشر سنوات من البحث والتطوير - وتقدر قيمتها بمليار دولار- في ليلة واحدة[176].

قال المدير السابق للاستخبارات الوطنية مايك ماكونيل أخيرا، «عند النظر في أنظمة الحاسوب ذات الأهمية- في الحكومة، والكونغرس، ووزارة الدفاع، والفضاء، والشركات التي لديها أسرار تجارية قيمة- لم نجد أيا منها بعد لم يتعرض[177] لتهديد متطور ومتواصل». أدلت إدارة المخابرات السرية الأمريكية في العام 2010 بشهادة مفادها أن «ما يقرب من أربعة أضعاف كمية البيانات[178] التي جرى جمعها في محفوظات مكتبة الكونغرس» كانت قد سرقت من الولايات

المتحـدة. وأفاد مدير مكتب التحقيقات الفدرالي بأن الأمن الإلكتروني سيتفوق قريبا على الإرهاب: «إن تهديد العالم الافتراضي على الإنترنت سيكون التهديد رقم واحد لهذا البلد»[179].

ذكرت شركة أمن رقمية أخرى، اسـمها مكافي McAfee، في تقرير لها أن سلسلة الهجـمات (الاختراقات) الإلكترونية التي شـنت في العام 2010 (في عملية سُـميت «شـيدي رات Shady RAT») أدت إلى التسـلل إلى أنظمـة الكمبيوتر التي تتمتع بدرجـة عالية من الأمان ليس فقط في الولايات المتحـدة وحدها، وإنما أيضا في كل من تايوان، وكوريا الجنوبية، وفيتنام، وكندا، واليابان، وسـويسرا، والمملكة المتحدة، وإندونيسـيا، والدنمارك، وسنغافورة، وهونغ كونغ، وألمانيا، والهند، واللجنة الأولمبية الدولية، وثلاث عشرة شركة من شركات المقاولة المتعاقدة مع وزارة الدفاع الأمريكية، وعدد كبير من الشركات الأخرى[180] - لا يوجد أي منها في الصين.

لكن الولايات المتحدة- باعتبارها الدولة التي أصبحت تجارتها إلكترونية أكثر من أي بلد آخر- هي الأكثر عرضة للخطر. أبلغ مكتب التحقيقات الفدرالي غرفة التجارة الأمريكية أن بعض خبرائها في السياسـة الآسـيوية الذين يزورون الصين بانتظام قد تعرضـوا للقرصنـة، لكن قبل أن تتمكـن الغرفة من تأمين موقعهـا الإلكتروني على الشبكة، كان القراصنة قد قاموا بسرقة رسائل البريد الإلكتروني على فترة ستة أسابيع بـين الغرفة[181] ومعظم الـشركات العملاقة في الولايات المتحـدة. بعد ذلك بفترة طويلة اكتشـفت الغرفة أن إحدى الطابعات المكتبية لديها ومُنظمة أخرى في شقة لإحدى الشركات كانت لاتزال ترسل المعلومات عبر الإنترنت إلى الصين[182].

فضـلا عـلى الطابعات والمُنظـمات، تتصـل الآن مليارات الأجهـزة الأخرى بإنترنت الأشـياء، بـدءا من الثلاجات، والأضـواء، والأفران، ومكيفـات الهواء في السيارات والشـاحنات والطائرات والقطارات والسفن وصولا إلى النظم الدقيقة المدمجـة داخل آلات المصانـع وإلى الحزم الفردية التي تحتـوي على المنتجات التي تنتجها[183]. حتى إن بعض مزارعي الألبان في سـويسرا ربطوا[184] الأعضاء التناسـلية لأبقارهـم بالإنترنت عن طريق جهاز يرصد دوراتها الوداقية ويرسـل رسـالة نصية عندما تكون البقرة جاهزة للتناسل، «التراسل الجنسي» بين الأنواع (على غرار التراسل النصي بين البشر)».

مـن الواضح أن شـيوع إنترنت الأشـياء وأهميتهـا زاد مـن إمكانية الهجمات الإلكترونية ليس فقط في تشـكيل مخاطر على أمـن المعلومات المهمة ذات القيمة التجارية، والاستخباراتية، والعسكرية، وإنما يمكن أن تكون لها أيضا تأثيرات دينامية. مع وجود عدد كبير الآن من أجهزة الحاسـوب المتصلـة بالإنترنت والتي تتحكم في نظم شـبكات المياه والكهرباء، ومحطات الطاقة، ومصافي التكرير، وشبكات النقل، والنظـم المهمة الأخرى، فإنه ليس من الصعب اسـتحضار سـيناريوهات يمكن من خلالها لأي هجوم منسـق على البنية التحتية الحيوية للأمة أن يتسـبب في إحداث أضرار مادية جسيمة.

وفقا لجـون برينان، الموظف في البيت الأبيض والمسـؤول عـن ملف مكافحة الإرهـاب، «في العام المـاضي [2011] وحده كان هناك ما يقـرب من 200 محاولة معروفـة أو اختراقات إلكترونيـة ناجحة لأنظمة التحكم التـي تدير هذه المرافق، وهي زيادة تشـكل خمسـة أضعاف تقريبا ما حدث في 2010»[185]. في ربيع العام 2012، أعلنت إيران أنها اضطرت إلى قطع اتصالات الإنترنت لمحطات النفط الرئيسة على الخليج، والمنصات النفطية، ومكاتب وزارة النفط في طهران بسـبب الهجمات الإلكترونيـة المتكررة من مصدر مجهـول[186]. في وقت لاحق من ذلك العام، كانت شركة النفط السـعودية المملوكة للدولة، أرامكو، ضحية للهجمات الإلكترونية[187] التي كان المسؤولون الأمنيون الأمريكان شبه متيقنين أن مصدرها إيران، التي أعلنت في العـام 2011 أنها أنشـأت «هيئة إلكترونية» عسـكرية خاصـة بعد أن تعرضت واحدة من منشـآتها النووية لتخصيب اليورانيـوم، في نطنز إلى هجوم فيروسي عن طريق الحاسـوب. الهجـوم الذي تعرضت له شركة أرامكو السـعودية[188]، والذي اسـتبدل كل البيانات الموجـودة على 75 في المائة من أجهزة الحاسـوب في الشركة بصورة للعلم الأمريكي وهو يحترق، بين، على حد قول القيصر السـابق المسؤول عن ملف مكافحة الإرهاب القومي ريتشـارد كلارك، أنـه «يجب ألا تكون متطورا لكي يحدث الكثير من الضرر».

دودة الحاسـوب ستكسـنت Stuxnet، التي من المرجـح أن تكون إسرائيل والولايات المتحدة قد أطلقاها بالتنسـيق فيـما بينهما، وجدت ضالتها- كما كان مخططـا لهـا - في نظام تحكم صناعـي صغير لشركة سـيمنز متصل بالمحركات

التي تعمل على تشغيل أجهزة الطرد المركزي للغاز الإيراني التي كانت تخصب اليورانيوم[189] كجزء من برنامجها النووي. وعندما تأكدت دودة ستكسنت من أنها أصبحت داخل القطعة المعينة في الجهاز التي كانت تبحث عنها، شغّلت نفسها تلقائيا وبدأت في تغيير سرعات المحركات التي تسير أجهزة الطرد المركزي الإيرانية وإزالة التزامن بينها، ما تسبب في انفصالها بعضها عن بعض وتحطمها. في العام 2010 ، ذكرت تقارير أن دودة برمجيات أخرى أكثر تطورا، تدعى فليم (اللهب) Flame، والتي قال محللون عنها إنها «قزمت دودة ستكسنت» من حيث حجم الرموز (التعليمات البرمجية) التي كانت تحتويها، بدأت بإصابة أجهزة الحاسوب في إيران والعديد من الدول الأخرى[190] في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

على الرغم من أن نتيجة الهجوم بدودة ستكسنت، التي أبطأت مسيرة الجهود الإيرانية الرامية إلى تطوير مواد للأسلحة النووية، قد لاقت ترحيبا واسعا في معظم الأوساط الدولية، أعرب العديد من الخبراء عن قلقهم من أن الرمز المتطور المستخدم في العملية - الذي جرى تحميل معظمه الآن على الإنترنت- يمكن أن يُستخدم لشن هجمات مدمرة ضد النظم والآلات المتصلة بالإنترنت[191] في الدول الصناعية. وقد أصيب بالفعل بشكل غير مقصود بعضها بدودة ستكسنت[192]. بعد موجة من الهجمات الإلكترونية ضد المؤسسات المالية في الولايات المتحدة في أواخر العام 2012 التي اتهم بها مسؤولون أمنيون إيران بأنها تقف وراءها، حسب اعتقادهم، حذّر وزير الدفاع الاميركي بشكل علني من أن «هجوم بيرل هاربر(*) الإلكتروني على ميناء بيرل»[193] يمكن أن يلحق ضررا جسيما في البنية التحتية للولايات المتحدة.

بما أن فيروسات الحاسوب والديدان وغيرها من التهديدات يمكن إعادة إرسالها من خوادم بعيدة المدى تقع في أي بلد تقريبا حول العالم، فإنه من المستحيل في كثير من الأحيان تحديد المصدر الأصلي للهجوم فعليا. حتى عندما تشير الأدلة الظرفية بشكل قاطع إلى بلد ما - كالصين مثلا

(*) إشارة إلى الغارة الجوية التي نفذتها البحرية اليابانية على الأسطول الأمريكي في ديسمبر 1941، والتي دخلت أمريكا على إثرها الحرب العالمية الثانية. [المحررة].

- فإنه من الصعب تحديد المنظمة أو الأفراد داخل ذلك البلد المسؤولين عن الهجوم، فضلا عما إذا كانت الحكومة الصينية أو شركة محددة أو مجموعة هي المسؤولة في نهاية المطاف. وفقا لسكوت أكين، أحد العملاء السابقين في الاستخبارات المضادة والخبير في جرائم الإنترنت: «في معظم الحالات، لا تدرك الشركات أنها نُسخت إلا بعد سنوات من ذلك عندما تعرض شركة أجنبية منافسة لها المنتج نفسه خاصتها - وإنما بسعر أرخص بـ 30 في المائة»[194].

فيما يبدو ظاهريا أن المنظمات في الصين هي التي تحتل المرتبة الأولى في هذه الفئة من المخالفات، فإن عددا كبيرا من الشركات الغربية قد شارك في أنشطة مماثلة ضد الشركات المنافسة لها. جرى اكتشاف أن قسما من الشركات الإخبارية المنخرطة في مجال عرض الإعلانات الخاصة بمراكز التسوق قام بقرصنة رسائل البريد الإلكتروني الخاصة بإحدى الشركات الرئيسة المنافسة لها من أجل سرقة الملكية الفكرية ومن ثم سرقة بعض كبار عملائها[195]. واعترف قسم آخر من الهيئات الإخبارية بقرصنة رسائل البريد الإلكتروني للأفراد بغية جمع معلومات للقصص الإخبارية التي يعرضونها[196]. كما أقر عدد من الموظفين في شعبة إخبارية أخرى بذنبهم في اختراق البريد الصوتي[197] لآلاف الأشخاص في المملكة المتحدة.

لقد ولد الاعتماد المتواصل على الأجهزة الرقمية المتصلة بالإنترنت شعورا زائفا بالارتياح أدى إلى هشاشة معظم الاتصالات تقريبا على الإنترنت وقابليتها الشديدة للهجوم. يتفق الخبراء عموما على أن الحلقة الأضعف في أي نظام أمني هي دور السلوك البشري. لقد أثبت القراصنة المستقلون مدى سهولة اختراق اللقاءات التي تجريها شركات رأس المال الاستثماري، والمؤسسات القانونية، والشركات النفطية والدوائية - عبر الفيديو[198]، التي يُفترض أنها آمنة حتى غرفة مجلس الإدارة لبنك غولدمان ساكس- لأن الأشخاص المسؤولين عن أنظمة عقد هذه اللقاءات عبر الفيديو إما تناسوا، أو لم يعرفوا، كيفية استخدام الإعدادات المعقدة المتعلقة بالخصوصية. ترفض العديد من الشركات التجارية المستهدفة بالجرائم الإلكترونية الاعتراف بسرقة المعلومات المهمة لأن لديها مصلحة مالية[199] في إبقاء عملية

السرقة طي الكتمان. حتـى إن بعض الشركات التي وُجهت إليها تحذيرات صريحة بأنها مستهدفة فشلت في اتخاذ التدابير اللازمة لحماية أنفسها[200].

الخصوصية

تجمع الشركات الأخرى بشـكل روتيني المعلومات بشأن عملائها ومستخدميها الخاصـين[201]- غالبا مـن دون تصريح. مواقع التواصل الاجتماعي مثل فيسـبوك ومحـركات البحث مثل غوغل هـي من بين العديد من الشركات التي تعتمد نماذج عملهـا على إيـرادات الإعلانات، وبالتالي فهي تزيد مـن فعالية الإعلان إلى الحدود القصوى من خلال جمع المعلومات بشـكل متواصل عن كل مستخدم لكي تخصص الإعلانات وتفصلها بشـكل ينسـجم مع مجموعة الاهتمامات الخاصة لكل شخص على حدة[202].

تتعامـل العديـد من المواقع على شـبكة الإنترنت، في الواقـع، مع عملائها كما تتعامـل مع منتجاتها. وهذا يعني أن الإيـرادات التي تتلقاها من الملفات الضخمةُ للمعلومات بشـأن كل مسـتخدم تعتبر بكل بساطة بالنسبة إليها كنزا ثمينا لا يمكن الاسـتغناء عنه. اسـتخدام كبسـة زر «أحب like» على موقع الفيسبوك «يسمح» للموقع تلقائيا بتتبع اهتمامات المسـتخدمين على الإنترنت من دون منحهم الفرصة لإعطـاء موافقتهم[203]. بمعنى آخر، فإن هذا يعتبر تجسـيدا آخرا للصفقة الضمنية الفاوسـتية الإلكترونية. العائـد المحقق من الإعلانات المسـتهدفة بفضل كل هذه «الكوكيـز» cookies (وهـي برامـج صغيرة توضع- في الأغلب خلسـة- على جهاز الحاسـوب الخاص بالمسـتخدم في أثناء تفاعلـه مع الموقع الإلكتروني على شـبكة الانترنت) يدعم التوزيع «المجاني» لكميات ضخمة من المحتوى الثمين على شـبكة الإنترنت. يبدو أن معظم مسـتخدمي الإنترنت يشعرون بأن هذه المقايضة مقبولة. رغـم كل شيء، فإن الإعلانـات التي يتعرضون لها من المرجـح أن تكون من ضمن اهتماماتهم. إن تقنيات التتبع هي، على حد تعبير أحد المحللين، «ببسـاطة أدوات لتحسين قوة قبضة اليد الخفية»[204].

هنـاك اختلافات بين الأجيال في قبول هذه المقايضة فيما يخص مواقع التواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك وتويتر. كثيرون من أبناء جيلي، على سبيل المثال، غالبا ما

يستغربون الكم الهائل من المعلومات الشخصية التي يتشارك بها على الفيسبوك جيل الشباب الأصغر سنا. وبالفعل، فإن بعض مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي الذين تخرجوا في المدرسة لدخول سوق العمل يستغربون عندما يقوم أرباب العمل المحتملون بالوصول بشكل روتيني إلى جميع مشاركاتهم، وأحيانا يكتشفون معلومات قد لا يريد المرء بالضرورة[205] أن يعلم بها صاحب العمل المحتمل. في الآونة الأخيرة، طالب بعض أصحاب العمل المتقدمين للوظائف بأن يزودوهم بكلمة السر لدخول حساباتهم الخاصة على الفيسبوك لكي يستطيعوا أيضا الدخول إلى المواقع خاصة[206]. (أكد موقع فيسبوك، وهذا يحسب له، أن سياسته تتطلب عدم الكشف مطلقا عن الكلمات السرية للمستخدمين لأي جهة كانت[207]، وهو يطالب مستخدميه بعدم فعل ذلك أيضا. ومع ذلك، في ظل وجود ظروف صعبة في سوق العمل، يصبح الضغط لتوسيع رؤية أرباب العمل المحتملين لحياتهم على الإنترنت بشكل واضح أكثر قبولا لدى البعض من غيرهم). ومن الجدير بالذكر أيضا أنه بعد توظيف الأشخاص، يتعرض العديد من هؤلاء الموظفين إلى المراقبة الإلكترونية[208] من قبل أرباب عملهم.

تدفع الراحة القصوى التي توفرها مواقع الإنترنت بالعديد من المستخدمين إلى الشعور بأن الفقدان الإضافي للخصوصية ليس إلا ثمنا زهيدا يدفعونه. الحقيقة المتمثلة في أنني أستطيع أن أجد بالفعل كل الأعمال التجارية في ناشفيل بولاية تينيسي، حيث أعيش، وكل الأعمال التجارية في جميع أنحاء الولايات المتحدة (وفي أي بلد آخر تقريبا) هي أمر يكاد يكون سحريا بالفعل. وهذا مثال ملموس لما يسميه الاقتصاديون تأثير الشبكة - ويعنون بذلك أن قيمة أي شبكة، لا سيما شبكة الإنترنت، تزداد طردا مع ازدياد عدد الناس الذين يتصلون بها[209]. وبالفعل، وحسب قانون ميتكالف، وهو معادلة اقترحها أحد الرواد الأوائل للشبكة، روبرت ميتكالف، فإن القيمة الكامنة لأي شبكة تزداد فعليا مع تربيع عدد الناس الذين يتصلون بها[210].

وبالمثل، فإن الراحة التي توفرها برمجيات الإنترنت الملاحية - مثل برنامج رؤية الشارع على موقع غوغل - تجعل من السهل غض الطرف عن الهواجس التي تتملك البعض من جراء عرض صور لمنازلهم ومواقعها على شبكة

الإنترنــت. (إن الجمع الواضح لموقع غوغــل لكميات كبيرة من المعلومات من شــبكات الواي فاي غير المشــفرة الموجودة في المنازل والشركات التجارية التي تُصورهــا - والتي تقول إنه غير مقصود - هو مثار جدل مســتمر ومتواصل في العديد من البلدان).

يشعر كثيرون بالارتياح من حقيقة أن مئات الملايين من البشر غيرهم يواجهون المخاطر نفســها. فإلى أي درجة يمكن لذلك أن يكون ســيئا؟ معظم الناس ببســاطة لا يدركــون طبيعــة وحجم الملفات التــي تُجمع عنهم. وبالنســبة إلى أولئك الذين يدركون ذلك - ويساورهم القلق بهذا الشأن - فإنهم يكتشفون بسرعة أنه لا توجد في متناولهم أي وســيلة لمنع تعقب كل خطوة يقومون بها على الإنترنت. سياســات الخصوصيــة المكتوبة على المواقع الإلكترونية غالبــا ما تكون طويلة جدا، وغامضة، وعصيــة على الفهم، والخيارات التــي تمنحها بعض المواقع لتغييــر الإعدادات[211] تكون معقدة وصعبة للغاية.

هناك أدلة وفيرة على أن التوقعات العامة للخصوصية تتعارض إلى حد كبير مع الواقــع الجديد للتعقب الإلكتروني للناس المتصلين بشــبكة الإنترنت، ولم تصدر بعد الحماية القانونية الملائمة فيما يتعلق باســتخدام الإنترنــت. في بعض البلدان، بما في ذلك الولايات المتحدة، يمكن لمســتخدمي الإنترنت أن يختاروا عدم إرسال الإعلانات التي تعتمد على التعقب إليهم. بيد أن المســتخدمين الذين يختارون الانسحاب من التعقب بذاتــه[212] ليس بمقدورهم في الوقت الراهن القيــام بذلك. الحماية التي من المفترض أن توفر لك خيار «عدم التعقب» عديمة الفائدة عمليا بسبب الضغط المســتمر الذي تمارســه صناعة الإعلانات[213]. حتى عندما يحاول الناس الانسحاب يتواصل التعقب لسبب بسيط: هناك مبالغ طائلة من الأموال التي يمكن كسبها من وراء جمع كل المعلومات حول ما يفعله الجميع على شبكة الإنترنت. كل نقرة click تساوي جزءا ضئيلا من قيمة بنس واحد، غير أن هناك الكثير من النقرات التي تضع مليارات الدولارات على المحك[214] سنويا.

نشرت صحيفة وول ستريت جورنال سلسلة طويلة من المقالات التحقيقية حول الطريقة التي تقوم بها الكوكيز في الإبلاغ عن المعلومات حول أنشطة المستخدم على الإنترنت[215]. كل من ينقر على موقع القاموس الإلكتروني Dictionary.com يتخزن

أوتوماتيكيا في جهاز حاسوبه الخاص أو في هاتفه الذكي 234 كوكيز، ويقوم 223 منها بجمع وتقديم المعلومات حول أنشطة المستخدم على الإنترنت إلى المعلنين وغيرهم من الذين يشترون البيانات[216].

الأثـر التراكمـي لعملية تعقـب البيانات المنتشرة قد ينتـج لاحقا ردة فعل عنيفة. الكلمة الأكثر اسـتخداما من قبل مسـتخدمي الإنترنت لوصف انتشـار عمليـة التعقب على الإنترنت هي كلمة «مخيـف» creepy، على الرغم من أن الشركات التي تتعقب استخدام الناس للإنترنت غالبا ما تقول إنه لا يجري إرفاق اسـم المسـتخدم مع الملف الذي يجري تجميعه وتحديثه باستمرار، يقول خبراء إنه لا صعوبة تذكر في مطابقة أرقام الحاسوب الشخصي مع اسم وعنوان وأرقام هواتف[217] كل شخص.

مع ازدياد سرعة المعالجة في الحاسـوب، وانخفاض أسعارها، وزيادة قوتها على نحو مطرد، بدأت بعض الشركات والحكومات في اسـتخدام تكنولوجيا أكثر هجومية تُعرف باسـم التفتيـش العميق للحزمة (DPI)، الذي يجمـع «حزماً» من البيانات المرسـلة إلى أجهزة اسـتقبال الشـارات (الراوترز) المنفصلة ويعيد تجميعها لإعادة تكوين الرسائل الأصلية المرسلة، ولانتقاء كلمات وعبارات محددة في الحزم لتعليمها بغية التمعن فيها بشكل أعمق وإعادة تشكيلها. أعرب تيم بيرنرز لي، مخترع الشبكة العالمية، علانية عن معارضته لاسـتخدام تكنولوجيـا التفتيش العميق للحزمة[218] DPI ، واصفا إياها بالتهديد الخطير لخصوصية مستخدمي الإنترنت.

في أحد أكثر الأمثلة شـيوعا عن كشـف البيانات الخاصة عن طريق الحاسوب، أدين طالب يشـارك حجرته مع طالب مثلي الجنس في جامعة روتجرز لاسـتخدامه كاميرا على الشـبكة ونشر مشـاهد لزميله في الحجرة وهو في أوضاع حميمية (الأمر المحـزن في هذه القصـة، أن الطالب المثلي الجنس انتحر بعد عرض المشـاهد على النت بفترة وجيزة)[219].

تستخدم بعض المواقع، بما في ذلك الفيسبوك، برنامج التعرف على الوجه لوضع علامة على الأشـخاص بشـكل تلقائي عندما يظهرون في صور عـلى الموقع[220]. كما أن برنامج التعرف على الصوت يُسـتخدم الآن من قبل العديد من المواقع لتحديد هوية الناس عندما يتحدثون[221]. وغالبا ما تُستخدم هذه الملفات الصوتية لتعزيز

قدرة البرنامج على تعلم لهجة وأسلوب كلام كل مستخدم من أجل تحسين الدقة التي تترجم[222] فيها الآلة الاتصالات اللفظية المتعاقبة. من أجل حماية خصوصية المستخدم، تمسح بعض الشركات الملفات الصوتية بعد بضعة أسابيع، فيما تبقي غيرها من الشركات على كل حرف لُفظ على الملف إلى الأبد. وبالمثل، يستخدم العديد من البرمجيات والتطبيقات برامج تعقب من أجل تعزيز إيصال المعلومات ذات الصلة إلى موقع المستخدم بسهولة ويُسر[223]. يُقدر عدد المواطنين الأمريكيين الذين يقعون ضحية أيضا «لمطاردة نظام تحديد المواقع العالمي GPS خلسة» بـ 25 ألف مواطن سنويا[224].

بيد أن جميع هذه المعلومات - المواقع التي جرى دخولها، والمواضيع التي جرى الاطلاع عليها في كل موقع، والموقع الجغرافي يوما بيوم ودقيقة بدقيقة، وتسجيلات الأسئلة التي يطرحها المستخدمون، وصور الأشخاص حيثما وكلما ظهروا على مواقع الإنترنت، وعمليات الشراء بالبطاقات الائتمانية، ومناصب مواقع التواصل الاجتماعي، والبيانات الأرشيفية الضخمة في قواعد بيانات الحكومة التي يمكن الوصول إليها، مجتمعة يمكن أن تشكل سيرة موسوعية لحياة الشخص، بما في ذلك تفاصيل وأنماط حياتية لا يرغب معظم الناس في أن يجري جمعها حولهم. استند طالب الحقوق النمساوي ماكس شريمز البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما، إلى قانون الاتحاد الأوروبي لحماية البيانات للتقدم بطلب للحصول على جميع البيانات التي جرى جمعها عنه في الفيسبوك، وتسلم قرصا مدمجا CD يحتوي أكثر من 1200 صفحة من المعلومات، التي كان يظن أنه حذف معظمها[225]، ولا تزال القضية معلقة.

حتى عندما لا يكون مستخدمو الإنترنت متصلين بأحد مواقع التواصل الاجتماعي، ولا توجد لهم كوكيز من المواقع الإلكترونية التجارية، فهم يعانون أحيانا من الغزوات التي تشن على خصوصيتهم من قبل القراصنة الخاصين (الهاكرز) ومجرمي الإنترنت الذين يستخدمون تقنيات مثل عمليات الاحتيال المالية - التي يوظفون من خلالها رسائل مغرية عن طريق البريد الإلكتروني (التي تستخدم بشكل زائف أسماء وعناوين مختارة من قائمة معارف المستخدم) من أجل خداع الناس إلى النقر على الوصلة المرفقة التي تحتوي على برامج مخفية

مصممـــة لسرقة المعلومات من جهاز الحاســوب الخاص للمســتخدم أو الجهاز المحمول[226]. الجريمة الجديدة المعروفة باســم انتحال الشــخصية هي، بشكل جزئي، إحدى عواقب وضع جميع المعلومات الخاصة حول الأفراد[227] في متناول الجميع على شبكة الإنترنت.

مـــن خلال اســتخدام هـــذه التقنيـــات وغيرها، شـــن القراصنـــة الإلكترونيون هجمات ضد شركات ســوني، وســيتي غروب، وأمريكان إكسبريس، وموقع ديسكفر فايننشـــال، وموقع المدفوعات العالمية، وســتراتفور، وموقع T&AT، واســتثمارات فيدلتـــي، وجميع هذه الشركات أبلغت عن تكبدها خســائر فادحة نتيجة للجريمة الإلكترونية[228]. (سوني خسرت 171 مليون دولار). قدر معهد بونيمون Ponemon في العـــام 2011 أن متوســـط حجم تكاليف اختراق البيانـــات الرقمية التي تكبدتها المنظـــمات فاق 7.2 مليون دولار، مع ازدياد هذه التكلفة في كل عام[229]. حتى إن شركة نورتون لأمن أجهزة الحاسوب قدرت الكلفة السنوية للجريمة الإلكترونية على مقيـــاس عالمي بـــــ 388 مليار دولار أمريكي - «أكثر من التكلفة العالمية الســـنوية لســوق الماريغوانا والكوكايين والهيروين مجتمعـــة»[230]. كما جرى اختراق العديد مـــن الشركات الأخرى عـــبر الإنترنت، بما في ذلك موقع لينكدإيـــن LinkedIn [231] وإي- هارمـــوني eHarmony [232] وجـــي - ميـــل Gmail[233] التابع لموقع غوغل Google. في خريف العام 2012، تســـبب الهجوم الإلكتروني الذي شُـــن في آن واحد عـــلى بنك أوف أمـــيركا، وبنك جيه بي مورغان تشـــيس، ومجموعة مصارف ســـيتي غروب، وبنك الولايات المتحدة، وويلز فارغو، والبنك الإلكتروني للحسابات الشخصية على الإنترنت PNC [234]، في منع العملاء من الوصول إلى حساباتهم أو استخدامها لإجراء عمليات الدفع.

الحاجة الواضحة والملحة لحماية أكثر فعالية ضد الجريمة الإلكترونية، لا ســـيما الحاجـــة إلى حمايـــة الشركات الأمريكية ضد المخاطر الجســـيمة التـــي تهدد الأمن الإلكـــتروني التي يتعرضون لها من الصين وروســـيا وإيران وأماكن أخرى، تتزاوج مع المخاوف التي أعقبت أحداث الحادي عشر من ســـبتمبر(9/11) من حدوث هجوم إرهابي آخر لتصبح مبررا مشـــتركا لتقديم مقترحـــات جديدة يخشى كثيرون من أنها ســـتغير بشـــكل جذري من حق المواطنين الأمريكيين - والمواطنين في البلدان الأخرى

التـي تقدس الحريـة - في أن يكونوا محميين ضد عمليـات التفتيش غير المعقولة، والضبطيات، والمراقبة من قبل حكوماتهم الخاصة.

هناك سـبب يدعو إلى القلق وهو أن المشـكلة الكبرى طويلة الأجل مع الأمن الإلكتروني تتمثل في اسـتخدام الكـم الهائل من ملفات البيانـات وتقنيات المراقبة الإلكترونية لتغيير العلاقة بين الحاكم والمحكوم بشكل يشبه إلى حد كبير عالم الواقع المريـر للأخ الأكبر الذي اسـتوحاه الكاتب جورج أورويل قبل أكثر من سـتين عاما. اقترحت المملكة المتحدة، حيث نشر أورويل روايته، قانونا جديدا يُسـمح للحكومة بموجبه بتخزين الاتصـالات الهاتفية والاتصالات عبر الإنترنت[235] لجميع المواطنين القاطنين في البلاد. وقد ركّبت الحكومة حتى الآن 60 ألف كاميرا أمنية[236] في جميع أنحاء البلاد.

يتجاهل كثيرون وبشـكل صارخ المخاوف مـن أن تتحول الحكومة الأميركية إلى دولة مراقبة تتمتع بسـلطات تهدد حرية مواطنيها. قبل أكثر من سـتين عاما، كتب قاضي المحكمة العليا فيليكس فرانكفورتر: «تراكم السلطة الخطيرة لا يحدث في يوم واحد. لكنه يحدث، وإن ببطء، من القوة التي يولدها التجاهل الأعمى للقيود التي تحمي حتى تعزيز السلطة الأكثر نزاهة[237]».

يعود الفضل إلى فرانسـيس بيكون، أحد مؤسسي تحليل البيانات القائم على العقل للتوصل إلى قرارات حكيمة، في التعبير البليغ المشتق من التعاليم الإنجيلية: «المعرفـة قوة»[238]. منع تمركز السـلطة المفرطة في أيدي قلـة من الناس- من خلال تقسـيم السلطات الحكومية في مراكز منفصلة ومتوازنة بعضها مع بعض، والتي تضم معها سـلطة قضائية مستقلة - هو أحد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها جميع الحكومات الحرة والمسـتقلة ذاتيا. إذا كانت المعرفة هي في الواقع مصدرا قويا للسلطة، وإذا كانت المراكز التنفيذية والإدارية للسلطة السياسية في الحكومات تمتلك كنوزا دفينة هائلة من المعلومات حول أفكار جميع المواطنين، وحركاتهم، وأنشطتهم، عندها يمكن أن يتعرض مصير الحرية إلى الخطر.

باعتبارهـا أول دولة تأسسـت على المبـادئ التي تكرس كرامـة الأفراد، كانت الولايات المتحـدة بطرق مختلفة الدولة الأكثر اهتماما بحماية الخصوصية والحرية ضد الاختراقات المتغطرسـة من قبل الحكومة المركزية. يشـعر كثيرون في الولايات

المتحـــدة بالارتيـــاح إزاء معرفة أن أمريكا مرت عبر تاريخها بـــدورة متكررة: فترات الأزمـــات عندما تجـــاوزت الحكومة حدودها القانونية وانتهكـــت حريات الأفراد - وسرعـــان ما تلا تلك المرحلة فترة من الندم والتكفير عن الذنوب، التي جرى خلالها تدارك التجاوزات واستعادة التوازن السليم بين الحكومة والفرد.

بيد أن هناك أســبابا عدة تدعو إلى القلق من إمكانية أن تصبح فترة التجاوزات والتدخـــل التي تلـــت ردة الفعل المفهومة تجاه الهجمات الإرهابية في 11 ســبتمبر 2001، فترة انقطاع في المســـار التاريخي. ففـــي المقام الأول، وبعد 9/11، وفقا لأحد الموظفين السابقين في وكالة الأمن القومي، «بشكل أساسي جرى رمي جميع القوانين من النافذة، وأصبحوا يســـتخدمون أي عذر لتبرير عدم التنازل عن التجســـس على الأمريكيين» - بما في ذلك ممارســـة قدرتهم عـــلى التنصت على المكالمات الهاتفية في أثناء حدوثها[(239)]. وقال مســـؤول كبير سابق في وكالة الأمن القومي NSA، توماس دريك، إن التحول في السياسة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر 9/11 «بدأ في تحويل الولايـــات المتحـــدة الأمريكية[(240)] بسرعة إلى دولة مســـاوية لدولة أجنبية بســـبب الشبكة الشاملة للمراقبة الإلكترونية».

ويقدر مســـؤول ســـابق في الوكالة أنه منـــذ 9/11، قامت وكالـــة الأمن القومي باعـــتراض «ما يتراوح بـــين 15 و20 تريليونا» من الاتصـــالات[(241)]. لا يبدو أن هناك نهايـــة تلـــوح في الأفـــق «للحرب على الإرهـــاب». انتشـــار إمكانية وصـــول الأفراد والمنظمات غير الحكومية إلى أسلحة الدمار الشامل جعلت الخوف من هجوم قاتل آخر هاجســـا ثابتا في الحياة السياســـية الأميركية. حالة الطوارئ الرسمية[(242)] التي أعلنت للمرة الأولى بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، جرى تمديدها بشكل روتيني مرة أخرى في العام 2012. وأفاد الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية بأن حرية الاستفســـار عـــن المعلومات في العام 2012 أظهرت زيادة حادة في عدد الأميركيين الذين تعرضوا للمراقبـــة الإلكترونية من دون أمر قضائي يســـمح بذلك مـــن قبل وزارة العدل على مدى العامين السابقين (حتى إنه رُفضت طلبات رسمية للحصول على هذه الأوامر). وقـــال كريس ســـوغويان، التكنولوجي الرئيـــس في مشروع الخطـــاب والخصوصية والتكنولوجيـــا التابع للاتحـــاد الأمريكي للحريات المدنيـــة، «أعتقد أن هناك بالفعل شـــيئا مرعبا في الصميـــم[(243)] حول مراجعة الحكومة لســـجلات الاتصالات الخاصة

بــك، وأنت لن تعلم أبدا أنهــم كانوا يفعلون ذلك».ثانيا، تجميــع القوى في الفرع التنفيذي- على حســاب الكونغرس- تسارع بظهور سباق التسلح النووي في أعقاب الحــرب العالمية الثانية. أما الآن، فإن الخوف الســائد من هجوم إرهابي آخر يعمل بمنزلــة مبرر منيع فيما يبدو لتكوين قدرات الرقابة الحكومية التي كانت ستشــكل صدمة لمعظم الأميركيين حتى قبل بضع سنوات.

بيــد أن التاريخ يعلمنا أن الســلطات الطليقة مــن دون رقيب – عندما تُمنح - يمكن أن تُستخدم بطرق تعسفية عندما توضع في أيدي قادة لا يتمتعون بضمير حي. عندما قام الرؤســاء وودرو ويلسون وريتشارد نيكسون بانتهاكات للحريات المدنية التــي هزت ضمير الأمة، جــرى إقرار قوانين جديدة وتعهــدات للحماية ضد تكرار مثل هذه الانتهاكات. الآن، على ما يبدو، رفعت عتبة ما قد يهز ضمير الأمة بسبب الخوف. قضت المحكمة العليا في الولايات المتحدة في العام 2012، على سبيل المثال، بأن يكون للشرطة الحق في إجراء التفتيش بتعرية الشخص من ملابسه، بما في ذلك التفتيش في فتحات الجســم، بالنسبة إلى الأفراد الذين يشتبه في ارتكابهم مخالفات تافهــة مثل عدم دفع تذكرة ركن الســيارة في مواقف الســيارات، أو ركوب دراجة هوائية يوجد فيها «جرس مسموع»[244] معطل معلق على قضبان المقود. ربما كان جورج أورويل سيرفض مثل هذه الأمثلة في وصفه لسلطات الدولة البوليسية خشية أنها لن تبدو ذات مصداقية بالنســبة إلى القارئ. (ومن المهم أن نلاحظ ، مع ذلك، أن المحكمة العليا ذاتها قضت بأنه لا يحق لأقسام الشرطة دستوريا أن تضع خلسة أجهــزة تعقب لنظام تحديد المواقع الإلكترونية في ســيارات المواطنين من دون أمر قضائي من المحكمة).

في مثــال آخــر يبعث على القشــعريرة لإحدى الممارســات الجديدة الشــائعة للحكومة، التي كان من الممكن أن تثير مشاعر الغضب في السنوات الماضية، يُسمح لضباط الجمارك الآن باســتخراج ونســخ كل المعلومات الرقمية الموجودة في جهاز حاســوب مواطــن أمريكي أو أي جهاز رقمي آخر عندما يكــون عائدا إلى البلاد من رحلة خارجية[245]. رسائل البريد الإلكتروني الخاصة، وتاريخ جميع عمليات البحث، والصور الشخصية، والسجلات التجارية، وكل شيء آخر موجود في ملفات الكمبيوتر يمكن أخذها من دون وجود أي أســباب للاشتباه على الإطلاق. من السهل أن نفهم

مـا يبرر إجراء مثل هذه العمليات من التفتيش عندما يكون لدى الحكومة سـبب للاعتقاد بأن المســافر كان متورطـا في تصوير الأفلام الإباحية للأطفال، على سـبيل المثال، أو أنه كان يجتمع مع مجموعة إرهابية في بلد أجنبي. لكن عمليات التفتيش هـذه توضع الآن في خانة الإجراءات «الروتينية»، ولا يوجد سـبب معقول يتطلب السـماح بإجراء هذا التفتيـش[246]. في إحدى الحالات، كان مـن بين أولئك الذين تعرضـت معلوماتهم الرقمية للتفتيـش والمصادرة[247] من دون إظهار أي سـبب معقول لذلك مخرج أفلام وثائقية كان يحقق في بعض سياسات الحكومة الأمريكية ويثير التساؤلات حولها.

تقنيات المراقبة المتوافرة الآن - بما في ذلك رصد كل المعلومات الرقمية عمليا - تقدمت إلى درجة أن معظم مكونات الجهاز الأســاسي للدولة البوليسية لايزال قائما بالفعـل. أظهر تحقيق أجراه الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية أن أقســام الشرطة في العديد من المدن الأمريكية يحصلون الآن بشكل روتيني على بيانات تعقــب الموقع لآلاف الأفراد من دون أمر قضائي. وفقــا لصحيفة نيويورك تايمز، «لقد أصبحت هذه الممارســة تجارة كبيرة لــشركات الهاتف المحمول، أيضا، مع حفنــة من شركات النقل التي تقوم بتســويق لائحة «أتعـاب المراقبة»[248] إلى أقســام الشرطة». قدمت الحكومة الأمريكية أيضا منحا لأقسام الشرطة المحلية لتركيب كاميرات تعقب منصوبة على ســيارات الدوريات للقيام بشــكل روتيني بعمليات المســح الضوئي وتصوير لوحات كل الســيارات العابرة، ووضع بطاقات عــلى كل صورة وختــم يبين اليوم والوقت والموقع حســب نظام تحديد المواقع العالمــي GPS، ومن ثم إضافة ذلــك إلى قاعدة البيانات. وجــد التحقيق الذي أجرته صحيفة وول ســتريت جورنال أن 37 في المائة من أقسام الشرطة في المدن الكبرى مشــتركة في هذه الممارسة لجمع البيانات، التي تجمع معلومات ضخمة عن مكان وجود جميع الأشــخاص الذين يقودون السيارات في مدنهم وتحفظها في ملفات. وتوجد على الأقل اثنتان من الشركات الخاصة التي تقوم أيضا بتجميع قواعــد بيانات مماثلة عن طريق التصوير الروتيني للوحات ترخيص الســيارات وبيع هذه المعلومات لشركات استعادة الملكية. أعلنت إحدى هاتين الشركتين أن لديها 700 مليون صورة ضوئية حتى الآن. وقال الرئيس التنفيذي للشركة الأخرى

إنــه يخطط لبيع البيانات إلى المحققــين الخاصين، وشركات التأمين، وغيرهم[249] من المهتمين بتتبع مواقع الناس وروتين حياتهم اليومي.

ومنــذ 11 ســبتمبر 2001 بالتحديــد، والأعــمال تمر بمرحلة ازدهار مســتمر بالنسبة إلى الشركات المصنعة لعتاد وبرمجيات أجهزة المراقبة. فقد نما سوق هذه التكنولوجيات[250] على مدى العقد الماضي إلى ما يقدر بـ 5 مليارات دولار سنويا. ومثــل الإنترنت ذاتها، فإن هــذه التقنيات تعبر الحدود الدولية بســهولة ويُسر. الــشركات الأميركيــة هي الشركات الرئيســة المصنعة والموردة لعتــاد وبرمجيات أجهزة المراقبة والرقابة التي تســتخدمها الدول الاســتبدادية - التي تشمل إيران وسورية والصين[251].

تقنيات المراقبة التي طورتها الشركات الأمريكية في البداية من أجل اســتخدامها في مناطق الحروب غالبا ما تشــق طريقها أيضا عائــدة إلى الولايات المتحدة. تقنية الطائرات من دون طيار التي اســتخدمت على نطاق واســع في العراق وأفغانستان وباكســتان تبنتها الآن بعض قوات الشرطة المحلية - مع توقعات بأن تصبح الأجيال الجديــدة من الطائرات من دون طيار الصغيرة والمخفيــة المجهزة بكاميرات فيديو أدوات شــائعة[252] لوكالات إنفاذ القانون. اكتشــفت مؤسســة الريادة الإلكترونية من خلال دعوى وفق قانون حرية المعلومات، أنه اعتبارا من عام 2012 كان هناك بالفعل 63 موقعا نشــطا للطائــرات من دون طيار في عشريــن ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية[253].

أدى التقدم الذي تحقق في مجال الإلكترونيات الدقيقة أيضا إلى جعل استخدام الكامــيرات والميكروفونــات المخفية في غاية الســهولة. ويجري حاليا اســتخدام بعض الإصدارات المتطورة من برامج التجســس عن بعد لتشغيل الميكروفونات والكاميرات الموجودة على الهواتف الذكية أو الحواســيب للمســتخدمين خلسة بغية تسجيل المحادثات والتقاط الصور ومقاطع الفيديو من دون الحصول على إذن المستخدم أو حتى معرفته بذلك - حتى إن كان الجهاز مقفلا[254]. وبشكل مماثل، جرى أيضا استخدام الميكروفونات الموجودة في أنظمة أونستار OnStar المثبتة في العديد من الســيارات لرصد محادثات بعض المشــتبه بهم[255]. يمكن تركيب برامج أخرى خلســة لتتبع نقرات المُستخدم على لوحة المفاتيح من أجل

إعادة إنشاء كلمات السر وغيرها من المعلومات السرية في أثناء طباعتها[256] على الحاسوب أو أي جهاز آخر.

المخاطر التي تهدد الأمن الإلكتروني التي تواجهها الشركات الأمريكية - إلى جانب تهديد الإرهاب - أصبحت تُستخدم بشكل ملحوظ كمبرر جديد لبناء نظام جمع بيانات قوي وتدخلي لم يسبق أن شهد العالم مثيلا له[257]. في يناير من العام 2011، وفي حفل تدشين لهذا الصرح العملاق الجديد، الذي تبلغ تكلفته ملياري دولار في ولاية يوتا، أعلن المسؤول رفيع المستوى من وكالة الأمن القومي، كريس إنغليس، أن الهدف من وراء بناء «هذه المنشأة المتطورة الحديثة» هو «تمكين وحماية الأمن الإلكتروني في البلاد». تشمل قدرات هذه المنشأة التي يجري بناؤها هناك (والتي ستصبح جاهزة للعمل في نهاية العام 2013) القدرة على رصد جميع المكالمات الهاتفية، ورسائل البريد الإلكتروني، والرسائل النصية، وعمليات البحث على موقع غوغل Google، أو أي اتصالات إلكترونية أخرى (سواء كانت مشفرة أم لا) المرسلة من أي مواطن أمريكي وإليه. سيجري تخزين كل هذه الاتصالات إلى الأبد من أجل استخراج البيانات.

هذا النظام يشبه إلى حد مخيف اقتراحا كانت قد تقدمت به إدارة جورج بوش وديك تشيني بعد عامين من شن هجمات الحادي عشر من سبتمبر 9/11. كان الاقتراح يسمى الوعي الكامل للمعلومات (TIA)، وأثار عند طرحه موجة من الغضب العارم بين صفوف الجماهير تمخض عنه قرار من الكونغرس[258] بإلغائه. في السنوات التي تلت ذلك، أصبح السياسيون في كلا الحزبين (الديموقراطي والجمهوري) يخشون من معارضة أي اقتراح بشأن جمع المعلومات الاستخباراتية الذي يوصف بأنه لغرض الأمن القومي.

في السنوات الأخيرة، نجح الشعب الأمريكي في إقناع الكونغرس في الحد من بعض التدخلات الحكومية في خصوصياتهم. في العام 2011، وُجد أن قانون «أوقفوا القرصنة على الإنترنت» ومشروع قانون مجلس الشيوخ المرافق له «مشروع قانون حماية الملكية الفكرية» - اللذين طالبت بهما شركات الترفيه وغيرها من الشركات ذات المحتوى الإعلامي كوسيلة لحماية حقوق الملكية الفكرية لأعمالها - كانا يحتويان على صلاحيات حكومية جديدة لإغلاق المواقع الإلكترونية التي تتمتع

بشعبية بين الجماهير إذا كانت تتضمن مواد محفوظة الحقوق. أسفر الغضب الناتج عن ذلك، والحملة الإلكترونية الفعالة التي شنت ضد هذه المقترحات، عن سحب هذين القانونين[259]. ومع ذلك، فإن الغضب الذي أثاره احتمال فقدان القدرة على الوصول إلى الترفيه على الإنترنت لم يقابله غضب مماثل حول احتمال مراقبة الحكومة للاتصالات الخاصة بين الأميركيين من دون أمر قضائي.

قانون تبادل وحماية المعلومات الاستخباراتية الإلكترونية (CISPA) هو مثال على القانون الأمريكي المقترح لتمكين الحكومة من التنصت على أي اتصال عبر الإنترنت[260] إذا كان لديها سبب للاشتباه في جريمة إلكترونية. في حين أنه من السهل أن نفهم الدافع وراء هذا الاقتراح، فإن حجم الاتصالات على الإنترنت، التي يمكن أن تكون موقع شبهة في ظل الشروط الفضفاضة للقانون، يشكل بحكم الواقع استثناء للمؤسسات الحكومية من مجموعة واسعة من القوانين الأخرى التي تهدف إلى حماية خصوصية مستخدمي الإنترنت.

وهو أيضا مثال آخر على كيفية خلق الصفقة الفاوستية الإلكترونية التي أبرمناها مع الإنترنت للمصاعب في التوفيق بين المبادئ التاريخية التي تأسست عليها الولايات المتحدة والواقع الجديد للعقل العالمي. وحسب ما جاء على لسان أحد كتاب التكنولوجيا أخيرا: «إذا كانت التجربة القائمة لأميركا في مجالي الديموقراطية والحرية الاقتصادية ستصمد، فسنكون بحاجة إلى التفكير من جديد حول تهذيب العادات الضرورية لشخصية المرء ومقاومة إغراء أيديولوجية التكنولوجيا»[261]. تواجه الصين والدول الأخرى المتفانية في الحكم الاستبدادي أيضا انقطاعا تاريخيا بسبب الواقع الجديد للعقل العالمي.

كل الدول تستخدم الإنترنت وكل دولة لها أفكارها الخاصة حول مستقبل الإنترنت. الصراعات المتعددة المتداخلة المصاحبة للتحول التاريخي للعالم إلى الإنترنت بعيدة كل البعد عن الحل. ونتيجة لذلك، هناك دعوات لفرض شكل من أشكال الحوكمة العالمية عبر الإنترنت، التي كانت، منذ نشأتها، تُحكم برقة من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية (ومن قبل مجموعة شبه مستقلة أنشأتها الحكومة الأمريكية) وفقا للمعايير والقيم التي تعكس التقاليد الأميركية لحرية التعبير والأسواق الحرة القوية[262].

الحقيقــة المتمثلة في أن دولا مثل الصين وروســيا وإيران، التــي غالبا ما تكون معاييرهــا وقيمها في تضارب مباشر مع مصالح الولايات المتحدة، هي من بين الدول الرئيسة المناصرة التي تدفع باتجاه نقل السلطة على شبكة الإنترنت العالمية إلى هيئة دولية، تعتبر ســببا كافيا للتخوف من هذا الاقــتراح ولمتابعة النضال الظاهر بعناية وحــذر. من المؤســف أن البرازيل والهند وجنوب أفريقيا يســيرون على خطى[263] الصين وروسيا.

بعــض الشركات والمؤسســات الحكوميــة تعمل الآن على تطوير «شــبكات خفية» - أي شبكات مغلقة غير مرتبطة بالإنترنت - كملاذ أخير لحماية المعلومات السريــة ذات القيمة العاليــة[264]. لقد تبنت بعــض شركات الإنترنت - وأهمها الفيســبوك، التي لديها الآن مليار مســتخدم وتحظر الأســماء المستعارة (إخفاء الهوية)- منهج «الحديقة المسورة»[265] الذي يعزل بعض معلوماتها الخاصة عن بقية الإنترنت.

فضلا على ذلك، حاولت بعض الشركات التي تبيع اشتراكات الإنترنت وفي الوقت نفســه تبيع محتويات ذات قيمة عالية عبر الإنترنت أن تخفض سرعتها أو أن ترفع مــن ســعر المحتوى[266] الذي تقدمه أكثر من ســعر المحتــوى المماثل في الشركات المنافسة. على الرغم من أنها تثير قضايا مشروعة حول تخصيص كلفة توسيع عرض النطاق الترددي، يعتبر هذا التضارب المحتمل في المصالح أيضا مسألة مهمة لمستقبل الإنترنت. وهذا هو الســبب وراء مطالبة الكثيرين بسن قوانين حيادية الشبكة التي تحمي حرية التعبير وحرية المنافسة[267].

دفعت المساعي التي تقوم بها بعض الشركات للسيطرة على المعلومات على شــبكة الإنترنت البعض، إلى الخشية من احتمال تفكك الإنترنت في نهاية المطاف إلى عدة شــبكات منفصلــة. بيد أن ذلك من غير المرجــح أن يحدث لأن القيمة الكاملــة التي تولدها الإنترنت تعتمد على حقيقة أنها متصلة بطريقة أو بأخرى مع الغالبية العظمى من الناس، والشركات، والمنظمات في العالم. وللســبب عينه، فإن الجهود التي تبذلها دول مثل الصين وإيران لعزل مواطنيها عن القوى المُخلة بالنظــام التي تتخذ مســارا لها عبر الإنترنت على مســتوى العــالم محكومٌ عليها بالفشل على الأرجح.

النظــام العالمــي ككل يتحرر عن نمط ثابــت قديم لايزال موجودا منذ نشــأة النظــام القائم على الدول القومية. لا أحد يشــك في أن الدول ستســتمر باعتبارها الوحدات الأساســية ذات الشــأن في ما يتعلق بالحكم. لكن نظام المعلومات السائد الذي يســتخدمه العالم بأسره الآن - العقل العالمي - يمتلك حتمية توحيدية كامنة، تماما مثلما ساعدت الصحافة المطبوعة في توحيد الأمم في العصور التي ولدت فيها. والقــرارات التــي تواجه العالم الآن ككل لا يمكن أن تتخذهــا دولة واحدة بمفردها أو مجموعــة صغيرة من الدول. لعدة عقود، عندما كانت الولايات المتحدة تحســم أمرها، كان العالم يســير على خطاها. أما الآن، إلى جانب المعلومات الرقمية، فالقوة التي سترســم مستقبل العالم يجري توزيعها في جميع أنحاء المعمورة. ونتيجة لذلك، فإن العقل العالمي ليس من السهل تشكيله.

3

ميزان القوى

مع اقتصاد عالمي متكامل بإحكام وشبكة رقمية عالمية فإننا نشهد ولادة أول حضارة كونية حقيقية في العالم. مع تضاعف المعرفة والقوة الاقتصادية وانتشارها إلى مساحات أوسع وبسرعة أكبر من الثورات الطباعية والصناعية، يمر التوازن السياسي في العالم بمرحلة تغيير هائلة بدرجة لم يسبق مثيلها منذ العقود التي تلت ربط أوروبا بممرات بَحْرية مع الأمريكتين وآسيا قبل 500 سنة.

ونتيجة لذلك، فإن ميزان القوى بين الدول يتغير بشكل كبير. تماما مثلما أدت الثورة الصناعية إلى هيمنة أوروبا الغربية والولايات المتحدة على الاقتصاد العالمي، فإن ظهور شركة الأرض يحول القوة الاقتصادية من الغرب إلى الشرق وينشرها إلى اقتصادات النمو الجديدة التي تتطور في جميع أنحاء العالم. الصين، على وجه الخصوص، تتفوق على الولايات المتحدة كمركز ثقل في الاقتصاد العالمي.

«إما أن تجتاحنا التيارات القوية للتغير التكنولوجي والحتمية الاقتصادية وتجرفنا إلى مستقبل يمكن أن يهدد القيم الدفينة لدينا، وإما أن نبني القدرات التي تمكننا من صنع القرار الجماعي على نطاق عالمي، مما يسمح لنا بتشكيل ذلك المستقبل بطرق تصون الكرامة البشرية وتعكس طموحات وتطلعات الأمم والشعوب»

الأهــم من ذلك، تماما مثلما ظهرت الدول القومية كشــكل ســائد من أشــكال التنظيــم الســياسي في أعقاب الصحافــة المطبوعة، فإن ظهور العقــل العالمي يغير العديد من الافتراضات الاجتماعية والسياسية التي استند إليها نظام الدولة القومية. بعض مصادر القوة التي تســلمت زمامها تقليديا الدول في بداية الأمر لم تعد تحت ســيطرتها وقبضتها المحْكمة حصريا. فيما تبقى هويتنا السياسية المستقلة قومية في المقــام الأول، وســتظل كذلك لفترة طويلة من الزمن المقبــل، تأتي عولمة المعلومات والأسواق في الوقت ذاته لتنقل السلطة التي كانت في السابق حكرا على الحكومات الوطنية إلى القطاع الخاص- بما في ذلك الشركات المتعددة الجنسيات، وشبكة رجال الأعمال، ومليارات الأفراد من الطبقة الوسطى العالمية.

لا مفــر لأي دولــة من التعرض لأمــواج التغيير العاتية هــذه عن طريق فرض تصميمهــا الخاص بشــكل أحادي الجانب. هذه الخيــارات المرتبطة في الصميم مع مستقبلنا هي التي تواجه الآن العالم برمته. ولكن لأن الدول القومية تحتفظ بالقوة الحصرية للتفاوض بالسياسات وتنفيذها على الصعيد العالمي، فإن الطريقة العمَلية الوحيدة لاستعادة السيطرة على مصيرنا هو السعي إلى إجماع عالمي ضمن المجتمع الــدولي لضمان تنفيذ السياســات التي تصون القيم الإنســانية. ومنذ نهاية الحرب العالميــة الثانيــة - حتى الآونة الأخيرة على الأقل - كان معظم العالم يتطلع بشــكل أســاسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإدارة دفــة القيادة عندما تدعو الحاجة إلى مثل هذا الإجماع.

بيد أن العديد يخشى من أن قدرة الولايات المتحدة على تأمين القيادة في العالم آخذة في التراجع بمعايير نســبية. في العام 2010، أصبحت الصين الدولة الرائدة في مجال التصنيع في العالم، لتنهي بذلك فترة القيادة التي تمتعت بها الولايات المتحدة الأمريكيــة على مدار 110 أعوام. قال أحد المؤرخــين الاقتصاديين في كلية نوفيلد، في أكســفورد، روبرت آلن: إن هذا الحدث المهم يحدد «اكتمال دورة مدتها 500 عام في التاريخ الاقتصادي»[1]. عندما تتفوق القوة الاقتصادية الشاملة للصين على القوة الاقتصادية في الولايات المتحدة في وقت لاحق من هذا العقد، سيحدد ذلك وللمــرة الأولى منــذ العام 1890 وجود اقتصاد آخــر[2] في العالم يضاهي الاقتصاد الأمريكي ويتجاوزه.

الأسوأ من ذلك، أنه لم يسبق أن كان صنع القرار لدى الحكومة الأمريكية منذ تسعينيات القرن التاسع عشر بهذا الضعف والاختلال والخنوع للشركات وللمصالح الخاصة الأخرى كما هو عليه الآن. جسامة الخطر الذي يشكله انحطاط الديموقراطية الأمريكية لايزال غير مفهوم على نطاق واسع. أدت تبعية التحليل القائم على العقل لتأثير الثروة والسلطة في صنع القرار في الولايات المتحدة إلى تبني خيارات سياسية خاطئة على نحو كارثي، واتخاذ قرارات متصلبة، وتضاؤل كبير في نفوذ الولايات المتحدة في العالم.

حتى التراجع النسبي في تفوق موقع الولايات المتحدة في النظام العالمي له عواقب كبيرة. فهي تبقى «الأمة التي لا غنى عنها» في الحد من احتمالات الصراعات التي يمكن تجنبها - إبقاء الممرات البحرية مفتوحة، ورصد الجماعات الإرهابية ومكافحتها، وممارسة دور في الحفاظ على التوازن في المناطق المتوترة كالشرق الأوسط وشرق آسيا، وفي مناطق (مثل أوروبا) التي يمكن أن تواجه توترات جديدة من دون وجود قيادة أمريكية قوية. من بين أدوارها العديدة الأخرى، اضطلعت الولايات المتحدة أيضا بمسؤوليتها في الحفاظ على الاستقرار النسبي في النظام النقدي الدولي في العالم ونظمت استجابات للأزمات الدورية في السوق.

في الوقت الراهن، على الرغم من أن التدهور في النظام السياسي في الولايات المتحدة يسبب عجزا خطيرا في حوكمة النظام العالمي ويخلق فجوة بين المشاكل التي تحتاج إلى المعالجة والرؤية والتعاون اللازمين لمعالجتها. هذه هي نقطة ارتكاز حقيقية في ميزان القوى في العالم اليوم – وهي في حاجة ماسة إلى الإصلاح. في ظل غياب قيادة أمريكية قوية، من الواضح أن المجتمع الدولي لن يكون قادرا بعد الآن على التضافر في دعم التنسيق والاتفاقات الدولية التي تؤسس ترتيبات الحوكمة التعاونية اللازمة لحل المشاكل العالمية.

أصبحت اجتماعات مجموعة العشرين G20 (التي تحظى الآن باهتمام أكبر من مجموعة الثماني G8) لا تتجاوز كونها سلسلة من الفرص السنوية لقادة الدول الأعضاء لإصدار البيانات الصحافية المشتركة. وعادتهم بارتداء القمصان الملونة المتطابقة التي تمثل تصميم الأزياء الفريد للدولة المضيفة وتعيد إلى الأذهان

الحكاية الرمزية للطفل الذي لاحظ أن الإمبراطور كان عاريا (لا يرتدي ملابس). بيد أنه في هذه الحالة، فالملابس ليس لها إمبراطور.

المفاوضات المتعددة الأطراف التي كانت واعدة ذات مرة - مثل جولة المباحثات التجارية في الدوحة (التي بدأت في العام 2001)، وبروتوكول كيوتو (الذي بدأ في العام 1997) - توصف الآن في بعض الأحيان بأنها «مجموعة من المسوخ» zombies، وذلك يعود بشكل كبير إلى قرارات حكومة الولايات المتحدة في السير على هدي مصالح الشركات المحلية صاحبة النفوذ. وهذا يعني أنها ليست حية ولا ميتة؛ بل هي مجرد أجسام تتمايل في مشيتها وتخيف الناس. وبالمثل، فإن قانون معاهدة البحار في حالة ركود.

المنظمات العالمية التي تأسست بقيادة الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية - منظمة الأمم المتحدة، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية (سابقا الاتفاقية العامة بشأن التعريفات الجمركية والتجارة) هي الآن غير فعالة إلى حد كبير بسبب التغيرات العالمية التي هزت الافتراضات الجيوسياسية التي كانت قائمة عليها. أهمها كان الافتراض بأن الولايات المتحدة سوف تؤمن القيادة العالمية.

مادامت الولايات المتحدة عرضت الرؤية اللازمة لهذه المنظمات - ومادامت معظم دول العالم كانت لديها ثقة بأن قيادة الولايات المتحدة ستعمل على تحريك المجتمع الدولي في الاتجاه الذي يصب في مصلحة جميع الدول - كانت هذه المنظمات في أغلب الأحيان تعمل بشكل جيد. إذا كان ينظر إلى أهداف أي دولة بأنها كانت بدافع السعي وراء الأهداف التي تصب في مصلحة الجميع، يجري تعزيز سلطتها السياسية إلى حد كبير. على النقيض من ذلك، إذا كان ينظر إلى الدولة التي تعرض قيادتها للعالم بأنها تسعى بشكل أساسي إلى تعزيز مصالحها الخاصة الضيقة - كتعزيز الآفاق التجارية لشركاتها، على سبيل المثال - فإنه يجري إضعاف قدرتها على القيادة.

بعد ثلثي قرن من ولادتها، تواجه هذه المنظمات المتعددة الأطراف انتقادات من البلدان النامية، والمهتمين بالبيئة، ومناصري الفقراء لما يراه كثيرون بأنه «عجز ديموقراطي». يحتاج كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي إلى دعم 85 في المائة[3] من حقوق التصويت التي تمتلكها الدول الأعضاء. بما أن الولايات المتحدة تمتلك وحدها

أكثر من 15 في المائة من حقوق التصويت في كلتا المنظمتين، فإنها تمتلك بذلك سلطة حق الفيتو الفعال على قراراتها[4]. وبالمثل، تتساءل بعض البلدان لماذا لاتزال فرنسا والمملكة المتحدة من بين الدول الخمس فقط الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة في حين أن البرازيل[5] التي تمتلك ناتجا محليا إجماليا أكبر من أي منهما، والهند التي يفوق الناتج المحلي الإجمالي لديها مجموع الناتج المحلي لكليهما مجتمعتين، والتي ستصبح البلد الأكبر في العالم من حيث التعداد السكاني، ليستا من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

فقدان الثقة الكبير في قيادة الولايات المتحدة، لاسيما منذ الأزمة الاقتصادية 2007 - 2008، زاد من سرعة عجلة التحول في ميزان القوى في العالم. يتوقع بعض الخبراء ظهور توازن جديد تتقاسم السلطة في مركزه كل من الولايات المتحدة والصين؛ لقد أطلق البعض على ذلك استباقيا بالفعل اسم مجموعة الاثنين G2[6].

التراجع النسبي أم المطلق؟

يتكهن خبراء آخرون بعالم متعدد الأقطاب غير مستقر وأكثر خطورة. يبدو على الأرجح أن زيادة تكامل الأسواق العالمية وتدفق المعلومات سوف يؤديان إلى مرحلة طويلة من التأرجح قبل أن تستقر القوة العالمية في توازن جديد أكثر تعقيدا قد لا يمكن تحديده بأقطاب القوة على الإطلاق. التقسيم القديم للعالم إلى دول غنية ودول فقيرة يمر بمرحلة تغيير لأن العديد من الدول التي كانت فقيرة سابقا تمتلك الآن معدلات نمو اقتصادي أسرع من الدول المتقدمة الغنية. ومع انغلاق الفجوة بين هذه الاقتصادات الناشئة السريعة النمو من جهة والاقتصادات الناضجة الغنية من جهة أخرى، فإن القوى الاقتصادية والسياسية لا تتحول من الغرب إلى الشرق فحسب، بل أيضا تتوزع على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم: إلى سان باولو، ومومباي، وجاكرتا، وسيول، وتايبيه، وإسطنبول، وجوهانسبرغ ، ولاغوس، ومدينة المكسيك، وسنغافورة، وبكين.

أيا كان هذا التوازن الجديد الناشئ للقوى، فإن تركيبته الخاصة ستتحدد بحسم عدة التباسات مهمة حول مستقبل الولايات المتحدة والصين، والدول القومية بشكل عام: في المقام الأول، هل تمر الولايات المتحدة بالفعل في مرحلة

مـن التراجع؟ إذا كان الأمر كذلك، هل يمكن عكس هذا التراجع؟ وإذا لم يكن ذلك ممكنا، هل هو مجرد تراجع نسبي مقارنة مع نظيره في الدول الأخرى، أم أن هناك خطـر وجود تراجع مطلـق؟ في المقام الثاني، هل من المرجح أن تسـتمر الصين في النمو بالمعدل الحالي نفسـه أم أن هناك نقاط ضعف في الأساسات التي بني عليها ازدهارها؟ أخيرا هل الدول القومية ذاتها بدأت تفقد قوتها النسـبية في عصر شركة الأرض والعقل العالمي؟

هناك خلاف حاد بين العلماء إزاء مسألة تراجع الولايات المتحدة ومدى صحتها. فقـدان الولايات المتحـدة لقوتها الجيوسياسـية أصبحت موضوعـا متداولا بكثرة لفترة أطول مما يتخيلـه عديد من الأمريكان. حتى قبل أن تصبح الولايات المتحدة الدولة الأقوى في العالم، كانت هناك تحذيرات عرضية من أن القوة الأمريكية كانت تنحسر[7]. ويرى البعض أن المخاوف بشـأن تغلـب الصين على الولايات المتحدة في أشـكال أخـرى من القوة غير الناتج الاقتصادي تمثل فقـط مثالا آخر على ما حدث عندمـا كانت هناك مخاوف لدى الكثير من الدول إزاء شركة اليابان في سـبعينيات وثمانينيـات القرن المـاضي وحتى قبل ذلك، المخاوف التي كانـت لديها عندما كان ينظر إلى الاتحاد السوفييتي السابق باعتباره خطرا يهدد هيمنة الولايات المتحدة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

لأكثر مـن عقد من الزمان في أعقاب الحرب العالميـة الثانية، كان هناك لدى العديد من المفكرين الاسـتراتيجيين مخاوف من خطر سقوط الولايات المتحدة[8] من قمة هرم القوة في العالم. عندما امتلك الاتحاد السـوفييتي الأسـلحة النووية وأحكـم قبضته عـلى أوروبا الشرقية والوسـطى، زادت شـدة هـذه المخاوف. عندمـا جرى إطلاق القمر الصناعي سـبوتنيك في العام 1957، وجعل من الاتحاد السـوفييتي أول دولـة في الفضاء، دقت نواقيس الخطر وسـمع دويها عاليا لدى مؤيدي فكرة التراجع.

كثـير من التحذيرات التي تطلق حاليا بشـأن تراجع قـوة الولايات المتحدة تسـتند إلى مقارنة بين الصعوبات الحالية التي نعانيها ونسـيان الهيمنة المطلقة للولايـات المتحدة على عملية صنع القرار العالمي التي كانت سـائدة في النصف الثاني من القرن العشرين. أما النظرة الأكثر واقعية وتماسـكا فتأخذ بعين الاعتبار

حقيقة أنه لم يكن هناك عصر ذهبي تنفذ فيه الولايات المتحدة تصاميمها بنجاح من دون مقاومة وإخفاقات كثيرة.

يجدر بنا أن نتذكر أيضا أنه حينما انخفضت حصة الولايات المتحدة من الناتج الاقتصادي العالمي من نسبة 50 في المائة في أواخر أربعينيات القرن العشرين إلى ما يقرب من 25 في المائة في أوائل سبعينيات القرن العشرين[9]، ظلت عند المستوى ذاته على مدار السنوات الأربعين الماضية[10]. ارتفاع حصة الصين من الناتج المحلي الإجمالي العالمي والقوة الاقتصادية للاقتصادات الناشئة والنامية الأخرى جاءت إلى حد كبير على حساب أوروبا وليس الولايات المتحدة[11].

نهوض الولايات المتحدة كقوة عالمية مهيمنة بدأ في أوائل القرن العشرين عندما أصبحت أولا أكبر اقتصاد في العالم[12]، عندما أكد الرئيس تيودور روزفلت بشكل جازم القوة الدبلوماسية والعسكرية للولايات المتحدة الأمريكية، وعندما أدت دورا حاسما في تحديد نتيجة الحرب العالمية الأولى في عهد الرئيس وودرو ويلسون. وبالطبع بعد توفير القوة الاقتصادية والعسكرية الحاسمة لهزيمة قوى دول المحور في الحرب العالمية الثانية، برزت الولايات المتحدة باعتبارها المنتصر في كل من الساحة الأوروبية وساحة المحيط الهادئ، وجرى الاعتراف بها كقوة رائدة في العالم. اقتصادات الدول الأوروبية انهارت وأنهكتها الحرب. وكذلك أيضا تدمر اقتصاد كل من اليابان وألمانيا. وفقد الاتحاد السوفييتي قوته بعد أن منيَ بخسائر تفوق الخسائر التي منيت بها الولايات المتحدة[13] بـ 100 مرة. أيا كانت السلطة المناقضة أخلاقيا التي كانت تطمح إليها في ظل لينين فقد جرت الإطاحة بها منذ ذلك الحين من جراء التحالف الذي أبرمه في العام 1939 ستالين مع هتلر[14] وقسوته ووحشيته المفرطة تجاه شعبه.

وبالتحرك بسرعة وفرت الولايات المتحدة القيادة الحاسمة لتأسيس منظمات مرحلة ما بعد الحرب من أجل النظام العالمي والحوكمة العالمية. وقد شملت هذه اتفاقية بريتون وودز، التي اتخذت الدولار الأمريكي ليكون العملة الرسمية للاحتياطي العالمي[15]، وسلسلة من التحالفات العسكرية الإقليمية للدفاع عن النفس، وأهمها كان منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو). ومن خلال استخدام المساعدات الخارجية والاتفاقات التجارية السخية التي تتيح الوصول إلى أسواق

الولايات المتحدة، تنامى دور الولايات المتحدة ليصبح أكثر هيمنة. وعززت الولايات المتحدة الرأسمالية الديموقراطية في جميع أنحاء البلدان غير الشيوعية من العالم.

وقد بلور ذلك ظهور التكامل الاقتصادي والسياسي الأوروبي من خلال المساعدة على إنشاء المجموعة الأوروبية للفحم والصلب (التي تطورت لاحقا لتصبح السوق الأوروبية المشتركة والاتحاد الأوروبي)[16]. وقد نهضت خطة مارشال الأسطورية السخية بدول أوروبا التي دمرتها الحرب العالمية الثانية لتحقيق الازدهار والتشجيع على الالتزام بالديموقراطية والتكامل الإقليمي. كان وزير الخارجية كورديل هل، الذي وصفه فرانكلين روزفلت بـ «أبي الأمم المتحدة»[17]، من أشد المدافعين عن حرية التجارة المتبادلة عبر الحدود في أوروبا والعالم، لأنه كان يرى أنه «عندما تعبر البضائع الحدود لا تعبرها الجيوش»[18]. بالإشراف على إعادة الإعمار، وإرساء أسس الديموقراطية، ونزع السلاح من اليابان، رسخت الولايات المتحدة أيضا مكانتها كقوة مهيمنة في آسيا.

في العام 1949، عندما أصبح الاتحاد السوفييتي القوة النووية الثانية في العالم واعتنقت الصين الشيوعية بعد انتصار ماو تسي تونغ، فرضت الحرب الباردة التي استمرت أربعة عقود ديناميتها الخاصة على عمليات النظام العالمي. صَاحبَ المواجهة النووية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي صراع عالمي بين أيديولوجيتين بخطط تنافسية لتنظيم كل من السياسة والاقتصاد.

لعدة عقود من الزمن، كانت بنية ميزان القوى في العالم محددة بالتوتر الدائم بين هذين القطبين المتناقضين. في القطب الأول، قادت الولايات المتحدة تحالف الدول التي شملت الديموقراطيات التي استعادت عافيتها من أوروبا الغربية واليابان التي أعيد إعمارها، وجميع هذه الدول كانت من أنصار أيديولوجية الرأسمالية الديموقراطية. أما في القطب الآخر، فقاد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية مجموعة أسيرة من الدول في وسط وشرق أوروبا التي كانت تناصر الأيديولوجية الشيوعية. هذا التوصيف المختصر ينافي ديناميات أكثر تعقيدا، بطبيعة الحال، ولكن في الواقع كل صراع سياسي وعسكري في العالم كان مرهونا بهذا الصراع الأكبر.

عندما كان الاتحاد السوفييتي غير قادرٍ على التنافس مع القوة الاقتصادية للولايات المتحدة (وكان غير قادرٍ على تكييف اقتصاده الموجه وثقافته السياسية الاستبدادية مع المراحل الأولى من ثورة المعلومات)، تفجر وانهار داخليا. مع انهيار جدار برلين في العام 1989 والتفكك اللاحق للاتحاد السوفييتي بعد ذلك بعامين (عندما انسحبت روسيا نفسها من الاتحاد السوفييتي)، اختفت الشيوعية من العالم كمنافس أيديولوجي خطير.

وصلت هيمنة الولايات المتحدة في العالم بالتالي إلى ذروتها، وانتشرت أيديولوجية الرأسمالية الديموقراطية على نطاق واسع إلى درجة أن أحد الفلاسفة السياسيين تكهن بأننا كنا نشهد «نهاية التاريخ»[19] - بمعنى أنه لم يعد هناك أي احتمال لظهور تحدٍّ سواء للديموقراطية أو الرأسمالية.

هذا الانتصار الأيديولوجي والسياسي أمن للولايات المتحدة الاعتراف العالمي باعتبارها القوة المهيمنة في ما بدا، على الأقل لفترة وجيزة، أنه عالم وحيد القطب. ولكن مرة أخرى، هذا العنوان السطحي كان يخفي بين طياته تغييرات معقدة صاحبت التحول في ميزان القوى.

قبل بداية الحرب العالمية الثانية بفترة لا بأس بها، كانت الشيوعية السوفييتية تتعارض مع حقيقة أساسية بشأن القوة كانت مفهومة بشكل واضح في نظر مؤسسي الولايات المتحدة: عندما تتمركز السلطة الهائلة في يد شخص واحد أو مجموعة صغيرة من الأشخاص، فهي تفسد بصيرتهم وإنسانيتهم.

الديموقراطية الأميركية، على النقيض من ذلك، كانت قائمة على فهم متطور للطبيعة البشرية، ونوعية متفوقة من صنع القرار التي يمكن العثور عليها في ما يسمى أحيانا هذه الأيام بحكمة الجماهير، ودروس مستقاة من تاريخ الجمهورية الرومانية حول المخاطر المحدقة بالحرية من قبل السلطة المركزية. تمركز السلطة غير السليم يعتبر خطرا يضر بمصلحة بقاء الحرية. لذلك قُسمت السلطة إلى مجالات متنافسة صممت لممارسة الضوابط والزواجر بعضها ضد بعض من أجل الحفاظ على توازن آمن يستطيع من خلاله الأفراد المحافظة على حريتهم في التعبير، وحرية العبادة، وحرية التجمع.

قدرة أي دولة على إقناع الآخرين في اتباع قيادتها غالبا ما يتأثر إلى حد كبير بسلطتها الأخلاقية. في حالة الولايات المتحدة، لا يمكن نفي الحقيقة بأنه منذ

التصديـق على الدسـتور وبيان حقـوق الإنسـان في 1790 - 1791، كان للمبادئ الأساسـية صدى في قلوب وعقول الجماهـير في جميع أنحاء العالم، بغض النظر عن البلد الذي يعيشون فيه.

منـذ نهايـة القرن الثامن عشر، كانـت هناك ثلاث موجات مـن الديموقراطية انتـشرت حول العالم[20]. الأولى، جاءت في أعقاب الثورة الأمريكية، وأنتجت تسـعا وعشريـن مـن الديموقراطيـات[21]. عندما قاد المحـرر العظيم، سـيمون بوليفار، الثورات الديموقراطية في أمريكا الجنوبية في العقدين اللذين أعقبا تأسـيس أمريكا، كان يحمل صورة لجورج واشنطن في جيب سترته الصدري[22].

أعقبت ذلك فترة من التراجع قلصت العدد إلى اثنتي عشرة ديموقراطية مع بداية الحـرب العالمية الثانية[23]. بعد العـام 1945، أدت الموجة الثانية من الديموقراطية إلى تضخم عدد الديموقراطيات حتى وصل إلى سـت وثلاثـين[24]، ولكن مرة أخرى تبـع هذا التوسـع تراجع قلص عددهـا إلى ثلاثين من العـام 1962 حتى منتصف السـبعينيات[25]. بدأت الموجـة الثالثة في منتصف سـبعينيات القرن العشرين ثم تسارعت مع انهيار الشيوعية في العام 1989[26].

الصراع داخل الولايات المتحدة بشـأن السياسـات التي تعزز القيم العليا التي نص عليها الدسـتور الأمريكي - الحقوق الفردية، على سـبيل المثـال - غالبا ما كان ينتهي ليصب في مصلحة الشركات وحسابات السياسة الواقعية. عندما بدأت بلدان أوروبا الغربية بمنح الاستقلال لمستعمراتها في الخارج والانسحاب من مناطق النفوذ التي أسسـتها خلال عهود إمبراطورياتها، ملأت الولايات المتحدة جزئيا الفراغات في السـلطة الناجمة عـن ذلك من خلال زيادة المسـاعدات وإقامة علاقات اقتصادية وسياسـية وعسكرية مع العديد من الدول المسـتقلة حديثا. عندما كانت الولايات المتحدة تخشى من أن انسـحاب فرنسا من دورها الاستعماري في فيتنام قد يؤدي إلى اتساع ما كان يراه البعض خطأ رقعة نفوذ الشيوعية شبه المتجانسة، أسهم هذا الفهم الخاطئ للدوافع الوطنية الثابتة لهو تشي منه في الحسابات الخاطئة المأساوية التي أسفرت عن اندلاع حرب فيتنام.

مع ذلك، وعلى رغم خطئها الإسـتراتيجي في فيتنام (في أعقاب الورطة السـابقة في الحـرب الكورية التي طال أمدها وكلفت أثمانا باهظة)، والتدخلات العسـكرية

الخرقــاء في أمريكا اللاتينية، وغيرها من التحديات الصعبة، عززت الولايات المتحدة موقعهــا القيادي في العالم. النمو غير المســبوق لازدهار الولايات المتحدة في العقود التــي تلت الحرب العالمية الثانية - إلى جانب مناداتها المســتمرة بالحرية والدعوة إليهــا - جعل منها مثالا تطمــح إليه البلدان الأخرى. فمن الصعب تخيل أن حقوق الإنســان وتقرير المصير كان يمكــن أن يحققا كل هذا القدر مــن التقدم في جميع أنحــاء العالم في حقبة ما بعد الحــرب العالمية الثانية لو لم تكن الولايات المتحدة في موقع مهيمن.

في الآونــة الأخــيرة، تباطأ انتشــار الديموقراطية. منــذ أزمة الســوق المالية في العامين 2007 و2008، كان هنــاك تراجع في عدد الدول الديموقراطية في العالم[27]، وتدهــور في نوعية الديموقراطية وآفاقهــا في العديد من البلدان الأخرى، بما في ذلك الولايات المتحــدة الأمريكية. ولكن على الرغم من أن العالم لايزال في مرحلة «ركود ديموقراطــي»، يعتقد البعض أن الربيع العربي والحركات الديموقراطية الأخرى التي مكنتها الإنترنت قد تكون مــؤشرا على بداية الموجة الرابعة من الدمقرطة[28]، على الرغم من أن النتائج لاتزال غامضة في أحسن الأحوال.

على أي حال، فإنه من السابق لأوانه التنبؤ بالتراجع المطلق في قوة الولايات المتحــدة الأمريكية. مــن بين الإشــارات الإيجابية التي تدل عــلى أنه في إمكان الولايــات المتحــدة أن تخفف من سرعــة عجلة تراجعها النســبي، هو أن نظام الجامعــات الأمريكيــة لايزال بكل المعايــير والمقاييس الأفضــل في العالم. ثقافة الاســتثمار المغامر لديها تتواصــل لجعل الولايات المتحدة أكــبر مصدر للابتكار والإبداع. على الرغم من أن الميزانية العسكرية الأمريكية هي أقل كنسبة مئوية مــن الناتج المحلي الإجمالي مما كانت عليه خــلال معظم مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد ارتفعت بالمطلق إلى أعلى مســتوى لها منذ العام 1945[29]. لايــزال الجيش الأمريكي حتى الآن الأقوى، والأفضل تدريبا (على يد أفضل ضباط الجيــش)، والأفضــل عتادا، وأكثر القوات المســلحة التي تحظى بتمويل ســخي في العالم على الإطلاق. تعادل ميزانيتها الســنوية مجموع الميزانيات العســكرية للجيوش الخمســين القادمة في العالم وتكاد تســاوي مجمل الإنفاق العســكري لبقية العالم[30] بأسره.

باعتباري ديموقراطيا وصف دائما بأنه من أنصار الدفاع أثناء عملي في الكونغرس وفي البيت الأبيض، شاهدت مدى أهمية المحافظة على التفوق العسكري المطلق بالنسبة إلى كل من الولايات المتحدة وقضية الحرية. ولكن بعد أكثر من عشر سنوات من خوض غمار حربين تكادان تكونان أبديتين، ومع المحافظة في الوقت ذاته على نشر أعداد كبيرة من القوات في أوروبا وآسيا، تستنفد موارد الجيش الأمريكي إلى حد الانهيار. والتراجع النسبي للقوة الاقتصادية والثروة في أميركا بدأ يفرض ضغوطا لإعادة النظر في مثل هذه الميزانيات الضخمة للجيش.

الاتجاهات العالمية نفسها التي وزّعت النشاط الإنتاجي عبر شركة الأرض وربطت الناس في جميع أنحاء العالم مع العقل العالمي تعمل أيضا على توزيع التكنولوجيات ذات الصلة بالحروب، التي كانت حكرا على الدول القومية. القدرة على شن هجمات إلكترونية مدمرة، على سبيل المثال، تنتشر الآن على نطاق واسع على شبكة الإنترنت.بعض الوسائل المستخدمة لشن حرب عنيفة تجري الآن بالاستعانة بمصادر خارجية وروبوتات. استخدام الطائرات من دون طيار وغيرها من الأسلحة الروبوتية شبه المستقلة انتشرت بشكل كبير خلال الحروب في العراق وأفغانستان. سلاح الجو الأميركي يدرب الآن المزيد من الطيارين الأرضيين للمركبات غير المأهولة أكثر مما يدرب من الطيارين البشر للطائرات المقاتلة المأهولة[31] (ومن المثير للاهتمام، أن الطيارين الأرضيين للطائرات من دون طيار يعانون اضطراب[32] ما بعد الصدمة بالمعدل ذاته الذي يعانيه طيارو الطائرات المقاتلة، على الرغم من أنهم يرون أهدافهم التي تبعد آلاف الأميال عبر شاشة التلفزيون).

في عدة مرات، جرت قرصنة الطائرات من دون طيار من قبل القوات التي كانت تستهدفها. في العام 2010، وجد محللو الاستخبارات أن المتشددين الإسلاميين في العراق استخدموا برمجيات متوافرة في الأسواق وتباع بمبلغ 26 دولارا لقرصنة إشارات الفيديو غير المشفرة المرسلة من طائرات أمريكية من دون طيار ومشاهدة الفيديو نفس بشكل فوري في أثناء إعادة إرساله إلى وحدات المراقبة الأمريكية في الولايات المتحدة. في أفغانستان، تمكن عناصر المتمردين من القيام بالشيء ذاته، وفي نهاية العام 2011، اخترقت إيران نظام المراقبة لطائرة تجسس أمريكية من دون طيار وأمرتها بالهبوط[33] على مهبط للطائرات في كاشمر في إيران.

هناك جيل جديد من الأسلحة الروبوتية جوا وبرا وبحرا يجري تطويره بسرعة. يجري أكثر من خمسين بلدا[34] الآن تجارب على إنتاج روبوتات عسكرية شبه مستقلة خاصة بها. (وضع المحامون العسكريون في الولايات المتحدة الأمريكية مبدأ قانونيا جديدا لـ «حقوق الروبوت» لمنح الطائرات من دون طيار والروبوتات الحق القانوني بإطلاق النار عندما تتعرض لأي خطر يهددها[35]، مثلما يمتلك الطيار البشري المقاتل تماما حق الرد بإطلاق النار على أي جهة مهاجمة محتملة حالما يتلقى إنذارا بأن طائرته أصبحت «هدفا» لرادار اكتشفه).

في الوقت نفسه، تجري الاستعانة بمصادر خارجية لتنفيذ بعض المهام القتالية الخطيرة. خلال الحرب في العراق، أسندت الولايات المتحدة تنفيذ بعض العمليات الكبيرة في منطقة الحرب لشركات مقاولة من القطاع الخاص[*] بعد حرب فيتنام البغيضة، تخلت الولايات المتحدة عن التجنيد واعتمدت جيشا من المتطوعين المحترفين - الذي يدعي الكثيرون أنه يعزل المواطنين الأمريكان عاطفيا عن بعض عواقب الحروب المؤثرة التي كانت تصيب عامة السكان.

المسألة الصينية

في هذه الأثناء، تتصاعد ميزانيات الصين العسكرية - على الرغم من أنها لا تشكل سوى جزء ضئيل من إنفاق الولايات المتحدة على الدفاع. علما بأن هناك تساؤلات بشأن مدى استدامة النمو الاقتصادي الحالي للصين. يرى كثيرون أنه من السابق لأوانه التنبؤ بمستقبل تصبح فيه الصين القوة العالمية المهيمنة، أو حتى تحتل مركز توازن القوى الجديد جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة الأمريكية، لأنهم يشكون في أن تكون الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الصين[36] متينة. على الرغم من التقدم الاقتصادي في الصين، يحذر الخبراء من أن انعدام حرية التعبير[37]، وتمركز السلطة الاستبدادية في بكين[38]، والمستويات العالية من الفساد في كل جوانب النظام السياسي والاقتصادي في الصين[39] يثير تساؤلات بشأن مدى استدامة معدلات نموها الأخيرة.

(*) كانت جيوش المرتزقة دائما موجودة في تاريخ الحروب، ولكنها أصبحت أكثر بروزا من أي وقت مضى في بعض الصراعات الطويلة الأمد، كتلك التي أودت بحياة 400 ألف شخص في جمهورية الكونغو الديموقراطية.

على سبيل المثال، في نهاية العام 2010، كان هناك ما يقدر بنحو 64 مليون شقة فارغة في الصين[40]. وتعزى فقاعة البناء هناك إلى عدد من الأسباب، ولكن لعدة سنوات كان يلحظ زوار الصين العدد الكبير للمباني الشاهقة للشقق المدعومة من قبل الحكومة التي تُبنى بسرعة وتبقى شاغرة لفترات طويلة جدا من الزمن. وفقا لبحث أجرته مورغان ستانلي[*]، ما يقرب من 30 في المائة من طواحين الهواء التي شيدت في الصين غير متصلة بالشبكة الكهربائية[41]؛ وقد وضع العديد منها في أماكن نائية ذات رياح قوية ولكن من دون وجود طريقة اقتصادية لإيصال الشبكة إليها. نجاح الصين في بناء قدرتها على إنشاء نظم الطاقة المتجددة ذات التكلفة المنخفضة كانت مفيدة لكل من الصين والسوق العالمية، ولكن كما هي الحال بالنسبة إلى العديد من المباني السكنية الفارغة، فإن طواحين الهواء العاطلة عن العمل تعتبر بمنزلة تحذير بأن بعض الاتجاهات في المعجزة الاقتصادية الصينية قد لا تستمر على الوتيرة نفسها. يعاني النظام المصرفي في الصين التشوهات نفسها للتلاعب الحكومي. بعض المصارف المملوكة للدولة تعيد تدوير مخصصاتها الائتمانية في السوق السوداء لمنح قروض بأسعار فائدة ربوية لا يمكن تحملها.

هناك أيضا أسئلة تحوم حول التماسك الاجتماعي والسياسي في الصين خلال ما يعتبر فترة اقتصادية انتقالية معطلة، يرافقها أكبر هجرة داخلية في التاريخ[42] ومستويات رهيبة من التلوث. على رغم صعوبة تقديم إحصائيات دقيقة للتحقق من ذلك، قدر أحد الأساتذة في جامعة تسينغهوا، سون ليبينغ، أنه في العام 2010 كان هناك «180 ألفا من مظاهرات الاحتجاج وأعمال الشغب والحوادث الجماعية الأخرى»[43]. هذا الرقم يعكس زيادة تفوق بأربعة أضعاف على العام 2000[44]. تؤكد عدة تقارير أخرى أن الاضطرابات الاجتماعية تكتسب على ما يبدو زخما ردا على عدم المساواة الاقتصادية[45]، والظروف البيئية التي لا تطاق[46]، والمعارضة ضد مصادرة الأملاك وغيرها من الانتهاكات التي يقوم بها الزعماء المحليون والإقليميون المستبدون[47]. ويعود الارتفاع الملحوظ في الأجور في العامين الماضيين[48] جزئيا إلى عدم الرضا والاضطرابات - لاسيما بين صفوف العمال المهاجرين داخليا.

(*) Morgan Stanley هي إحدى أكبر المؤسسات المصرفية الأمريكية. [المحررة].

وقد حذر بعض العلماء ضد الانحياز الغربي في التنبؤ السابق لأوانه بعدم الاستقرار في البلدان التي لا تكتسب حكوماتها الشرعية الديموقراطية. في الصين، وفقا لبعض الخبراء، يمكن أن تستمد الشرعية من مصادر أخرى إلى جانب الطابع التشاركي للنظام في البلاد[49]. منذ عصور الفيلسوف كونفوشيوس، والشرعية تكتسب في نظر الشعب عندما تكون السياسات المطبقة ناجحة، وعندما يكون أصحاب المناصب في السلطة قد كسبوا هذه السلطة عن أهلية وجدارة، وعندما يقدمون برجاحة تفكيرهم إثباتا أن اختيارهم كان صحيحا.

إن هذه المصادر الشرعية بالتحديد هي الأكثر عرضة للخطر الآن في الولايات المتحدة. التراجع الحاد في ثقة الشعب بالحكومة على جميع المستويات - وثقة الشعب بمعظم المؤسسات الكبيرة - يستند بدرجة كبيرة إلى اقتناع الناس بأنها جميعها فشلت في إنتاج السياسات والنتائج الناجحة. البروز السابق لصنع القرار المستند إلى العقل في النظام الديموقراطي الأمريكي كان المصدر الأكبر للقوة. إن قدرة الولايات المتحدة، بتعداد سكانها الذي لا يتجاوز الـ 5 في المائة من تعداد سكان العالم، في قيادة العالم لهذه الفترة الطويلة من الزمن تعود بدرجة لا يستهان بها إلى الإبداع والجرأة والفعالية في صنع قرارها في الماضي.

ومن المفارقات، فإن النمو الاقتصادي في الصين منذ إصلاحات دنغ شياو بينغ، التي أُطلقت في العام 1978، لم يأت من خلال تبنيه نموذجا صينيا من الرأسمالية فحسب، بل أيضا من خلال انتصاره الفكري داخل اللجنة المركزية الصينية في الدعوة إلى التحليل المستند إلى العقل بوصفه مبررا للتخلي عن العقيدة الاقتصادية البالية - ومهارته السياسية في تصوير هذا التحول الجذري بأنه ببساطة يعيد التأكيد على المبدأ الماوي. في الخطاب الذي ألقاه في مؤتمر الجيش العام في السنة التي بدأت فيها إصلاحاته، قال دنغ «أليس صحيحا أن البحث عن الحقيقة من الوقائع، والانطلاق من الواقع ودمج النظرية مع الممارسة يشكل المبدأ الأساسي لفكر ماو تسي تونغ؟»[50].

أحد أسباب نهضة الولايات المتحدة خلال القرنين الأولين وتبوئها هذا الموقع البارز بين الأمم هو أن الديموقراطية الأمريكية أظهرت عبقرية في «البحث عن الحقيقة من الوقائع». مع مرور الوقت، أنتجت قرارات وسياسات أفضل لتعزيز

مصالحهـا الوطنية أكثر من أي دولة أخرى. النقاشـات الحامية التي تدور في كَنَف المؤسسـات الديموقراطية السـليمة التي تعمل بشـكل صحيح تؤدي إلى مبادرات خلاقة وذات بصيرة نافذة أكثر مما يمكن أن ينتجه أي نظام آخر للحكم.

لكن للأسـف، الولايـات المتحدة لم يعـد لديها حكم ذاتي يعمل بشـكل جيد. وباسـتخدام عبارة شائعة في صناعة برامج الكمبيوتر، يمكن القول إنه جرت قرصنة الديموقراطية الأمريكية. كونغرس الولايات المتحدة، الذي يجسد الهيئات التشريعية الوطنية المنتخبة ديموقراطيا في العالم الحديث، عاجز الآن عن تمرير قوانين من دون الحصول على إذن من مجموعات الضغط التابعة للشركات والمصالح الخاصة الأخرى التي تتحكم في عمليات تمويل حملاتها الانتخابية.

اليد الطولى للشركات

من الشـائع الآن بالنسبة إلى المحامين الذين يمثلون جماعات الضغط في الشركات الحضور في جلسـات الصياغة الفعلية التي تجـري فيها كتابة التشريعات[51]، وتقديم لغة دقيقة للقوانين الجديدة التي تهدف إلى إزالة العقبات التي تعترض سبيل الخطط التجاريـة لشركاتهم - عادة عن طريق تخفيف أحـكام القوانين واللوائح الحالية التي تهدف إلى حماية المصلحة العامة ضد التجاوزات والانتهاكات الموثقة. في أغلب الأحيان تعطـي العديد من المجالـس التشريعية في الولايات الأمريكية موافقتها الآن بشـكل روتيني على القوانين[52] التي صاغتها في مجملها مجموعات الضغط في الشركات.

ولأنني شـغلت منصب مسؤول منتخب في الحكومة الاتحادية للربع الأخير من القـرن العشرين، وبما أنني لاحظت ذلك من كثب قبل تلك الفترة وبعدها، أصابني شـعور بالصدمة والفزع من السرعة التي كادت فيها نزاهـة وكفاءة الديموقراطية الأمريكيـة أن تنهار. كانت هناك فترات أخرى في التاريـخ الأمريكي عندما هيمنت الثروة وسـلطة الشركات على عمليات الحكومة، ولكن هناك أسبابا تدعو إلى القلق من أن هذا قد يكون أكثر من ظاهرة دورية - لاسـيما القرارات الأخيرة التي تؤسس لهيمنة وسيطرة الثروة وسلطة الشركات.

هذا الشـلل الذي أصاب الديموقراطية يأتي في وقت من التغيير الكاسح والهائج في النظام العالمي، في وقت لم يسبق إن كانت فيه الحاجة إلى دعوة الولايات المتحدة

إلى المبادئ الديموقراطية والقيم الإنسانية أكبر مما هي عليه الآن. القرارات الحاسمة التي تواجه العالم من غير المرجح أن تتخذ بشكل جيد، أو أن تتخذ على الإطلاق، من دون زعامة الولايات المتحدة الجريئة والخلاقة. لذا من المهم بصفة خاصة استعادة نزاهة الديموقراطية في الولايات المتحدة. ولكن من أجل القيام بذلك، من الضروري إجراء تشـخيص دقيق للأسـباب التي أدت إلى انحرافها عن مسارها على هذا النحو الخطير. تحول السلطة من الديموقراطية إلى الأسواق والشركات له تاريخ طويل.

بشـكل عام، الحرية السياسية والحرية الاقتصادية يعزز كل واحد منهما الآخر. النموذج الجديد الذي ولد في عهد الصحافة المطبوعة كان يستند إلى مبدأ أن الأفراد كانوا يتمتعون بالكرامة، وعندما يتسلحون بالتدفق الحر للمعلومات يمكنهم عندها رسـم خطوط مصائرهم الخاصة في المجالين السياسي والاقتصادي عن طريق تجميع حكمتهـم الجماعية عبر انتخابات منتظمة للنواب، وعبر «اليد الخفية» لسياسـتي العرض والطلب.

عـلى مر التاريـخ، كانت الرأسـمالية تفضي إلى مسـتويات أعلى مـن الحرية السياسـية والحرية الدينية أكثر من أي وسـيلة أخرى لتنظيم النشـاط الاقتصادي. ولكن التوترات الداخلية في الأيديولوجية المركبة للرأسمالية الديموقراطية كانت دائما حـاضرة وكثيرا مـا كان يصعب التوفيق فيما بينها. تماما مثلما كان يخشى مؤسسـو أمريكا من مسألة السـلطة السياسية المركزية، كذلك كان العديد منهم قلقين أيضا بشأن تأثير السلطة الاقتصادية الشديدة المركزية - ولاسيما في شكل الشركات.

أقـدم شركـة لاتزال تعمـل حتى الآن هي شركة أنشـئت في السـويد في العام 1347[53]، علـما بأن الوضع القانوني لها لم يصبح معمما حتى القرن السـابع عشر، عندما سـمحت كل من هولندا[54] والمملكة المتحدة([55] بانتشار مواثيق الشركات، وخصوصا بغية الاسـتثمار التجاري إلى ومن المسـتعمرات الجديدة في الخارج. بعد سلسـلة من عمليات الاحتيال المذهلة وغيرها مـن الانتهاكات، بما في ذلك فضيحة شركة سـاوث سي (بحر الجنوب)[56] (التي أنجبت مفهوم «الفقاعة» الاقتصادي)، فرضـت إنجلترا حظرا على الشركات في العـام 1720[57] (لم يرفع الحظر حتى العام 1825[58] عندما تطلبت الثورة الصناعية «رسملة» شركات السكك الحديد والشركات الجديدة الأخرى لاستثمار التكنولوجيات الناشئة).

كانت القوى الثورية الأمريكية مدركة تماما لهذا التاريخ وأجازت تأسيس الشركات أصولا في الأغلب لغايات مدنية وخيرية، وفقط لفترات محدودة من الزمن[59]. أما الشركات التجارية فجاءت في وقت لاحق استجابة للحاجة إلى جمع رؤوس الأموال للتصنيع.

بالإشارة إلى التجربة الإنجليزية، كتب توماس جيفرسون في رسالة إلى السناتور الأمريكي جورج لوغان من ولاية بنسلفانيا في العام 1816، «آمل أن نتنبه من هذا المثال ونسحق أرستقراطية شركاتنا الغنية في مهدها التي تجرأت بالفعل على تحدي حكومتنا في اختبارٍ للقوة ومحاولة تحدٍ لقوانين بلادنا»[60].

بين العامين 1781 و1790 ازداد عدد الشركات بطلب ضخم من 33 إلى 328 شركة[61]. ومن ثم في العام 1811، سنّت ولاية نيويورك أول قانون أساسي من مجموعة من القوانين[62] التي سمحت بانتشار الشركات من دون قيود محددة وضيقة تفرضها الحكومة.

مادامت الأغلبية العظمى من الأميركيين كانوا يعيشون ويعملون في المزارع، ظلت الشركات صغيرة نسبيا، وكان تأثيرها في ظروف العمل ونوعية الحياة محدودا نسبيا. ولكن خلال الحرب الأهلية، ازدادت قوة الشركات بشكل كبير مع تعبئة الصناعة الشمالية[63]، وعقود الشراء الحكومية الضخمة[64]، وبناء السكك الحديد[65]. في السنوات التي أعقبت الحرب، نما دور الشركات في الحياة الأمريكية بشكل سريع[66]، كما نمت معه أيضا مساعي الشركات الرامية إلى السيطرة على القرارات في الكونغرس والمجالس التشريعية في الولايات[67].

الانتخابات التي شابتها عمليات التزوير في العام 1876[68] (التي تأزمت ليلة الانتخابات بسبب بطاقات الاقتراع الانتخابية المتنازع عليها في ولاية فلوريدا)، جرت تسويتها، وفقا للمؤرخين، في مفاوضات سرية أدت فيها ثروة وسلطة الشركات دورا حاسما[69]، الأمر الذي هيأ الأرضية لفترة من إبرام صفقات مشبوهة قادت في نهاية المطاف بالرئيس الجديد، رذرفورد بي. هييز، إلى الاحتجاج بقوله إن «هذه الحكومة لم تعد بعد الآن حكومة الشعب، ومن الشعب وإلى الشعب. إنها حكومة الشركات، ومن الشركات، وإلى الشركات»[70].

مع انطلاق الثورة الصناعية لإعادة تشكيل أمريكا، أصبحت الحوادث الصناعية أمرا شائعا. بين العامين 1888 و1908 لقي 700 ألف عامل أمريكي[71] حتفهم

في حــوادث صناعية، بمــا يقارب 100 حادثة في اليــوم[72]. فضلا عن ظروف العمل القاســية، كان أرباب العمل يبخســون العمال أجرهم قدر الإمكان. أثارت مساعي الموظفــين لوقف هذه الانتهاكات عن طريق تنظيم الإضرابات والســعي وراء إقرار تشريعات حمائية رد فعل عنيفا من قبل أصحاب الشركات. ضربت الشرطة الخاصة بيد مــن حديد أولئك الذيــن كانوا يحاولــون تنظيم النقابــات العمالية، وفاضت أروقة مباني الكونغرس الأمريكي والمجالس التشريعية في الولايات بحشــود المحامين وجماعات الضغط[73].

عندما بدأت الشركات توظيف جماعات الضغط للتأثير في صياغة القوانين، كان رد الفعل الأولي بالتأفف من ذلك. في العام 1853، أبطلت المحكمة العليا في الولايات المتحــدة مفعول عقد طوارئ وجعلته غير قابل للتنفيــذ[74]، لأن جماعات الضغط كانت مشــتركة فيه - ويعود ســبب ذلــك جزئيا إلى أن ممولي العقــد قاموا بتأمين الأموال سرا. وخَلص القضاة إلى أن ممارســات الضغوط هذه كانت تضر بالسياســة العامة لأنها «تميل إلى إفساد أو تلويث نزاهة مؤسساتنا السياسية من خلال ممارسة الضغوط غير الســليمة» و«تدنيس الطهارة أو تضليل أحكام الأشخاص الذين وضع التشريــع فيهم أعــلى درجات الثقة» بوجود «تأثيرات غير مــبررة»، ولها «كل الآثار المجحفة للاحتيال المباشر على الجماهير»[75].

بعد عشرين عاما، واجهت المحكمة العليا في الولايات المتحدة المسألة مرة ثانية، وذلك بإبطــال عقود طوارئ لجماعات الضغط بهذه الكلــمات: «إذا كانت أي من الشركات الكبرى في بلادنا تنوي توظيف تجار مغامرين يصنعون أســواقا لأنفســهم بهــذه الطريقة، لشراء إقرار قانون عام بهدف تعزيز مصالحهم الخاصة، فإن الوازع الأخلاقي لكل رجل عاقل ســوف يستنكر غريزيا أرباب العمل وعمالهم لانغماسهم في الفســاد، وباعتبار الوظيفة مسيئة إلى الســمعة. إذا كانت هذه الحالات عديدة، وإذا فتحنا لها المجال وغضضنا الطرف عنها، فإنها ســتعتبر قياسا على فساد الأخلاق العامة[76] وانحطاط العصر». حظر دســتور ولاية جورجيا الجديد صراحة ممارســة الضغط[77] على المشرعين.

مــع ذلك، نمــا «تعزيز المصالح الخاصــة» في التشريع بسرعــة هائلة مع ازدياد الثروات وتراكمها بشــكل كبير خلال أوج الثورة الصناعية - ومع تزايد تأثير القوانين

العامة في فرص الشركات. في عهد رجال الأعمال الأثرياء وأصحاب النفوذ (Robber Baron era) في الفترة الواقعة بين ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، وفقا للتاريخ المحدد لماثيو جوزيفسون، «تحولت قاعات التشريع إلى أسواق تجارية تجري فيها المساومة على أسعار شراء الأصوات، وبيع وشراء القواني[78] المفصلة وفق الطلب».

وفي هذه المرحلة الفاسدة بالذات صنَّفت المحكمة العليا في الولايات المتحدة للمرة الأولى الشركات بأنها «الأشخاص» أصحاب الحق في بعض قوانين الحماية في التعديل الرابع عشر للقرار المتخذ في العام 1886 (مقاطعة سانتا كلارا ضد شركة سكك حديد جنوب المحيط الهادئ)[79]. القرار نفسه، الذي جاء في مصلحة شركة سكك حديد جنوب المحيط الهادئ، لم يتناول في الواقع موضوع «شخصانية» الشركات، ولكن اللغة التي يعتقد بعض المؤرخين أنها كتبت بيد القاضي ستيفن فيلد[80] أُضيفت في «الحاشية الرئيسية» للقضية على يد مقرر المحكمة، الذي كان الرئيس السابق لشركة سكك حديد[81]. وأشار رئيس المحكمة العليا قبل جلسة سماع المرافعات الشفوية إلى أن «المحكمة لا ترغب في سماع[82] مرافعات تتناول مسألة ما إذا كان... التعديل الرابع عشر... ينطبق على هذه الشركات. فنحن جميعا متفقون على أنه ينطبق عليها»[83]. (وقد اعتمدت المحاكم العليا المحافظة في أواخر القرن العشرين على هذه السابقة الحمقاء لمبدأ شخصانية الشركات من أجل توسيع «الحقوق الفردية» لتشمل الشركات - وفي قرار منظمة «المواطنين المتَحِدين» في العام 2010).

هذه القضية المحورية لها ارتباط مثير للاهتمام بالنهايات العصبية الأولى لشبكات الاتصالات في جميع أنحاء العالم التي أصبحت في وقت لاحق العقل العالمي. وضع شقيق القاضي فيلد، سايروس فيلد، أول كيبل تلغراف عابر للمحيطات في العام 1858[84]. الشقيق الثالث للأخوين فيلد، ديفيد (الذي نجم عن تبرعاته المالية الكبيرة لدعم حملة انتخاب إبراهام لينكون تعيين شقيقه ستيف قاضيا في المحكمة العليا)[85]، تصادف وجوده في باريس مع عائلته خلال الانتفاضة الشعبية الأولى للطبقة العمالية الاجتماعية في العام 1871، واستخدم كيبل التلغراف لإرسال الأخبار إلى الولايات المتحدة عن أعمال الشغب والفوضى، والمجزرة اللاحقة فور حدوثها[86].

وكانــت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي كانت فيها الولايات المتحدة الأمريكية تواكب حدثا جديدا خارج البلاد وتتابع تطوراته بشكل يومي[87].

على الرغم من أن الثورة الباريســية كانت معقدة الأسباب (بما في ذلك المشاعر المريــرة التي أحاطت بهزيمة الفرنســيين في الحرب الفرنســية - البروســية في ذلك الشــهر والصراع[88] بين الجمهوريين والملكيين)، فقد أصبحت أول اشتباك رمزي بين الشــيوعية والرأســمالية[89](*) كان كارل ماركس قد نشر مجلد «الرأسمالية: دراسة نقدية للاقتصاد الســياسي» قبل أربع سنوات فقط وكتب كتاب «الحرب الأهلية في فرنسا» خلال شهري الثورة الباريسية، قائلا إنه سيجري «تمجيدها إلى الأبد باعتبارها مبشرا عظيما لنشــوء مجتمع جديــد»[90]. وبعد نصف قرن، في جنــازة لينين، كان جســده ملفوفا بالعلمين الأحمــر والأبيض الممزقين والباليــين اللذين كان يرفعهما الباريسيون[91] خلال ثورتهم التي امتدت على مدار شهرين.

لكــن بالقدر الــذي ألهمت به الثورة الباريســية الشــيوعيين، أثارت الرعب في قلوب النخــب في الولايات المتحدة، ومن بينهم القاضي فيلد، الذي كان يتابع بقلق شــديد التقارير اليومية[92] الواردة من شــقيقه والصحافيين في باريس. لاقت الثورة الباريســية تغطية صحافيــة - تقريبا من جميع أعدائها - أكــثر مما لاقته أي قصة أخرى ذلك العام إلى جانب الفساد الحكومي[93]. تعاظم الخوف الذي أثارته الثورة الباريســية بالاضطرابات العمالية التي اندلعت في الولايات المتحدة، لاسيما من قبل العديد الذين جاءوا إلى أمريكا منذ ثلاثينيات القرن التاســع عشر من الدول الفقيرة في أوروبــا بحثــا عن حياة أفضل، ولكنهــم وقعوا ضحية الانتهــاكات غير القانونية في الوظائــف الصناعية ذات الأجور المنخفضة. بعد ذلــك بعامين، غاصت الولايات المتحدة في وحل كساد اقتصادي بإشهار الخبير المالي ورجل الأعمال في مجال السكك الحديد جاي كوك إفلاســه[94]. انخفضت الأجــور إلى درجة أكبر وارتفعت معدلات البطالــة إلى أعلى مســتوياتها. وقد ورد في صحيفة «نيويــورك تايمز» تحذير مفاده: «هنــاك «طبقة اجتماعية خطــيرة» في نيويورك، بدرجة خطــورة تلك الموجودة في باريس، وهي تنــوي فقط الحصول على فرصة أو حافز لنشر الفوضى في الخارج[95] والخراب الذي أحدثته الثورة الفرنسية».

(*) علما بأن ماركس كتب في «البيان الشيوعي» أن الثورة الفرنسية للعام 1848 كانت أول «صراع طبقي».

وفقا للمؤرخين، فإن القاضي فيلد كان متطرفا جدا بفعل الثورة الباريسية وما كان يتخوف منه هو آثارها في الحرب الطبقية في الولايات المتحدة فقرر تبني مسألة تعزيز الشركات[96]. كانت إستراتيجيته تنطوي على استخدام التعديل الرابع عشر الجديد، الذي كان مصمما لمنح حقوق الأفراد الدستورية للعبيد المحررين، كوسيلة لتوسيع حقوق الأشخاص لتشمل الشركات بدلا من ذلك.

بحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حققت سلطة الشركات المركزية درجة مخيفة من السيطرة على الديموقراطية الأمريكية، مما أثار ردة فعل شعبية. عندما أدت الثورة الصناعية إلى الهجرة الجماعية للأمريكيين من المزارع إلى المدن، وازداد القلق العام من التجاوزات والانتهاكات مثل عمالة الأطفال، وساعات العمل الطويلة، والأجور المتدنية، وظروف العمل الخطرة، والأغذية والأدوية غير الآمنة، عمل الإصلاحيون في إطار الديموقراطية على المطالبة بسياسات حكومية جديدة وسبل حماية في السوق التجارية.

بدأت الحركة التقدمية في مطلع القرن العشرين تنفيذ قوانين جديدة لكبح جماح سلطة الشركات، بما في ذلك أول قانون شامل مضاد للاحتكار، وهو قانون شيرمان للعام 1898، على الرغم من أن المحكمة العليا حدت بشكل كبير من دستوريته، مثلما حدت من تطبيق وإنفاذ جميع التشريعات التقدمية تقريبا. في العام 1901، بعد اغتيال الرئيس وليام ماكينلي الموالي للشركات بعد ستة أشهر فقط من فترة ولايته، أصبح ثيودور روزفلت الرئيس بشكل غير متوقع، وفي العام التالي[97] شن هجوما استثنائيا على الاحتكارات وانتهاكات سلطة الشركات المتصلفة.

أنشأ روزفلت مكتب الشركات ضمن وزارة التجارة والعمل الجديدة[98]. وأطلق دعوى لمكافحة الاحتكار لتفكيك شركة جي. بي. مورغان الشمالية للأوراق المالية[99]، التي كانت تضم 112 شركة تبلغ قيمتها مجتمعة نحو 571 مليار دولار (بقيمة الدولار في العام 2012)[100]، في بداية القرن العشرين، وكانت قيمتها تساوي «ضعف ما يساويه مجموع القيمة المقدرة لجميع الأملاك في ثلاث عشرة ولاية[101] في جنوب الولايات المتحدة». وأعقبت ذلك دعاوى أخرى لمكافحة الاحتكار[102] فاقت الأربعين دعوى. وباعتباره مصدرا لا ينضب من الطاقة الرئاسية، أقر روزفلت أيضا قانون الغذاء والدواء السليم، ووفر حماية لأكثر من

230 مليون فدان من الأراضي[103]، بما في ذلك غراند كانيون، وموير وودز، ومحمية غابــة تونغاس - وكل ذلك في أثناء بناء قناة باناما، ونال جائزة نوبل للســلام[104] لحل الحرب الروسية - اليابانية.

اتخذ روزفلت قرارا مصيريا في بداية رئاسته بعدم الترشح لولاية رئاسية ثانية في العام 1908، مشــيرا إلى أنه خدم تقريبا الســنوات الثماني كاملة التي أسسها جورج واشنطن باسم «العرف الحكيم» من خلال تولي الرئاسة لولايتين رئاسيتين فقط[105]. عندمــا تخلى الرئيس الذي اختــاره روزفلت بعناية ليكون خلفا لــه، ويليام هوارد تافــت، عن العديد من الإصلاحــات التي قام بها ثيودور روزفلت[106]، اســتأنفت مســيرة ســلطة الشركات. ردا على ذلك، بدأ روزفلت بتنظيم حملة حزبه التقدمي الــذي حمل اســم ثور المــوظ (Bull Moose) ليحل محل تافــت كرئيس للبلاد في انتخابات العام 1912.

في أكتوبر من العــام 1910، قال روزفلت :«تماما مثلما هددت المصالح الخاصة للقطــن والعبوديــة نزاهة نظامنا الســياسي قبل الحرب الأهليــة، كذلك تقوم الآن المصالح التجارية الكبيرة الخاصة في كثير من الأحيان بالسيطرة وإفساد رجال الدولة وأساليب الحكومة لخدمة مصالحها الخاصة»[107]. بعد ثمانية عشر شهرا، وفي خضم حملة حزبه، قال إن حزبه قد دخل حربا للدفاع عن نفسه:

> يواجه الحزب الجمهوري الآن أزمة كبيرة. وهي تقرير ما إذا سيكون، كما كانت هي الحال أيام لينكون، حزب الشــعب البســيط، حزب التقدم، وحزب العدالة الاجتماعية والصناعية؛ أم ســيكون حزب الامتيــاز والمصالح الخاصة، وريــث أولئك الذين كانوا ألد خصــوم لينكون، والحزب الــذي يمثل المصالح الكبــيرة داخل وول ســتريت وخارجهــا التي ترغب من خلال ســيطرتها على الموظفين من عامة الشعب أن تبقى في مأمن من العقاب وأن تعطَى امتيازات ليست مخولة بامتلاكها[108].

بعــد أن خــسر روزفلت تلك الحملــة مقابل وودرو ويلســون (وجاء تافت في المركز الثالث)، تابع المجاهرة العلنية وبقوة في المناداة لمصلحة الإصلاحات التقدمية والتراجع عن ســلطة الشركات. وقال إن الاختبار الأكثر أهمية في البلاد لايزال «نضال الرجال الأحرار في ســبيل نيل حق الحكم الذاتي والتمســك بــه في مواجهة المصالح

الخاصـة، التي تعبث وتلتف على أسـاليب الحكومة الحـرة[109] لتحويلها إلى أداة لقهر الإرادة الشـعبية». واقترح أن تقوم الولايات المتحدة «بحظر اسـتخدام أموال الشركات[110] سواء بشكل مباشر أو غير مباشر لخدمة أغراض سياسية»، وفي خطاب تلو الخطاب، كان يؤكد أن الدسـتور «لا يعطي حق الاقتراع العام لأي شركة»[111]. يرجع الفضل جزئيا إلى دفاعه القوي، في اكتسـاب الحركـة التقدمية القوة، وإقرار التعديل الدسـتوري لرفع الحظر الذي فرضته المحكمـة العليا ضد ضريبة الدخل، وسن ضريبة الميراث، وسن عديد من الأنظمة لكبح جماح انتهاكات الشركات.

اسـتمرت العديد من الإصلاحات التقدمية خلال رئاسة وودرو ويلسون، ولكن النـواس عاد إلى الـوراء نحو هيمنة الشركات عـلى الديموقراطية في ظل إدارة وارن هاردينـغ - التـي عرفت بفسـادها، الذي شـمل فضيحة تيبـوت دوم (Teapot Dome) التي قام فيها رؤسـاء تنفيذيون لشركات نفطية خاصة برشـوة مسـؤولين في إدارة الرئيـس هاردينـغ سرا[112] للحصول على النفـط في الأراضي الواقعة ضمن أملاك الدولة.

بعد ثلاثة رؤساء جمهوريين مؤيدين للشركات، أطلق الرئيس فرانكلين روزفلت الموجـة الثانيـة من الإصلاح عندما تـولى منصبه في العـام 1933 في خضم المعاناة التي سـببها الكساد الأعظم الذي ساد بسبب انهيار سـوق الأسهم في العام 1929. الصفقة الجديدة(*) وسّعت من نفوذ السلطة الفدرالية في السوق التجارية بدرجة هائلة وعلى نطاق واسـع. ولكن مرة أخرى عطلت المحكمة العليا المحافظة العديد من المبادرات التقدمية، باعتبارها غير دسـتورية. وكان الرئيس ثيودور روزفلت قد أعلـن أن القضاة هم «مصدر خطر على خير ورفاه الأمة»[113]، وكذلك فعل الرئيس فرانكلـين ديلانـو روزفلت FDR. ولكنه ذهب أبعد من ذلـك، واقترح خطة لدعم المحكمة بإضافة عدد من القضاة إلى المحكمة في محاولة منه للحد من قوة الأغلبية المؤيدة لقطاع الأعمال.

يختلـف المؤرخون حول ما إذا كان تهديد روزفلت هو السـبب[114] أم لا، إذ بعد بضعة أشـهر تراجعت المحكمـة العليا عن مواقفها وبـدأت بالمصادقة على

(*) الصفقـة الجديدة (New Deal) هي مجموعة من البرامج الاقتصادية التي تضمنت مراسـيم رئاسـية وقوانين أعدها الكونغرس في الفترة من العام 1933 حتى العام 1936 في أثناء رئاسة فرانكلين روزفلت. [المحررة].

دستورية[115] معظم المقترحات الجديدة الخاصة بالصفقات. إلى يومنا هذا، يصف بعض الدعاة القانونيين من الجناح اليميني هذا التحول في المحكمة بأنه «خيانة». في القرن الحادي والعشرين، يحاول الناشطون القضائيون من جناح اليمين إعادة أحكام المحكمة إلى الفلسفة التي كانت سائدة قبل صدور مجموعة برامج «الصفقة الجديدة»[116].

على الرغم من المبادرات التي أطلقها فرانكلين ديلانو روزفلت FDR، وجدت الولايات المتحدة صعوبة في تجنب الأوقات الصعبة، وانزلقت مرة ثانية في فترة كساد في العام 1938. ثم عندما تحركت أمريكا للرد على التهديد الشمولي الآتي من ألمانيا النازية واليابان الإمبريالية، انتهى الكساد أخيرا. بعد أن خرجت الولايات المتحدة منتصرة، استمر توسعها الاقتصادي اللافت لأكثر من ثلاثة عقود. بحلول ذلك الوقت، نال الإجماع لمصلحة دور موسع للحكومة الاتحادية في معالجة المسائل الوطنية تأييد أغلبية الناخبين على مختلف أطيافهم السياسية.

ولكن في العقد المضطرب من ستينيات القرن العشرين، زُرعت بذور حركة مناهضة للإصلاح بقيادة الشركات. بعد اغتيال الرئيس جون إف. كينيدي في خريف العام 1963، اجتاحت البلاد مجموعة متنوعة من حركات الإصلاح الاجتماعي - التي كانت مدفوعة جزئيا بالطاقة الهائجة والمثالية لدى جيل الطفرة الهائلة من مواليد ما بعد الحرب الذين دخلوا من فورهم مرحلة الشباب. حركة الحقوق المدنية، والحركة النسوية، والمظاهرات الأولى لحقوق المثليين، وحركة حقوق المستهلك، وحرب ليندون جونسون على الفقر، والاحتجاجات المتصاعدة ضد استمرار الحرب بالوكالة غير المدروسة ضد الشيوعية في جنوب شرق آسيا، اجتمعت كلها لإنتاج رد فعل خائف من قبل مصالح الشركات والأيديولوجيين المحافظين.

تماما مثلما أسهمت الثورة الباريسية في تطرف القاضي ستيفن فيلد قبل 100 عام، كذلك أيضا أثارت الحركات الاجتماعية في الولايات المتحدة خلال ستينيات القرن العشرين الخوف من انتشار الفوضى، وأدت إلى تطرف جيل من الأصوليين في سوق الجناح اليميني، وغرست شعورا لدى القاضي الذي سيصبح قاضي المحكمة العليا قريبا لويس باول بوجود مهمة في انتظاره. اشتهر باول، وهو محامي مقاطعة ريتشموند[117] حينها، بتمثيله شركات صناعة التبغ بعدما أعلن رئيس الأطباء

الجراحين في العام 1964 أن تدخين السجائر له علاقة بالإصابة بمرض سرطان الرئة، وكتب في العام 1971 مذكرة مطولة وتاريخية لغرفة التجارة الأمريكية عرض فيها خطة شاملة للقيام بجهد مستدام طويل الأجل ممول بشكل كبير لتغيير طبيعة الكونغرس الأميركي، والمجالس التشريعية في الولايات، والقضاء من أجل ترجيح كفة الميزان[118] لمصلحة الشركات. جرى تعيين باول في المحكمة العليا على يد الرئيس نيكسون بعد شهرين - علما بأنه لم يتم الإفصاح عن خطته المقدمة لغرفة التجارة بشكل علني إلا بعد فترة طويلة من جلسات الاستماع التي أكد فيها ذلك. كان باول، الرئيس الأسبق لكلية محامي المحاكمات الأمريكية، يحظى باحترام على نطاق واسع، حتى من قبل خصومه الأيديولوجيين. ولكن توسيعه الشرس لحقوق الشركات كان التطور الأكثر أهمية خلال فترة ولايته في المحكمة.

أصدر القاضي باول قرارات أدت إلى ابتكار مفهوم جديد هو «خطاب الشركات» الذي قام بتأسيسه ليكون محميا وفق التعديل الأول للدستور[119]. ثم استخدمت المحكمة هذا المبدأ لإبطال عديد من القوانين التي كانت تهدف إلى الحد من سلطة الشركات عندما تتعارض مع المصلحة العامة. في العام 1978، على سبيل المثال، كتب القاضي باول رأيه في القرار الرقم 5 - 4 أنه للمرة الأولى يجري إبطال قوانين حكومية تحظر استخدام أموال الشركات في الانتخابات (وهو استفتاء المواطنين في ولاية ماساشوستس) على أرضية أن القانون ينتهك حرية التعبير «لأشخاص الشركات»[120]. بعد 32 عاما من ذلك، اعتمدت المحكمة العليا في الولايات المتحدة على رأي باول، وذلك بالسماح للمانحين من الأشخاص الأثرياء في المساهمة بمبالغ غير محدودة لدعم الحملات الانتخابية سرا، فضلا عن توسيع قانون جنوب المحيط الهادئ للعام 1886 الذي لم يسبق له مثيل في اعتبار الشركات بمنزلة الأشخاص.

ولئن كان صحيحا أن الشركات مؤلفة من أفراد، فإن سخافة النظرية القانونية القائلة بأن الشركات هي «أشخاص» كما هو محدد في الدستور، تتكشف بشكل واضح من المقارنة بين طبيعة ودوافع الشركات الأساسية وطبيعة البشر المكونة من لحم ودم. معظم الشركات المرخصة قانونيا من قبل الدولة يكون لها أمر رسمي بالتركيز بدقة على المصالح المالية للمساهمين فيها. وهذه الشركات تكون أبدية

نظريـا وغالبا ما يكون في متناولها كميات طائلة من الثروة. لدى خمســة وعشرين شركة متعددة الجنســيات مقرها الولايات المتحدة عائدات تفوق تلك التي تمتلكها العديــد من الدول القومية في العالم[121]. أكثر من نصف (53) الاقتصاديات الكبيرة البالــغ عددها 100 الموجودة على وجــه الأرض الآن هي من الشركات. عندما ننظر في حجم إيرادات وأرباح شركة إكســون موبيل، وهي واحدة من كبرى الشركات في العالم، نجد أن لها تأثيرا اقتصاديا يفوق تأثير دولة كالنرويج.

الأفــراد قادرون على اتخاذ القــرارات التي تعكس عوامــل أخرى غير المصلحة الذاتية المالية الضيقة؛ فهم قادرون على الشعور بالقلق حيال المستقبل الذي سيرثه أبناؤهم وأحفادهم - ليس فقط المال الذي سيتركونه لهم في وصاياهم بعد رحيلهم؛ قرر مؤسســو أمريكا كأفراد، على سبيل المثال، أن ينذروا «حياتنا، وثرواتنا، والشرف المقدس» لقضيــة تعتبر أنبل بكثير من المال. أما الشركات «الأشــخاص»، من ناحية أخـرى، فتبدو الآن أنها لا تعير في كثير من الأحيــان إلا أهمية قليلة لكيفية تقديم المســاعدة للبلد الذي تتمركز فيهــا؛ فَهمها الوحيد هو كيف يمكــن لذلك البلد أن يساعدها في كسب مزيد من المال.

في أحد الاجتماعات في شركة صناعات نفطية في واشنطن العاصمة، طرح الرئيس التنفيذي لشركة أخرى على الرئيس التنفيذي لشركة إكسون حينها، لي ريموند، فكرة بنــاء طاقة تكرير إضافية داخــل الولايات المتحدة «للحماية» ضد أي نقص محتمل في مادة البنزين. وفقا للحاضرين في ذلك الاجتماع، أجاب ريموند: «أنا لســت شركة أمريكيــة ولا أتخذ قرارات اســتنادا[122] إلى ما هو أفضــل للولايات المتحدة». يعيد تصريــح ريموند هــذا إلى الأذهان التحذير الذي أطلقه توماس جيفرســون في العام 1809، بعــد أقل من شــهر من مغادرته البيت الأبيــض، عندما كتب إلى جون جاي عــن «الروح الأنانية للتجارة، التي لا تنتمي إلى أي بلد، ولا تشــعر بالعاطفة وليس لها مبدأ سوى الكسب».

مــع ظهور شركة الأرض، اكتســبت الشركات المتعددة الجنســيات أيضا القدرة عــلى جعل الــدول القومية تتنافــس بعضها ضد بعض، وتحديــد مرافق في ولايات قضائيــة بأجور منخفضة وبقيود مخففة على حريتهــا في العمل كما يحلو لها. قال الرئيــس الراحل لمعهد كاتو التحرري، وليام نيســكانن: «أصبحت الشركات قوية ما

يكفي لتشكيل خطر يهدد الحكومات»، وأضاف قائلا إن هذه هي «الحال بصفة خاصة بالنسبة إلى الشركات متعددة الجنسيات، التي سوف تعتمد بدرجة أقل على أوضاع[123] بعض الحكومات، وتكون بالتالي أقل ولاء بهذا الاتجاه». في العام 2001، طلب رئيس وزراء الهند مانموهان سينغ من الرئيس جورج دبليو بوش التأثير في القرار المتوقف على شركة إكسون موبيل بشأن السماح لشركة نفط مملوكة للدولة في الهند في الدخول في مشروع مشترك يشمل شركة النفط وحكومة روسيا. فأجابه بوش: «لا أحد يستطيع أن يملي على هؤلاء فعل أي شيء»[124].

يعتقد أولئك الذين ينادون بتوسيع قطاع السوق على حساب السلطة الديموقراطية أنه قلما ينبغي على الحكومات أن تكون لها السلطة بأن تأمر الشركات «بما يجب القيام به». على مدى الأربعين سنة الماضية، وبموجب خطة باول، لم تركز الشركات والأيديولوجيون المحافظون على اختيار قضاة المحكمة العليا المؤيدين لقضيتهم والمؤثرين في قرارات المحكمة فحسب، وإنما أيضا سعوا بجهود حثيثة إلى التأثير في صياغة القوانين وتشكيل السياسات لتوسيع سلطة الشركات. وقد عملوا على زيادة إعلانات الشركات التي تستهدف التأثير في الرأي العام إلى درجة كبيرة. كما زادوا عدد عناصر مجموعات الضغط بشكل ملحوظ للاستفادة منهم في متابعة مصالحهم في واشنطن العاصمة وعواصم الولايات. كما رفعوا من سقف مساهماتهم المالية في الحملات الانتخابية للمرشحين الذين تعهدوا بدعم أجندتهم.

في غضون عقد واحد فقط من الزمن، تضخم عدد لجان العمل السياسي الخاصة بالشركات[125] من أقل من 90 إلى 1500 لجنة. ارتفع عدد الشركات التي لها جماعات ضغط مسجلة من 175 إلى 2500. ومنذ ذلك الحين، والعدد يواصل ازدياده بشكل هائل؛ وقد ارتفعت النفقات المسجلة لجماعات الضغط[126] من 100 مليون دولار في العام 1975 إلى 3.5 مليار دولار سنويا في العام 2010[127]. (تواصل غرفة التجارة الأمريكية تصدرها لقائمة نفقات جماعات الضغط[128]، بنفقات تصل إلى أكثر من 100 مليون دولار في السنة - وهذا الرقم يفوق مجموع نفقات جماعات الضغط عندما وضعت خطة باول[129] لأول مرة). أحد المقاييس لمعرفة السرعة التي تتغير بها المواقف تجاه ممارسة الضغط في الثقافة السياسية لواشنطن هو أنه في سبعينيات القرن العشرين، حصل 3 في

المائة فقط من المتقاعديـن من أعضاء الكونغرس[130] على وظائف في جماعات الضغـط؛ أما الآن، فقـد أصبح أكثر من 50 في المائة مـن المتقاعدين من أعضاء مجلس الشيوخ وأكثر من 40 في المائة[131] من أعضاء مجلس النواب المتقاعدين أعضاء في جماعات الضغط.

لم تكن خزائن الشركات على الإطلاق المصدر الوحيد لتمويل الجهود المنسجمة مع خطة بـاول. كان هناك عديد من الأفراد المحافظين الأثرياء والمؤسسـات التي أصبحـت راديكالية أيضا في سـتينيات القـرن العشرين، والتي وصفهـا باول بأنها «الحرب الأيديولوجية[132] ضد نظام المؤسسـات وقيـم المجتمع الغربي». وعندما طَالبَ باستجابة منظمة وممولة جيدا من قبل «الشركات للرد على العدوان الشامل على اقتصادياتها الأساسـية، وعلى فلسـفتها، وعلى حقها في إدارة شؤونها الخاصة، بـل وعلى نزاهتهـا»، نهض العديد من الزعماء المحافظين في مجـال التجارة لتلبية طلب باول.

جون م. أولين، على سـبيل المثال، رد على الاسـتيلاء المسلح الذي قام به الطلاب السود المتشـددون على أحد مباني الحرم الجامعي في جامعة كورنيل، مدرسته الأم، بتوجيه مؤسسته الثرية لدعم المؤسسـات الفكرية اليمينية ومجموعة متنوعة من جهود الجناح اليمينـي لتغيير طابع الحكومة الأمريكية[133]. وشرع في إعداد خطة ليس فقط لإنفاق الدخل السنوي من هبات مؤسسته، ولكن أيضا لإنفاق رأس المال بكامله بالسرعة الممكنة لتحقيق أقصى قدر من التأثير[134]. موّلت عدة مؤسسـات يمينية أخرى أيضا الجهود المنسجمة مع خطة باول، بما في ذلك مؤسسة ليند وهاري برادلي[135] ومؤسسة أدولف كورس[136].

ربمـا كان الجزء الأكثر فعالية من إسـتراتيجية المحافظين الممولة بشـكل كبير يتركز على ملء المحاكم الفدرالية - ولاسـيما المحكمـة العليا في الولايات المتحدة - بالحلفاء الأيديولوجيين. أشـارت خطة بـاول على وجه التحديد: «في ظل نظامنا الدسـتوري، وخصوصا بوجود محكمة عليا ناشـطة في تفكيرها، قد تكون السلطة القضائيـة أهـم أداة للتغيير الاجتماعي والاقتصادي والسـياسي... وهذه فسـحة واسـعة من الفـرص لغرفة التجـارة... إذا كانت الأعمال التجاريـة، بدورها، على استعداد لتوفير الأموال»[137].

وبالتالي، أصبحت مصالح الشركات نشـطة على نحو لافت ومثابرة في ممارسـة الضغـط لتعيين القضـاة في المحكمة ممن يمكن أن يسـتجيبوا بسرعـة للنظريات القانونية المحافظة التي تقلص الحقوق الفردية، وتقيد نطاق الديموقراطية، وترتقي بحقوق وحريـة العمل لخدمة الشركات. كما أنها أسسـت كليات حقوق محافظة لتدريـب جيل كامل من دعاة مكافحة الإصلاح، وشـبكة من المؤسسـات القانونية للتأثير في مسار الفقه (القانون) الأمريكي. وصلت الأمور إلى درجة أن اثنين من قضاة المحكمة العليا في الولايات المتحدة أمضيا عطلات بتمويل من الشركات، في منتجعات قدمت لهما دروسا قانونية في ندوات نظمتها مصالح الشركات الغنية[138].

وفي هذه الأثناء، أنشـأت الحركة المضادة للإصلاح ذات التنظيم العالي والممولة تمويلا جيدا ومولت أيضا مؤسسات الفكر والأبحاث المكلفة بتقديم مبادرات بحثية وسياسـية مصممة لتعزيـز مصالح الـشركات. بالإضافة إلى ذلـك، موّلت عمليات اسـتحداث حركات سياسـية على المسـتوى المحلي، ومسـتوى الولاية، والمسـتوى الوطني. وخلال الثمانينيات والتسـعينيات من القرن العشرين، شنت هذه الحركة معارك ضارية لتعيين معارضين لسياسـات الحكومة الصارمة في المجالس التشريعية للولايـات، وفي الكونغـرس، وفي البيت الأبيض. كان فوز رونالد ريغان على حسـاب جيمي كارتر أول انتصار مِفْصَلي لها، كما عزز الاسـتيلاء على الكونغرس في منتصف التسعينيات من القرن الماضي قدرتها على إيقاف معظم الإصلاحات التقدمية.

سياسـات الرئيـس فرانكلـين ديلانو روزفلـت FDR - التي كانـت، في معظم الأحوال، تحظى بدعم الرؤساء وأعضاء الكونغرس من كلا الحزبين لعقود عديدة من الزمن - كانت في أحد أوجهها ضحية لنجاحها. مع ارتقاء عشرات الملايين إلى الطبقة الوسطى، فقد كثيرون حماسهم تجاه استمرار تدخلات الحكومة، وأحد أسباب ذلك هو أنهم بدأوا بمعارضة معدلات الضرائب اللازمة لدعم دور أكثر صرامة للحكومة في الاقتصـاد. فقدت الاتحادات العمالية، التي تعتبر واحدة من القوى المنظمة القليلة التي تؤيد اسـتمرار الإصلاح، الكثير مـن أعضائها مع هجرة مزيد من الوظائف من قطاع التصنيع إلى قطاع الخدمات، ومع تفريغ الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة من مضمونها بفعل الاسـتعانة بالعمالة الخارجيـة والروبوتات. لقد تغيرت طبيعة القوة الاقتصادية الأمريكية ومصادرها على مدى العقود العديدة الماضية مع تراجع

عمليــات التصنيع. لا يمكن دفع الرافد الأمريــكي في شركة الأرض عن طريق الأجور فقط - فالاستثمار مهم بطبيعة الحال – ولكن الانعطاف نحو ذلك مهم، ولم نرَ سوى القليل من هذا القبيل.

الأيديولوجيــة الســائدة في الولايــات المتحدة – الرأســمالية الديموقراطية - تحولت بشــكل جذري عن محورها ببطء في البداية، لكنها اكتســبت مزيدا من الزخْــم فيما بعد. خــلال عقود الصراع مع الشــيوعية، كان التلاحم الداخلي بين مجالي الديموقراطية والرأسمالية قويا بشكل بارز. لكن عندما اختفت الشيوعية كأيديولوجيــة منافســة وأصبحت الرأســمالية الديموقراطية هــي الأيديولوجية المختــارة في معظــم أنحاء العالم، عــاد التوتر الداخلي بين المجــال الديموقراطي والمجال الرأســمالي إلى الظهور من جديد. مع تســارع وتيرة العولمة الاقتصادية، بذلــت الشركات المتعددة الجنســيات المســاعي الحثيثة مــن دون كلل أو ملل لتحقيــق ضرورات العمــل. مع الحماس بفرحــة الانتصار والمــوارد الهائلة التي أصبحــت متاحة لمواصلة تنفيذ خطة باول، شرعــت الشركات والقوى في تقليص دور الحكومة في المجتمع الأميركي وتعزيز قوة الشركات.

بدأ أصوليو السوق في الدعوة إلى إعادة توزيع سلطة صنع القرار من العمليات الديموقراطية إلى آليات السوق. كانت هناك مقترحات لخصخصة المدارس، والسجون، والمستشــفيات العامة، والطرق السريعة، والجســور، والمطارات، ومؤسسات المياه والكهرباء، والشرطــة، والإطفاء، وخدمات الطوارئ، وبعض العمليات العســكرية، وغيرها من الوظائف الأساســية التــي كانت تُدار عن طريــق الحكومات المنتخبة ديموقراطيا[139] وتحويلها إلى شركات.

عــلى النقيض من ذلــك، فإن أي اقــتراح كان يتطلب بالفعل بــذل الجهد من الســلطة الحكومية - حتى وإن كان مقترحا، ومناقشــا، ومصمما، ومقررا في عملية ديموقراطية حرَّة – كان يُوصَف بأنه خطوة خطيرة ومَهينَة نحو الشمولية. يَجِدُ دعاة السياسات المصوغة ضمن الهيكل الديموقراطي والمطبَّقة عبر أدوات الحكم الذاتي في بعض الأحيان أنفسهم متهمين بأنهم عملاء للأيديولوجية الزائفة التي هُزمت خلال الصراع الطويل مع الشــيوعية. حتى الفكرة القائلة بأن هناك شــيئا اسمه المصلحة العامة أصبحت مدعاة للسخرية وتجري مهاجمتها على أنها مفهوم خطير.

بحلول ذلك الوقت، اقتنع العديد من الديموقراطيين ومعظم الجمهوريين على حد سواء من جرّاء تسلل الأموال الطائلة إلى داخل العملية الديموقراطية، بتبني أيديولوجيا جديدة تدعم عملية تقليص حيّز الديموقراطية وتوسيع نطاق السوق. وفي هذه الفترة الانتقالية بخاصة حلّ التلفزيون محل الصحف باعتباره المصدر الرئيس للمعلومات بالنسبة إلى أغلبية الناخبين، وازداد دور المال في الحملات السياسية، ما أعطى الجهات المانحة سواء من الشركات أو المصالح الخاصة الأخرى مزيدا من السلطة المجحفة التي تعلو مداولات الكونغرس في الولايات المتحدة والمجالس التشريعية في الولايات.

عندما لا تصدر قرارات الولايات المتحدة نتيجة للحوار الديموقراطي ويجري تقريرها بدلا من ذلك عن طريق المصالح الخاصة القوية، فإن النتائج يمكن أن تكون كارثية على مصالح الشعب الأمريكي. أنتجت السياسات الاجتماعية القاصرة والعاجزة ماليا للولايات المتحدة تراجعا نسبيا في الظروف المعيشية. بالمقارنة مع غيرها من البلدان الديموقراطية الصناعية المتقدمة التسعة عشر في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)، فإن الولايات المتحدة لديها أعلى نسبة من عدم المساواة في الدخل وأعلى معدل للفقر[140]؛ وأدنى مستوى بالنسبة إلى «رفاه الأطفال الملموس (المادي)»[141] وفقا لمؤشر الأمم المتحدة، وأعلى معدل لفقر الأطفال[142]، وأعلى معدل في وفيات الأطفال الرضع[143]؛ وأكبر عدد من السجناء وأعلى معدل لجرائم القتل[144]؛ وأكبر الدول إنفاقا على الرعاية الصحية، وأكبر نسبة من المواطنين غير القادرين على تحمل تكاليف الرعاية الصحية[145].

في الوقت ذاته، فإن النجاح الذي حققته مصالح الشركات في الحد من الرقابة التنظيمية خلق مخاطر جديدة للاقتصاد الأمريكي. على سبيل المثال، تحرير صناعة الخدمات المالية من القيود، الذي صاحب الزيادة الهائلة في تدفقات التجارة والاستثمار في جميع أنحاء العالم، أدى بشكل مباشر إلى أزمة الائتمان في العام 2007، التي تسببت في الركود الاقتصادي الأعظم (الذي يسميه بعض الاقتصاديين «الانكماش الأعظم الثاني» أو «الكساد الأصغر»).

العواقب الدولية التي نجمت عن إخفاق السوق اللافت قوّضت بشكل كبير الثقة العالمية في قيادة الولايات المتحدة للسياسة الاقتصادية وأعلنت نهاية

الحقبة الاستثنائية لهيمنة الولايات المتحدة. وقد وافقت الدول بشكل عام على ما يسمى «إجماع واشنطن» باعتباره أفضل صيغة لوضع اقتصاداتها على أسس سليمة وبناء القدرة على النمو المستدام. على الرغم من أن معظم توصيات الخطة السياسية الواردة في بيان الإجماع كان يُنظر إليها على نطاق واسع أنها تعكس الحس الاقتصادي السليم المشترك، غير أنها كانت تميل إلى توسيع نطاق السوق في الاقتصادات المحلية لأنها أزالت الحواجز أمام التجارة العالمية وتدفقات الاستثمار.

هناك عاملان آخران أسهما إلى جانب الأزمة الاقتصادية 2007-2008 في تقويض قيادة الولايات المتحدة: الأول، هو نهوض الاقتصاد الصيني، الذي لم يتبع تشريعات إجماع واشنطن، علما بأن نجاحه كان مدفوعا بالنموذج الصيني للرأسمالية وحده فقط؛ والثاني، هو الغزو الكارثي للعراق، لأسباب ثبت في وقت لاحق أنها كانت واهية ومُخادعة.

داخل الولايات المتحدة، كان أحد المقاييس التي تدل على عمق التشوه الذي أصاب «الحوار الديموقراطي» هو أنه في أعقاب الكارثة الاقتصادية، بدلا من أن يكون هناك رد فعل «شعبي» مهم في النظام السياسي الأمريكي للمطالبة التقدمية في اتخاذ إجراءات رقابية وقائية لمنع تكرار ما حدث، كان هناك طلب شعبي يميني مزيف قدمه حزب الشاي Tea Party للتخفيف من الإجراءات الرقابية الحكومية. وقد جرى تمويل هذه الحركة واختطافها من قبل الشركات وجماعات الضغط اليمينية التي استغلت الشعور بالظلم ووجهته لدعم أجندة تخدم مصالح الشركات وتزيد من تقليص قدرة الحكومة في الحد من الانتهاكات. التحزُّب المتطرف لأعضاء الكونغرس من الجمهوريين المنتمين إلى حزب الشاي كاد ينتج عجزا في الحكومة الأمريكية في 2011، وهدد بذلك مرة أخرى في نهاية العام 2012.

يعود الفضل في النمو المفاجئ الذي حققه حزب الشاي بدرجة كبيرة أيضا إلى قناة فوكس نيوز الإخبارية التي روَّجت له، والتي تمكنت في ظل ملكية روبرت مردوخ وإدارة روجيه إيلز لها - وهو الخبير الاستراتيجي في وسائل الإعلام سابقا لدى الرئيس ريتشارد نيكسون – من تجاوز كل الأحلام الجامحة لخطة باول في تأكيد تغيير طبيعة التلفزيون الأميركي. كان باول قد اقترح أنه «ينبغي رصد شبكات التلفزيون

الوطنية بالطريقة نفسـها التـي ينبغي أن تبقى فيها الكتب المدرسـية[146] تحت المراقبة المستمرة». وقد دعا إلى إفساح «المجال أمام أنصار النظام الأمريكي»[147] في وسيلة الإعلام التلفزيونية.

عـدم قـدرة الديموقراطية الأميركية على اتخاذ القـرارات الصعبة أصبحت الآن تهدد مسـتقبل البـلاد الاقتصادي - إلى جانـب تهديدها لقدرة النظـام العالمي في إيجاد مسـار متقدم نحو مستقبل مسـتدام. الانقسام الحزبي الحاد بشكل استثنائي في الولايات المتحدة هو ظاهريا بين الحزبين السياسيين الرئيسين. بيد أن طبيعة كل مـن الديموقراطيين والجمهوريين تطورت بطريقة زادت من عمق الخلافات بينهما. على السـطح، يبدو أن الجمهوريين قد انتقلوا إلى الجنـاح اليميني وطهروا حزبهم مـن المعتدلين وأخمـدوا فئة الجمهوريين الليبراليين التي كانـت أقلية مهمة داخل الحزب. أما الديموقراطيون، وفقا للتحليل السـطحي، فانتقلوا إلى الجناح اليسـاري وطـردوا إلى حد كبير المعتدلين والديموقراطيـين المحافظين الذين كانوا يؤدون دورا بارزا في الحزب.

لكن في العمق، التغييرات أكثر تعقيدا بكثير، فقد أصبح كلا الحزبين السياسـيين معتمـدا عـلى جماعات الضغط التجاريـة من أجل الحصول عـلى مبالغ كبيرة من المـال لشراء الإعلانات التلفزيونية من أجل إعـادة انتخابهم، إلى درجة أن التشريع للمصالـح الخاصة الـذي تقدمت به الصناعات الفاعلـة في شراء النفوذ - كشركات الخدمات المالية، وشركات الطاقـة المعتمدة على الكربون، وشركات الأدوية وغيرها - يمكـن أن يعوِّل على الأغلبية العظمى من الحزبين. أدى التحوّل التاريخي للحدود الداخلية بين مجالي الرأسـمالية والديموقراطية المتداخلين، الذي يشكِّل الأيديولوجيا الأميركية المهيمنة وهي الرأسمالية الديموقراطية، إلى زيادة الدعم داخل كلا الحزبين للتدابير التي تحدّ من دور الحكومة.

وقـد انتقل هذا التحول الآن بشـكل كبـير إلى الجناح اليمينـي بحيث لم يعد مستغربا أن يقترح الديموقراطيون أفكارا كانت أصلا للجمهوريين قبل بضع سنوات، فقط لرفضها بسرعة على أنها أفكار «اشتراكية». يُهدِّد المأزق الناجم مستقبل برامج الاستحقاق ذات الشـعبية الكبيرة، بما في ذلك الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية، ويزيد من حدة الانقسامات الحزبية إزاء مسائل تعتبر مصيرية وغير قابلة للتفاوض

من كلا الجانبين. وقد زادت حدة التوتر وأصبحت أكثر ضراوة من أي وقت مضى في التاريخ الأميركي منذ العقود التي سبقت الحرب الأهلية.

اكتسبت «أصولية السوق»، في نظر منتقديها، حماسا شبه ديني يعيد إلى الذاكرة الحماس الذي أبداه العديد من الماركسيين قبل انهيار الشيوعية - على الرغم من أن من تنطبق عليهم هذه التسمية يشعرون بأن الليبراليين والتقدميين يسعون وراء أيديولوجيا «مركزية الدولة» ولا يشغل تفكيرهم غيرها. الحكم الذاتي للولايات المتحدة أصبح الآن شبه معطّل بشكل كامل وغير قادر على اتخاذ قرارات مهمة وضرورية لإعادة التحكم في مصيره.

حذّر جيمس ماديسون، أحد أكثر المؤسسين الأمريكيين الاستثنائيين فصاحة، في القرار الفدرالي الرقم 10 من «النزعة الطبيعية لدى البشر في الوقوع في براثن العداوات المتبادلة» والتكتل في مجموعات أو أحزاب أو فصائل معارضة:

> الأسباب الكامنة للفرقة مزروعة في طبيعة الإنسان؛ ونراها في كل مكان بدرجات مختلفة من النشاط، وفقا للظروف المختلفة للمجتمع المدني. التحمس للآراء المغايرة بشأن الدين، أو الحكومة، وغيرها من المواضيع الأخرى، إضافة إلى التفكير في الممارسة؛ أو التعلّق بقادة مختلفين ممن يناضلون بشغف من أجل الهيمنة والسلطة؛ أو بأشخاص بمواصفات أخرى ممن كانت ثرواتهم محط اهتمام وشغف البشر، أسهم بدوره في تقسيم البشر إلى أحزاب، وإثارة مشاعر العداء المتبادل بينهم، وجعلهم أكثر استعدادا لكره واضطهاد بعضهم البعض بدلا من التعاون[148] من أجل الخير المشترك.

أشار ماديسون إلى أن هذه النزعة في الطبيعة البشرية قوية لدرجة أنه «حتى الفروق التافهة والوهمية يمكن أن تكون كافية لتأجيج مشاعر البغضاء وإشعال فتيل أعنف النزاعات فيما بينهم»[149]. لكنه عاد وسلّط الضوء على «المصدر الدائم الأكثر شيوعا للانقسامات» وهو «التوزيع المختلف وغير المتساوي للممتلكات». إن عدم المساواة في توزيع الثروة، والملكية[150]، والدخل في الولايات المتحدة هو الآن أكبر من[151] أي وقت مضى منذ العام 1929. وقد كان الدافع وراء اندلاع حركة «احتلوا وول ستريت» هو نشوء الوعي لدى الأغلبية العظمى من الأمريكيين بأن عمليات الرأسمالية الديموقراطية في شكلها الحالي تؤدي إلى نتائج غير عادلة ولا

يمكــن احتمالها. لكن حالــة الضعف التي تعانيها عملية صنــع القرار الديموقراطي في الولايــات المتحــدة، والســيطرة المتزايــدة لقوى الثروة وســلطة الــشركات على الديموقراطية الأمريكية، أصابت بالشــلل قــدرة البلاد على اتخاذ قرارات عقلانية في مصلحة السياسات التي من شأنها معالجة هذه المشاكل.

لسوء الحظ فإن هذين الاتجاهين يعززان بعضهما البعض. فكلما زادت سيطرة مصالــح الأثرياء النافذين على صنع القرار الديموقراطي، زادت مقدرتهم على ضمان خدمة تلك القرارات الخاصة بالسياســة في تعزيز ثرواتهم وســلطتهم. هذه الحلقة الكلاســيكية الإيجابية من ردود الفعل تجعل عدم المســاواة أسوأ على نحو مطّرد، حتى إنها تجعل عملية التوصل إلى حلول ديموقراطية لعدم المساواة أكثر صعوبة.

أصبحــت مســألة عــدم المســاواة هي الخــط الذي يحــدد الخلل الســياسي والأيديولوجــي والنفسي. لقــد عمّق علماء الأعصــاب وعلماء النفــس فهم علماء السياســة للطبيعة الحقيقية للانقسام الســياسي في كل بلد «بين اليمين واليسار» أو «بين الليبراليين والمحافظين». تشير الأبحاث بشكل قاطع إلى أن هذه الاختلافات هي أيضا «مزروعة في طبيعة الإنسان»، وأن هناك انقساما مِزاجيا أساسيا في كل مجتمع بين أولئك الذين هم أكثر تقبلا بشكل نسبي لعدم المساواة [152] وأولئك الذين هم أقل تسامحا معها.

الانقســام نفســه يفصل بين أولئك الذين يرون أهميــة وغيرهم ممن لا يرون أهميــة في تقديــم الرعاية للضعفاء والمغلــوب على أمرهم، والحفــاظ على احترام الســلطة - لا ســيما عندما يكون هناك تهديد بنشــوب اضطرابات - وأولوية الولاء للجماعة أو الأمة، وإظهار الوطنية، واحترام قدســية الرموز والأشــياء التي تمثل قيم الجماعــة. كلتا الجماعتين تثمِّن عاليا الحرية والإنصاف لكن بطريقتين مختلفتين في التفكير[153]. تشــير أبحاث أجريت أخــيرا إلى أن هذه الاختلافات قد تكون، في جزء منهــا، موروثــة جينيا، لكن ربما الأهم من ذلك هو أن هــذه الاختلافات تصبح أكثر حدة بواسطة حلقات ردود الفعل الاجتماعية[154].

مســألة عدم المساواة تقع أيضا على خط الصدع الأيديولوجي بين الديموقراطية والرأســمالية. أمــا بالنســبة إلى أولئك الذين يعطــون الأولوية للرأســمالية، فيُنظر إلى مســألة عدم المســاواة باعتبارها حالة ظاهرة وضرورية للتحفيز على النشــاط

الإنتاجي. إذا تلقى البعض مكافآت ضخمة في السوق، فتلك نتيجة مفيدة ليس فقط لأولئك الذين تلقوا المكافأة وإنما للنظام الرأسمالي ككل أيضا، لأنها تثبت للآخرين ما يمكن أن يحدث إذا ما أصبحوا هم أكثر إنتاجية أيضا.

أما بالنسـبة إلى أولئـك الذين يعطون الأولوية للديموقراطية، فإن مسـألة تقبل اسـتمرار عدم المساواة من المرجح إلى حد كبير أن تُحرك المطالب بإجراء تغيير في السياسـات التحتية التي تنتج باسـتمرار نتائج غير متساوية. أصبحت ضرائب الميراث نقطة سـاخنة في السياسـة الأمريكية. يسـأل الليبراليون: لماذا توجـد هناك قيمة اجتماعية للإخفاق في إعادة توزيع جزء من الثروات الكبيرة التي كان يمتلكها شخص ثري بعد وفاته؟ أما بالنسبة إلى المحافظين، فإن القدرة عـلى نقل ثروة كبـيرة بعد الوفاة تُشـكِّل أيضا جزءا آخر من الحافز لكسـب ثـروة كبيرة في المقـام الأول. وهم يرون أن فرض ما يسـمونه «ضريبة الموت» (تسـمية ابتدعها الخبير الإسـتراتيجي المحافظ الذي أجرى أبحاثا معمَّقة على أنواع الاسـتخدامات اللغوية التي تثير مشـاعر الغضب)[155] يعتبر تعديا على حريتهـم. من وجهة نظري الخاصة، أرى أن إلغاء ضريبة الميراث يعتبر حماقة؛ وينبغي زيادتها بدلا من ذلك. إن تمركز الثروة بشكل مفرط أمر مدمر للحيوية الاقتصادية ولسلامة الديموقراطية.

أي جهد تشريعي لمعالجة عدم المساواة باتخاذ تدابير تتطلب التمويل من خلال الضرائب على مختلف أنواعها يحدِّد أيضا خط الصدع السياسي الذي يقسِّم الولايات المتحدة إلى فَصِيلين متعارضين. الحركة المناهضة للإصلاح التي تقودها الشركات التي بدأت في سـبعينيات القرن العشرين تبنت إستراتيجية تهكمية تُعرف باسم «تجويع الوحش»[156] كأحد مبادئها الأساسية؛ مع إعلانها أهمية «موازنة الميزانية» و«خفض العجـز»، دفعت هذه الحركـة بجهودها نحو إحداث تخفيضـات ضريبية ضخمة كخطوة أولية ضمن خطة لاسـتخدام العجز التمويلي الناجم عن ذلك كمبرر لفرض تخفيضـات حـادة في دور الحكومة. كان هذا جزءا لا يتجزأ من جهد أكبر للحد من نطاق الديموقراطية وتعزيز نطاق السوق.

ما هو أكثر إثارة للقلق بالنسبة إلى دعاة الديموقراطية الأميركية هو أن التعاظم الجذري لدور المال في السياسـة قد منح القوى التي تمثل الثروة وسـلطة الشركات

مـا يكفي من السـلطة لتمرير أجندتها حتـى وإن كانت هنـاك أغلبية كبيرة من الشعب الأمريكي تعارض ذلك. في الواقع، أولئك الذين يدافعون بحماسة عن توسيع دور الأسـواق، في حـين يطالبون بتضييق الخنـاق على قدرة الشـعوب في البلدان الديموقراطية على وضع السياسـات التي تتصدى للانتهاكات والمخاطر المدمرة التي غالبا ما تصاحب نشاط السوق غير المقيّد، يشكلون تهديدا للمنطق الضمني للدولة القومية ذاتها.

أحد الأسـباب التي أسـهمت ضمن مجموعـة أخرى من المسـببات في تفريغ الطبقة الوسـطى من محتواها في أمريكا، هو ظهور شركة الأرض، والنسبة المتزايدة مـن الأمريكيين المتقاعدين، والتقدم الذي تحقـق في توفير تقنيات الرعاية الصحية الباهظة الثمن. والنتيجة هي أزمة مالية سريعة النمو تهدد قدرة الولايات المتحدة على تأمـين القيادة في العالم. مديونيـة الحكومة الأمريكية مقارنـة بالناتج المحلي الإجمالي تهدد بالخروج عن السـيطرة. وفقا لدراسة أجراها مكتب الميزانية المستقل في الكونغرس، فإن نسبة دين الولايات المتحدة إلى الناتج المحلي الإجمالي هي 70 في المائة في العام 2013 [157]، وهذه النسـبة تتجاوز بالفعل الناتج المحلي الإجمالي إذا ما أُضيف إليها المال الذي تدين به الحكومة لنفسها[158].

عـلى الرغم مـن أن تراجع الائتمان الـذي حظي بتغطية إعلاميـة مكثفة من قبل شركة تصنيف السـندات سـتاندرد آند بورز في العام 2011 لم يكن له أي تأثير ملموس في الطلب للسـندات الأمريكية[159]، حذّر الخبراء من أنه لا يمكن اسـتبعاد حصـول فقدان مفاجئ للثقة في الدولار الأمريـكي وفي جدوى التمويلات الأمريكية في العقـد القادم. يظل الدولار الأمريكي هو العملة الرئيسـة للاحتياطي النقدي في العـالم، ويرجع ذلك جزئيا إلى ضعـف اليورو وانعدام الثقة في اليـوان الصيني، أو الرِنْمِنْبي (العملة الصينية RMB). ولهذه الأسـباب وغيرهـا، فإن الولايات المتحدة لاتزال قادرة على الاقتراض من بقية دول العالم بمعدلات فائدة منخفضة جدا - تصل حين كتابة هذه السـطور إلى أقل من 2 في المائة بالنسبة إلى السندات الموقّعة لمدة عشر سنوات.

بيد أن المشاكل المالية التي تلوح في الأفق يمكن أن تكون كبيرة لدرجة أنها يمكن أن تتسـبب في حصول فقدان مفاجئ للثقة في مسـتقبل الـدولار، وزيادة مفاجئة

في أسـعار الفائـدة التي يجب على حكومـة الولايات المتحـدة أن تدفعها للبلدان صاحبة الديْن. حتى وإن كان مقدار الزيادة هو نقطة مئوية واحدة فوق الزيادات المتوقعـة في أسـعار الفائدة المدفوعة على الدين فإن ذلك سـيضيف نحو تريليون دولار لمدفوعات الفوائد على مدى العقد المقبل[160].

إن قوة اقتصاد أي دولة هو، بطبيعة الحال، أمر حاسـم بالنسـبة إلى ممارسـة السـلطة بأشكال متعددة. فهي تقوي أسـس القدرة على تمويل الأسلحة والجيوش، واسـتخدام المسـاعدات الخارجية والامتيازات التجارية لبناء التحالفات الضرورية. وهـي تُمكِّن من بنـاء بُنى تحتيـة متفوقة وتوفـير المصالح العامة مثـل التعليم، والتدريب المهني، والسلامة العامة، والمعاشـات التقاعدية، وإنفاذ العقود، وجودة النظام القانوني، والرعاية الصحية، وحماية البيئة. وهي تسـمح أيضا بإنشـاء قدرة متفوقة للبحث والتطوير، التي تعتبر حاليا حاسـمة للوصول إلى مكتسـبات الثورة العلمية والتكنولوجية المتسارعة.

وبشـكل أعمّ، فإن قدرة أي دولة على ممارسـة نفوذها في السلطة على قاعدة مسـتدامة - سـواء السلطة العسـكرية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو الأخلاقية - تعتمد على عدة عوامل إضافية، بما في ذلك:

• قدرتها على تشـكيل السياسـات الذكية وتنفيذها على نحـو فعّال في الوقت المناسب، الأمر الذي يتطلب عادة اتخاذ قرارات شفافة مستندة إلى العقل، وتحقيق إجماع توافقي لدعم هذه السياسات على الصعيد المحلي- لا سيما إذا كانت تتطلب التزامـا طويل الأجل. خطة مارشـال، على سـبيل المثال، لم تكـن ممكنة لولا دعم الحزبـين لها في الكونغرس ورغبة الشـعب الأميركي في توظيـف موارد كبيرة لخدمة خطة خيالية تتطلب عقودا لتنفيذها.

• تماسـكها المجتمعـي، الأمر الذي يتطلب عموما القدرة عـلى فهم العدالة في توزيـع الدخل والقيمـة الصافية، والعقد الاجتماعي الذي تجـري من خلاله تلبية الاحتياجات الحقيقية، وتسـتمد الحكومة قوتها من الرضا الحقيقي للشـعب الذي يرزح تحت سيطرتها. يتطلب الحفاظ على التماسك أيضا التنبه إلى الخبرات ووجهات النظـر المختلفة للأقليات وإيلاءها الاحترام المتواصـل، والفهم الكامل للفوائد التي يمكن جَنيها من وراء عملية استيعاب المهاجرين.

• حمايــة حقوق الملكية، وإنفــاذ العقود، والفرص لاســتثمار الأموال من دون وجود مخاطر غير معقولة لخسارة الثروة.

• تطوير وإنفاذ سياســات مالية ونقدية مســتدامة ولوائــح مصرفية تقلل من مخاطر التقلبات في السوق ولا تشدِّد على التقلبات في دورة الأعمال. يتطلب النجاح الاقتصــادي أيضا اســتثمارات في البنية التحتية، والبحوث والتنميــة، وإنفاذ قوانين مكافحة الاحتكار المناسبة.

• تطوير رأس المال البشري مع اســتثمارات ملائمة في التعليم والتدريب المهني، والرعايــة الصحية ورعاية الصحة النفســية، والتغذية ورعايــة الأطفال. لقد عززت الثــورة المعلوماتية أهمية الاســتثمار في رأس المال البشري، حتى وإن كانت تتطلب التحديث المنتظم للإستراتيجيات المناسبة.

• حماية وحفــظ وإدارة رأس المال الطبيعي مع حمايــة البيئة وكفاءة الطاقة. تتطلب أزمة المناخ العالمية التخطيط المكثف للتكيف مع التغيرات الكبيرة القادمة، وتكريس الاهتمام بشكل أكبر لضرورة الإسراع في تخفيض نسب التلوث الناجمة عن ظاهرة الاحتباس الحراري.

لقد أخفقت الولايات المتحدة الآن في تلبية العديد من هذه المعايير. لكنها ليســت الدولة القومية الوحيدة التي تتعرض لخطر تشــتيت قدرتها على اتخاذ قرارات سليمة بشــأن المستقبل. التغيير الأكبر والأكثر أهمية في ميزان القوى في جميع أنحاء العالم هو التراجع النسبي في القوة الفاعلة لدى الدول القومية عموما. وعلى حد تعبير الأستاذ في جامعة هارفارد جوزيف ناي، «نشر السلطة بعيدا عن الحكومة[161] هو أحد التحولات السياسية الكبيرة لهذا القرن».

الدول القومية في مرحلة تحوّل

أحد الأســباب الرئيسة للتراجع المستمر في القوة الفعّالة للدول القومية هو نهوض قوة الشركات المتعددة الجنسيات. إعادة توزيع القوة الاقتصادية والمبادرة إلى الشركات المتعددة الجنســيات العاملة في العديد من الولايــات القضائية الوطنية في وقت واحد (حتى في الوقت الذي تُمارس فيه سلطة متزايدة للتأثير في السياسات المحلية للدول التي تعمل فيها) حدَّت من الدور الذي تقوم به الدول القومية بشكل ملحوظ.

مع قدرتها على الاستعانة بمصادر خارجية وروبوتات في مدخلات العمالة لديها، لم يعد لدى العديد من الشركات الحافز نفسه لدعم التحسينات في نظم التعليم الوطنية وغيرها من التدابير التي من شأنها تعزيز إنتاجية العمل في بلادهم الأصلية. ومع الزيادة المذهلة في تدفقات التجارة والاستثمار، تؤدي الشركات متعددة الجنسيات الآن دورا محوريا أكثر مما سبق. وقد أكد بعض علماء السياسة أن تأثير الشركات في الحوكمة الحديثة يشبه إلى حد كبير الآن تأثير الكنيسة في القرون الوسطى خلال عصر الإقطاع.

لقد حوّل تكامل الاقتصاد العالمي القوة بشكل جذري نحو الأسواق. وقد جعلت التدفقات الضخمة لرأس المال عبر الشبكات الرقمية في شركة الأرض بعض الاقتصادات الوطنية معرّضة بشكل كبير للفيضان المفاجئ لـ «أموال المضاربة» إذا ومتى وصلت الأسواق العالمية إلى حكم سلبي عن قابلية سياساتها المالية والنقدية للاستمرار. لقد أضحت المصارف الدولية وشركات تصنيف السندات من اللاعبين الذين يضطلعون بدور أكثر أهمية في المناقشات الوطنية حول فرض الضرائب والإنفاق. تعتبر اليونان الوحيدة من بين أمثلة عديدة من البلدان أفضل مثال معروف للدول التي لم تعد قادرة على اتخاذ قراراتها بنفسها، إذ يجب أن تحصل أولا على إذن من الاتحاد الأوروبي، الذي يدعمها، والمصارف الدولية، التي تحمل ديونها.

ينبع التراجع التاريخي في السلطة، والنفوذ، والآفاق المستقبلية لدول منطقة اليورو (تلك الدول الأوروبية التي انضمت إلى الاتحاد النقدي) إلى حد كبير من خلل قاتل معروف على نطاق واسع بالقرار الذي اتخذته تلك الدول الأوروبية التي انضمت إلى الاتحاد النقدي في المقامرة في مسألة تأجيل التكامل الوثيق للسياسات المالية الخاصة بها (والذي من دونه لن تكون العملة الموّحدة قابلة للتطبيق في نهاية المطاف) إلى أن يقوم الزخم السياسي نحو الوحدة بجعل تلك الخطوة الصعبة ممكنة.

تؤكد وثائق نشرت أخيرا أنه عندما تأسست منطقة اليورو كان هناك وعي على نطاق واسع، لا سيما في ألمانيا، بأن البلدان الأوروبية الجنوبية لم تكن حتى على مقربة من الظروف المالية التي من شأنها أن تخفض من مخاطر[162] التكامل

النقدي. غير أن المستشــار الألماني هيلموت كول وقادة أوروبيين آخرين قرروا حينها أن فوائد الوحدة الأوروبية كانت تســتحق المقامرة بأن يُحافَظ على التماسك إلى أن يتوافــر دعم كافٍ على نطاق أوروبا لإقامة وحدة مالية أكثر متانة. عندما كشــفت الأزمة المالية للعام 2007-2008 الخلل القاتل دعت أسواق الائتمان العالمية بشكل أساسي إلى الرهان الأوروبي.

إذا تحدثنا بشــكل عام، فإن أمــام أوروبا الآن خيارين، الأول، بإمكانها الاعتراف بفشــل تجربة منطقة اليورو وتقلص بشــكل حاد عدد الدول التي ســتبقى ضمن منطقة اليورو إلى جانب ألمانيا وفرنســا - اللتــين تعتبران جوهر الاقتصاد في أوروبا. هذا الخيار غير مرغوب لعدة أســباب: لا توجد هناك إجراءات قانونية لســحب أي دولة من منطقة اليورو؛ والانتقال من اليورو والعودة مرة أخرى إلى العملة الوطنية - لدولة مثل اليونان، على ســبيل المثال - ســيكون مؤلما للغاية ومكلفا؛ وسوف تجد ألمانيا نفســها مــرة أخرى مهددة بتخفيــض قيمة العملة التنافــسي - في دول مثل إيطاليا، على ســبيل المثــال - كلما فاقت قوة الاقتصاد الألماني بشــكل ملحوظ قوة الاقتصاد في جاراتها من الدول.

الخيــار الثاني هو التحرك بسرعة وبجرأة إلى الأمام نحو التوحيد المالي لمنطقة اليورو، على الرغم من التفاوت في قوة وإنتاجية الاقتصاد الألماني مقارنة مع دول جنــوب أوروبا. ومع ذلك، فإن الطريقة الوحيــدة للحفاظ على التكافؤ ولو عن بعد في مســتويات المعيشة ضمن أوروبا موحدة ماليا ستكون عن طريق تحويل ألمانيا دفعــات مالية (وخاصة إعانات الميزانيــة) إلى البلدان الأوروبية الأضعف لفــترة زمنيــة لا تقل عن جيل. عــلى الرغم من أن هذا الأمر قد يشــكل صفقة اقتصادية طويلة الأجل لألمانيا، فإن دافعي الضرائب الأكثر ازدهارا نسبيا في ألمانيا الغربية ســابقا قد حملوا على عاتقهم عــبء الدعم لأولئك الموجودين في ألمانيا الشرقية ســابقا على مدار عقدين من الزمان منذ الوحدة بين الألمانيتين - بتكلفة تُقــدَّر بنحــو 2.17 تريليون دولار[163]، ونتيجة لذلك فإن شــهيتهم لتحمل هذا العبء الجديد منخفضة للغاية.

عدم قدرة قادة أوروبــا على إقامة التكامل المالي اللازم والتحرك بسرعة أكبر نحــو أوروبــا موحدة خلق أزمة سياســية واقتصادية مهمة تهــدد بالتراجع عن

أهــم النجاحات التي حققتها الولايات المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية. إضعاف التلاحم السـياسي والدينامية الاقتصاديـة في أوروبا الغربية (إلى جانب حالة الشـلل السـياسي القائمة منذ فترة طويلة والتباطـؤ الاقتصادي في اليابان) أسهم أيضا في خلق الصعوبات الجديدة التي تواجهها الولايات المتحدة في تأمين قيادة العالم.

كـما هي الحال مع الأيديولوجيا المركّبة للرأسـمالية الديموقراطية، فإن المفهوم السـياسي للدولة القومية يتألف أيضا من فكرتين متداخلتين معا. تستند فكرة الأمة إلى الهوية المشـتركة للناس الذين يعيشـون على أرض الدولة القومية؛ سـواء كانت اللغة مشـتركة بينهم أم لا (الغالبية العظمى لديهم لغة واحدة مشتركة)، وعادة ما يتقاسمون الشعور نفسه بأنهم أعضاء في المجتمع القومي. الدولة، على النقيض من ذلك، هي كيان إداري وقانوني وسياسي يوفر البنية التحتية، والأمن، والأساس القضائي للحياة داخل الدولة. عندما يتداخل كلا هذين المفهومين، فالنتيجة هي نشوء شكل من أشـكال الأمة نعتقد بشـكل مشترك أنه الشـكل الرئيس الذي يجري من خلاله تنظيم الحضارة العالمية.

هناك جـدل تاريخي غنيّ حول أصـول الدول القومية. نشـأت أولى «الدول» الكبـيرة قبل نحو 5400 سـنة عندما أنتجـت الثورة الزراعية للمـرة الأولى فوائض غذائيـة كبيرة في المناطق التي تمتلك الأصناف النباتية التي كانت مناسـبة بشـكل خـاص للزراعة[164]: وادي نهر النيل في مصر، ووادي النهر الأصفر في الصين، ووادي نهر السند في الهند، ووديان نهري دجلة والفرات، والهلال الخصيب (ومنطقة كريت المجاورة)[165]. ظهرت هذه الدول أيضا في عدة مناطق أخرى من العالم، بما في ذلك المكسيك، وجبال الأنديز، وهاواي[166].

التزاوج بين الدولة والأمة حدث بعد ذلك بفترة طويلة. بالمعنى الفعلي للكلمة، فقد أنشـئت الدول القومية الحديثة كأحد الإفرازات الطبيعية لثورة الطباعة. لكنها لم تكن عبر معظم تاريخ البشرية الشـكل السـائد للنظـام. الإمبراطوريات، والدول المدنية، والفدراليات، والقبائل كانت جميعها متعايشة بعضها مع بعض على امتداد مسـاحات شاسعة من الأرض منذ آلاف السـنين. على الرغم من وجود بضعة أمثلة عـن الدول القومية كانت موجـودة قبل ثورة الطباعة، فإن بـزوغ الدولة القومية

الحديثة باعتبارها الشكل السائد للنظام السياسي حدث عندما أسهم انتشار الكتب المطبوعة والكتيِّبات بصيغة مشتركة من اللغات الوطنية[167] في نشوء الهويات الوطنية المشتركة.

قبل ثورة الطباعة كانت اللغات مثل الفرنسية، والإسبانية، والإنجليزية، والألمانية، وغيرها من اللغات، تتسم بتعدد اللهجات والصيغ اللغوية التي كانت مختلفة إلى درجة أن متحدثي إحدى هذه الصيغ اللغوية كانوا في الأغلب يجدون صعوبة في التواصل مع الناطقين بالصيغ اللغوية الأخرى[168]. لكن بعدما اكتسبت ثورة الطباعة زخما، أعطت الضرورات الاقتصادية لإعادة الإنتاج الآلي للنصوص بكميات كبيرة دفعة قوية نحو إيجاد لهجة مشتركة لكل لغة أُم، ليجري فيما بعد تبنِّيها كلغة مشتركة ضمن الحدود القومية لكل دولة. ظهور الهويات الجماعية في المناطق التي يتحدث ويقرأ ويكتب فيها أغلبية السكان اللغة نفسها هيَّأ الظروف التي أدت إلى نشوء الدول القومية الحديثة.

أطلق الإصلاح والإصلاح المضاد العنان للتحمس والشغف بالانتماء لهذه الهويات القومية الجديدة الذي أدى إلى نشوب سلسلة طويلة من الحروب الدامية التي توِّجت في نهاية المطاف في إبرام معاهدة ويستفاليا في العام -1648 وهي المعاهدة التي وضعت رسميا نظاما جديدا في أوروبا قائما على أولوية الدول القومية، ومبدأ عدم تدخل أي دولة قومية في شؤون دولة قومية أخرى.

بعد ذلك بوقت قصير، أسهم نشر الأخبار- المطبوعة باللغات القومية والمقدَّمة ضمن إطار قومي مميز للمرجعية - في إضفاء مزيد من القوة على الهويات القومية[169]. مع مرور الوقت، أدى توافر المعرفة المدنية أيضا على نطاق أوسع إلى ظهور الديموقراطية التمثيلية والتشريعات القومية المنتخبة. عندما اكتسبت شعوب الدول السلطة السياسية على وضع القوانين والسياسات، اقترنت وظائف الدولة بتلك الوظائف الخاصة بالأمة.

خلال الثورة الصناعية، أسهم استحداث شبكات النقل كالسكك الحديد والطرق السريعة في زيادة اتساع الدور السياسي للدول القومية، ومزيد من التوحيد بين الهويات القومية. في الوقت نفسه أسهمت طبيعة ونطاق التقنيات الصناعية في توسيع المسائل المحتملة للصراع بين عمليات السوق والسلطات السياسية للدولة.

جــرى تعزيز التلاحم الداخلي للدول القومية الحديثة أيضا من خلال إدخال المناهج الوطنية في المدارس التي لم تعزز اعتماد لهجة وطنية مشــتركة فحســب وإنما أيضا عمَّمت فهما مشــتركا للتواريخ والثقافات الوطنية- عادة بطرق كانت تؤكد على الروايات أو الأساطير الأكثر إيجابية في تاريخ كل أمة، فيما تتجاهل في أغلبية الأحيان ضم الروايات[170] التي يمكن أن تقلِّل من المشاعر القومية. (على ســبيل المثال، الكتب المدرســية اليابانية التي لا تأتي على ذكــر غزوها واحتلالها للصين وكوريا إلا قليلا كانت دائما مصدرا للتوتر في شمال شرق آسيا)[171].

تُمَارِس التكنولوجيات العالمية العابرة للحدود الوطنية مثل شبكات الإنترنت والقنوات الفضائية نفوذها في المجالات التي كانت تهيمن عليها بالدرجة الأولى ســلطات الدول القومية. اســتغنت عديد من الشــبكات التلفزيونية الفضائية الإقليمية عن الأطر الوطنية المرجعية في تقديم الأخبار. وتعمل شبكة الإنترنت، عــلى وجه الخصوص، على تعقيــد كثير من الاســتراتيجيات التي كانت تعتمد عليهــا ســابقا الدول القوميــة لبناء التلاحــم الوطني والمحافظــة عليه. مثلما اجتذبت الصحافة المطبوعة الالتزام بنسخ واحدة من اللغات الوطنية وعززت الهويــات الوطنية، تقوم شــبكة الإنترنت بتوفير المعرفــة الموجودة في كل بلد لشــعوب البلدان الأخرى. موقع غوغــل للترجمــة Translate Google،[172] أضخــم المواقع العديدة التي تقدم خدمات الترجمة الآلية، يعمل الآن في أربع وســتين لغــة مختلفة، ويقدم ترجمات مــن لغة إلى أخرى لمزيــد من الوثائق والمقــالات والكتب[173] في اليوم الواحد أكثر مــما يقدمه المترجمون البشر من ترجمات في سنة كاملة.

وبطبيعة الحــال، فإن عدد النصوص التي تترجمها أجهزة الحاســوب يتزايد بشكل مطَّرد. 75 في المائة من صفحات الشبكة الإلكترونية المترجمة[174] هي من اللغة الإنجليزية إلى لغات أخرى. يقال في الأغلب، وبشــكل غير دقيق، إن اللغة الإنجليزية هي لغة الإنترنت. في الواقع هناك عدد مستخدمين للغة الصينية على الإنترنــت[175] يفوق عدد مجموع الســكان في الولايات المتحدة. بيد أن محتوى الإنترنت الذي يجري تداوله في جميع أرجاء العالم لايزال يُســتمد بشــكل أساسي من اللغة الإنجليزية.

روايـات التواريخ الوطنية التـي هيمنت على المناهج لنُظـم التعليم العام الإلزامي لديها الآن ما ينافسـها من الروايات البديلة المتوافرة على نطاق واسـع عـلى شـبكة الانترنت. وغالبا ما تكـون لها حلقة مُقنعة للحقيقة - على سـبيل المثال، بالنسـبة إلى الأقليات التي تعيش ضمن الدول القومية من الذين تعرضوا لسوء المعاملة تاريخيا لم يعد ممكنا بعد اليوم التعتيم بسهولة على ما جرى لهم أو حتى تمويهه.

لهذه الأسباب وغيرها، فإن اللُحمة التي تجمع بعض الدول معا رغم الاختلافات التاريخيـة العرقية، واللغوية والدينية والطائفيـة، والقبلية تبدو كأنها بدأت تفقد بعضا من قوة تماسكها. بلجيكا، على سبيل المثال، أعادت توزيع السلطة التي كانت سـابقا في قبضة الحكومة الوطنية[176] إلى الحكومـات الإقليمية المكونة لها. أقاليم فلاندرز ووالونيا ليست عمليا دولا قومية، لكن يمكن أن تصبح كذلك في المستقبل.

في أنحـاء كثيرة من العالم، بدأ ينفد صبر بعض الحـركات الوطنية الفرعية التي تحركها الهوية، وفي بعض الحالات بدأت تصبح عدوانية في سـعيها وراء الاسـتقلال عن الدول التي تنتمي إليها الآن. وصِفت الدول القومية بأنها «مجتمعات خيالية»؛ على الرغم من كل ذلك، فإنه من المستحيل بالنسبة إلى مواطني الدولة القومية أن يتفاعلوا مع جميع الأعضاء الآخرين للمجتمع القومي. فالهوية المشـتركة هي التي تشكل أسـاس الروابط القومية، فإذا لم تعد تلك الروابط راسخة بقوة في مخيلتهم، فقد تتصـل روابط هويتهم بمكان آخر- في الأغلب بالهويات القديمة التي سـبقت تشكيل الدولة القومية.

في العديـد مـن المناطق، يرتبط نمـو الأصولية أيضا بضعف الروابط النفسـية للهوية في الدولة القومية. الأصولية عند المسلمين، والهندوس، والمسيحيين، واليهود، حتـى البوذيين، هي مصدر الصراع في العالم اليوم. وهذا الأمر ليس غريبا بالنسـبة إلى المؤرخين. على الرغم من كل شيء، فإن الحاجة الماسة إلى السيطرة على الحروب الدينية والعنف الطائفي هي التي أدت إلى التقنين الرسمي للدول القومية باعتبارها الشكل الأساسي للحكم قبل كل شيء.

في خضـم الحرب الأهليـة الإنجليزية، اقترح توماس هوبـز واحدة من الحجج الأولى والأكثر تأثيرا لإقامة «عقد اجتماعي» لمنع «محاربة الإنسـان لأخيه الإنسان»

مــن خلال منح احتكار العنف للدولة القومية ومنح ســيادية تلك الدولة – ســواء كان ملكا أو «تجمعا من الرجال»[177] - الســلطة الوحيدة «لإقرار الحرب والسلم... ولقيادة الجيش».

أصبحت القومية أحد الأسباب الجديدة القوية للحرب والاقتتال على مدى القرون الثلاثة التي مرَّت بين معاهدة ويستفاليا ونهاية الحرب العالمية الثانية. ومع بدء تصنيع الأســلحة الحربية - الرشاشــات، والغازات السامة، والدبابات، ومن ثــم الطائرات والصواريخ- أدت هذه القــوة التدميرية التي جرى إطلاق العنان لها إلى خسارات فادحة في الأرواح في حروب القرن العشرين. وقد أدت ممارســات فرض النظام التي قامت بها الدول القومية داخل حدودها الوطنية في بعــض الأحيان إلى إفراز بعــض التوترات الداخلية التــي دفعت قادتها إلى اســتخدام فكرة العنف ضــد الدول القومية المجاورة كوســيلة لتعزيز التلاحم الداخلي عن طريق شــيطنة «الآخر». وبشــكل مأســاوي، فإن احتكار العنف الممنــوح للدولــة كان يوجه أيضا في بعض الأحيان بوحشــية ضد الأقليات غير المرغوب فيها داخل حدودها.

في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تشــكل عــدد من الدول القومية في مخيلة الولايــات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحــدة، والدول الأوروبية الأخرى، التي كانــت تســعى إلى تحقيق الاســتقرار في مناطق مثل الشرق الأوســط وأفريقيا، حيث كانت النزاعات القبلية والعرقية والطائفية وغيرها تهدد باســتمرار العنف وزعزعة الاســتقرار. أحد الأمثلة الرائــدة على المجتمعات التي جرى تصورها هو يوغوســلافيا. عندمــا جرى فــرض الأيديولوجية التوحيدية الشــيوعية على هذا المزيج من الشــعوب المنفصلة، عاشــت يوغوسلافيا بشكل جيد نسبيا على مدى ثلاثة أجيال.

لكــن عندما انهارت الشــيوعية، لم تعــد اللحمة التي تربــط الدولة التي جرى تخيلها متماســكة. لقد شبه الشــاعر الروسي العظيم يفغيني يوفتوشينكو ما حدث بعد ذلك بفيل الماموث الخرافي العملاق في عصور ما قبل التاريخ الذي وجد متجمدا في جليد ســيبيريا. عندما ذاب الجليد، وانقشــع عن جســد فيل الماموث استفاقت الميكروبات القديمة الموجودة داخل الجســد وبدأت تحلل جثة الماموث. وبأسلوب

مماثـل، قامت الأحقـاد القديمة بين الصرب المسـيحيين الأرثوذكـس، والكرواتيين الكاثوليك، والبوسـنيين المسـلمين بتفكيك اللحمة التي كانت تشـكّل ما يشار إليه اليوم باسم «يوغوسلافيا السابقة».

ليـس من قبيـل المصادفة أن تكون الحـدود بين صربيا وكرواتيـا هي الحدود نفسها التي كانت تفصل قبل 1500 سنة خلت بين الإمبراطوريتين الرومانية الغربية والشرقية[178]، فيما تشـير الحدود الفاصلة بين صربيا والبوسنة إلى خط الصدع بين الإسلام والمسيحية قبل 750 عاما. بعد تفكك يوغوسلافيا، زار الزعيم الجديد لصربيا المسـتقلة إقليم كوسـوفو المتنازع عليـه[179] للاحتفال بالذكرى الـ 600 للمعركة الكبـيرة التي جرى خوضها هناك والتي هُزِمت فيهـا الإمبراطورية الصربية على يد الإمبراطوريـة العثمانية؛ وفي خطاب فيه مراوغة وإثارة للحرب، أعاد تأجيج الأحقاد القديمـة التي كانت مطوية في ذكريات تلـك الهزيمة القديمة وأثار موجة من عنف الإبادة الجماعية ضد كل من البوسنيين والكروات[180].

استمر إرث الإمبراطوريات في إرباك عمليات تنظيم السياسة والسلطة في العالم فترة طويلة بعد أن أصبحت الدول القومية هي الشـكل السـائد للتنظيم السياسي. على مر العقود الثلاثة الماضية من القرن التاسـع عشر، استعمرت البلدان الأوروبية 10 ملايين ميل مربع من الأراضي في أفريقيا وآسيا، ما يقارب 20 في المائة من جميع الأراضي في العالم، وفرضت حكمها على 150 مليون شخص[181]. (في الواقع، واصلت عـدة دول قومية حديثـة في حكم الإمبراطوريات الاسـتعمارية إلى ما بعد النصف الثـاني مـن القرن العشرين). ولنخـتر مثالا من الأمثلة الكثيرة عـلى ذلك، نجم عن تفـكك الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحـرب العالمية الأولى قرار اتخذته القوى الغربية لإنشـاء دول قومية جديدة في الشرق الأوسـط، ضم بعضها شعوبا وقبائل وثقافات لم تكن في السابق جزءا من النسيج المجتمعي «الوطني» نفسه، بما في ذلك العـراق وسـورية. وليس من قبيل المصادفة أن كلتا الدولتين بدأت تشـهد انفصال عُرى التلاحم فيها.

مع ضعف التلاحم في الدول القومية، حيثما تشعر الشعوب بانتمائها القوي إلى هوية متماسـكة منفصلة عن هوية الدولة القومية التي تنضوي تحت لوائها، تبدأ هناك حالات هيجان جديدة. من كردسـتان الى كاتالونيا إلى أسكتلندا، ومن سورية

إلى الشيشـان إلى جنوب السودان، ومن مجتمعات السكان الأصليين في دول الأنديز إلى مجموعـات القبائل في جنـوب الصحراء الكبرى في أفريقيا، كثير من الشـعوب تحوِّل هوياتها السياسـية الأولية لتنفصل عن الدول القومية التي عاشـت في كنفها لأجيال عديدة. على الرغم من أن الأسـباب متنوعـة ومعقدة، فإن عددا ضئيلا من الدول، مثل الصومال، انتقل إلى «كيانات ما بعد القومية».

في أجزاء كثيرة من العالم، الجماعات الإرهابية غير التابعة لدولة ما والمنظمات الإجرامية كأولئك الذين يتسـلمون الآن زمام السلطة في ما يسمى دول المخدرات يشـكلون تحديا قويا لسـلطة الدول القوميـة. هناك تداخل بـين هذه الجهات الفاعلـة غير التابعة لدول: تسـع عـشرة من أصل ثلاث وأربعـين من الجماعات الإرهابيـة المعروفة في العالم[182] مرتبطة بتجارة المخدرات. سـوق المخدرات غير المشروعـة هو الآن أكبر من الاقتصادات الوطنية لـ 163دولة من دول العالم البالغ عددها 184 دولة[183].

مـا هو مهم هو أن الخطر الناتج الأكبر الـذي كان يهدد الولايات المتحدة على مـر العقود الثلاثة الأخـيرة جاء من أحد الفاعلين غير التابعين إلى دولة، وهو تنظيم القاعدة لأسـامة بن لادن. وهناك شـكل خبيث من الأصولية الإسلامية كان الدافع الرئيـس وراء هجمات الحادي عشر من سـبتمبر 9/11 التي نفذها تنظيم القاعدة. (وفقا لعدد من التقارير، كان بن لادن مستاء من الوجود العسكري للولايات المتحدة الأمريكية في المملكة العربية السعودية، القيمة على الحرمين الشريفين في الإسلام).

الأضرار التي نجمت عن الهجوم نفسـه- مقتل أكثر من 3000 شـخص- كانت فظيعة إلى درجة كبيرة، غير أن الاسـتجابة المأسـاوية التي أثارها، أي الغزو المضلل للعراق، الذي، باعتراف الجميع الآن، لم تكن له أي علاقة على الإطلاق بالهجوم الذي تعرضت له الولايات المتحدة، شكلت في نهاية المطاف صفعة قاسية لسلطة الولايات المتحدة، وهيبتها، ومكانتها في العالم. لقي مئات الآلاف حتفهم دون داعٍ، وهدرت 3 تريليونات من الدولارات[184]، والسبب الرئيس الذي قُدِّم لشن الحربً اتضح لاحقا أنه كان سببا معيبا ومخادعا.

القـرار الذي اتخذته حكومة الولايات المتحـدة في التخلي عن الحظر التاريخي ضد تعذيب الأسرى والاحتجاز لأجل غير مسـمى للأفراد من دون محاكمة قانونية

كان ينظـر إليه على نطاق واسـع في جميـع أنحاء العالم بأنه يقوِّض من سـلطتها الأخلاقيـة. في عالم منقسـم إلى حضارات مختلفة، وتقاليد دينيـة مختلفة وتواريخ عرقيـة، يمكن القول إن السـلطة الأخلاقية هي أكبر مصدر للقـوة. على الرغم من أن أيديولوجيـات الدول تختلف على نطاق واسـع، غير أن قيم العدالة، والإنصاف، والمساواة، والاسـتدامة تحظى باحترام وتقدير شعوب كل الأمم، حتى وإن كانوا في أغلب الأحيان يعرفون هذه القيم بطرق مختلفة.

قد يعود أحد أسـباب النهوض الواضح للأصولية بأشـكالها المختلفة العديدة إلى وتيرة التغيير التي تدفع بشـكل طبيعي كثيرا من الناس إلى التمسـك الشديد بمعتقـدات تقليدية للإيمـان بوصفه مصدرا للاسـتقرار الروحـي والثقافي. عولمة الثقافـة - ليـس من خلال الإنترنت فحسـب، وإنما من خلال القنـوات الفضائية أيضا، والأقراص المدمجة، وغيرها من وسائل الإعلام- كانت أيضا مصدرا للصراع بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الأصولية المحافظة. عندما تصور السـلع الثقافية القادمـة من الغرب الأدوار الجندرية والقيم الجنسـية بطرق تتناقض مع المعايير التقليديـة في الثقافات الأصولية، يقوم الزعـماء الدينيون بإدانة ما يعتبرونه تأثيرا يزعزع الاستقرار الاجتماعي.

لكـن تأثير الثقافـة المعولمة يذهب إلى ما هو أبعد من قضايا المسـاواة بين الجنسـين والنشاط الجنسي. تعمل السلع الثقافية كإعلانات مؤثرة لترويج أنماط الحياة التي تصوِّرها، وترويج قيم البلد الذي أتت منه هذه السـلع. بمعنى آخر، فإنها تحمل الحمض النووي الثقافي لذلك البلد. عندما تتعرض الطبقة الوسـطى العالمية لمشاهدة صور المنازل، والسيارات، والأجهزة المنزلية، وغيرها من الميزات المشـتركة للحياة في البلدان الصناعية، فإن الضغط الذي تمارسـه لإجراء تغييرات في السياسـات الاقتصادية والسياسـية المحلية الخاصة بها غالبا ما يتنامى ويكبر وفقا لذلك.

قد يصل التأثير على المدى الطويل إلى تحطيم الاختلافات. كشفت دراسة أُجريت أخيرا في القاهرة أن هناك علاقة قوية بين كمية مشـاهدة التلفزيون وتراجع الدعم للأصولية(185). أحد مصادر التأثير المتزايد لتركيا في الشرق الأوسط هو شعبية الأفلام والبرامـج التلفزيونية التركية(186). ولقد عززت هيمنة الموسـيقى الأميركية الانطباع

المرســوم عن الولايات المتحدة باعتبارها مجتمعا ديناميا وخلاّقا. القدرة على التأثير في تفكير الشعوب من خلال نشر الســلع الثقافية مثل الأفلام والبرامج التلفزيونية، والموسيقى، والكتب، والرياضة، والألعاب تتزايد في عالم مترابط يشهد ارتفاعا سنويا متزايدا في كمية استهلاك وسائل الإعلام.

الحرب والسلم

شهد النصف الثاني من القرن العشرين تناقصا في عدد الأشخاص الذين قتلوا في الحروب[187]، وتراجعا في عدد الحروب بنوعيها[188]، الدولية والأهلية- رغم استمرار قتل الملايين بسـبب الســلوك المرضي للحكام الديكتاتوريين. استمر التراجع في هذا القــرن، ما حدا البعض على القول بأن البشرية تمر بمرحلة نضج، والقيم الإنســانية تنتشر، والقوة العسكرية أصبحت أقل أهمية في عالم مترابط. إن مقياس هذا التغيير هو الذي يجعل شـعب الولايات المتحدة يشـعر بفقدان واضح للسلطة القومية في الوقت الذي أصبح فيه حجم ميزانيتها العسكرية أكبر من حجم ميزانيات الخمسين دولة الأخــرى التي تليها مجتمعة. ومع ذلك، فإن «الواقعيين» في وصف السياســة الخارجية (الذين يعتقــدون أن الدول القومية تتنافس دوما في نظام دولي فوضوي بطبيعته) يحذرون من أن هناك تنبؤات مماثلة شاعت في عصور ماضية ثبتَ لاحقا أنها كانت غير صحيحة.

يحفــل التاريــخ بأمثلة لا حصر لها عــن التفاؤل غير المــبرر إزاء تراجع الحرب خلال العصور الســابقة عندما بدأت تنشــأ بوادر جديدة تثمن عاليا فوائد السلام. أكثر الكتب مبيعا على مســتوى العالم في العــام 1910 كان كتاب «الوهم الأعظم» لمؤلفــه نورمان آنجيل، الذي يرى فيــه أن زيادة التكامل الاقتصــادي التي رافقت الثورة الصناعية الثانية جعلت الحرب بضاعة كاســدة. بعد أقل من أربع ســنوات، عشــية الحرب العالمية الأولى، كتب أنــدرو كارنيجي، الذي يعتبر بيل غيتس عصره، بطاقــة معايدة بالعــام الجديد لأصدقائه جاء فيها: «نرســل لكــم بطاقة المعايدة بالســنة الجديدة، 1 يناير 1914، ونحن نؤمن بقوة بأن السلام العالمي سيعم قريبا، عبر اتفاق عدد من القوى العظمى على تســوية النزاعــات القائمة بينها عن طريق الاحتكام للقانون الدولي[189]، وبالتالي يثبت أن القلم أقوى من السيف».

الطبيعــة البشرية لم تتغير وتاريخ كل أمة تقريبا يحفل بذكريات لاتزال حيّة في المخيلة بأن اســتخدام القوة العســكرية كان في أكثر الأحيان عنصرا حاسما في تغيير مصيرهم. القوميون والسياســيون في العديد مــن البلدان- بما فيها الولايات المتحدة والصين- سيســعون بالطبع إلى استغلال المخاوف حول المستقبل- والخوف بعضهم مــن بعض- بالدعــوة إلى تعزيز القوة العســكرية. في العصر الحــاضر، كتب بعض الإســتراتيجيين العسكريين الصينيين أن أي هجوم إلكتروني مخطط بشكل جيد يُشن على الولايات المتحدة سيســمح للصين بأن «تصبح على قدم المساواة» مع الولايات المتحدة على الرغم من تفوق الولايات المتحدة في الأســلحة التقليدية والنووية[190]. وكــما كانت هي الحال في أغلبيــة الأحيان عبر التاريخ، فإن الخــوف يولد الخوف؛ وتعزيز القدرة على الحرب يجعل أولئك الذين ستُســتخدم ضدهم يســتنتجون أن هناك نيّة بشن الحرب عليهم.

الخـوف مــن هجوم عســكري مفاجئ بحد ذاتــه له تأثير تحريفــي في إعطاء الأولوية إلى النفقات العســكرية على مر التاريخ، وهو خوف يصعب على شــعوب وزعماء الدول إبقاءه في نصابه الصحيح. وهذا هو أحد الأســباب التي تجعل الأمن القومــي يعتمد أكثر مــن أي وقت مضى على جمع المعلومات الاســتخبارية المهمة وتحليلها من أجل الحماية ضد أي مفاجأة إستراتيجية والحفاظ على اليقظة لاقتناص الفرص الإستراتيجية.

بالإضافــة إلى ذلك، لطالما غــيرت مرارا التطورات الجديــدة في التكنولوجيا من طبيعــة الحرب بطرقٍ فاجأت الدول المتهاونة التــي كانت تركز على التكنولوجيات التي كانت مهيمنة في الحروب السابقة. خط ماجينو الذي جاهدت فرنسا في تشييده بعــد الحرب العالمية الأولى وقف عاجــزا في مواجهة الدبابات الجديدة القادرة على الحركة بحرية، والتي اســتخدمتها ألمانيا النازية. تعتمد القوة العسكرية اليوم أكثر من أي وقت مضى على التفوق الفعّال في البحث والتطوير لكسب النفوذ من الثورة العلمية والتكنولوجية التي لاتزال متسارعة، والتي لها تأثير هائل في تطور الأسلحة.

فيــما تتراجع بالفعل أهميــة الفائدة المرجــوة من القوة العســكرية في نهاية المطــاف في عالم أصبح فيه البشر والشركات في كل دولــة على ارتباط وثيق بعضهم مــع بعض أكثر مــن أي وقت مضى، فإن الانخفاض الأخــير في الأعمال الحربية على

مختلف أنواعها في العالم - لا سيما الحرب بين الدول القومية - قد لا تكون له علاقة كبيرة بالتدفق المفاجئ لمشاعر التعاطف لدى الجنس البشري، وقد تكون له علاقة أكبر بالدور الذي أدته الولايات المتحدة وحلفاؤها في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية في التوسط لحل النزاعات، وبناء التحالفات، والتدخل أحيانا بأعمال عسكرية محدودة إلى جانب فرض العقوبات الاقتصادية - كما فعلت، على سبيل المثال، في يوغوسلافيا السابقة للحد من انتشار العنف بين صربيا، وكرواتيا والبوسنة.

الكيانات الفوقومية (التي تتخطى الحدود القومية) هي أيضا تؤدي دورا يزداد في أهميته، وذلك من خلال التدخل في الدول غير القادرة على وقف الصراعات العنيفة والتوسط في حل النزاعات. لا تشمل هذه الجماعات الدولية الجهود العالمية التي ترعاها الأمم المتحدة فحسب، وإنما، وعلى نحو متزايد، جهود الكيانات الفوقومية الإقليمية مثل الاتحاد الأفريقي أيضا، وجامعة الدول العربية، والاتحاد الأوروبي، وحلف شمال الأطلسي (الناتو)، وغيرها. تؤدي المنظمات غير الحكومية والجمعيات الخيرية الدينية والمؤسسات الخيرية دورا متزايد الأهمية في توفير السلع الأساسية العامة في المناطق التي تكون فيها الدول القومية متداعية (متعثرة). عندما تكون العمليات العسكرية المُساندة ضرورية، وعندما تكون الكيانات الفوقومية الثابتة غير قادرة على التوصل إلى توافق، يجري تشكيل «تحالف من الدول الراغبة».

غير أنه في عديد من هذه التدخلات - لا سيما تلك التي اشترك فيها حلف شمال الأطلسي (الناتو) وتحالف الدول الراغبة - أدت الولايات المتحدة دورا كبيرا في التنظيم والتنسيق، وغالبا ما كانت تقدم جمع المعلومات الاستخبارية الحساسة وتحليلها إضافة إلى القوة العسكرية الحاسمة أيضا. إذا استمر توازن القوى في العالم بالتحوّل بطرق تضعف مكانة الولايات المتحدة المهيمنة سابقا، فقد يشكل ذلك تهديدا في وضع نهاية للحقبة التي يسميها بعض المؤرخين «باكس أمريكانا» (السلام الأمريكي) Pax Americana.

التراجع الأخير في الحرب قد يكون مرتبطا أيضا بتطورين حدثا خلال الحرب الباردة الطويلة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. أولا وقبل كل شيء، عندما بنت هاتان القوتان العظميان ترسانات هائلة من الرؤوس النووية المحمولة على الصواريخ البالستية العابرة للقارات، والغواصات، والطائرات الحربية القاذفة

للقنابـل، أصبحـت الزيادة الكمية في العواقب المحتملة لحرب شـاملة غير مقبولة على نحو واضح وبشكل ملموس بحيث تراجعت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السـوفييتي عن شـفا الكارثة. التكلفة المتصاعدة لصيانة وتحديث هذه الترسانات من الأسـلحة أصبحت أيضـا عبئا عـلى كلا القوتين العظميين. (وقـد أجرى معهد بروكينغز إحصائيات تبين من خلالهـا أن الولايات المتحدة أنفقت منذ العام 1940 5.5 تريليـون دولار على قدراتهـا القتالية في الحرب النووية - وذلك أكبر من تكلفة الإنفـاق على أي برنامج آخر إلى جانب الضمان الاجتماعي)[191]. على الرغم من أن خطر مثل هذه الحرب قد تراجع بشـكل حاد بفضل اتفاقيات الحد من الأسـلحة، والتفكيك الجزئي لكلا الترسـانتين، وجهود الاتصالات والضمانـات المتضافرة (بما في ذلـك الاتفاقية الثنائية في الأمن الإلكتروني والنـووي التي أبرمت أخيرا)، يجب على الدوام الاستمرار في إدارة خطر تصاعد حدة التوترات.

ثانيـا، خلال الثلث الأخير من القرن العشريـن، مرت الولايات المتحدة والاتحاد السـوفييتي بتجارب مريرة من جراء فشـل الجهود في اسـتخدام القوة العسكرية التقليدية السـاحقة ضد ميليشـيا حرب العصابات التي تسـتخدم تكتيكات حرب العصابات غير النظامية، التي تزج بنفسـها بين السـكان وتخوض حرب اسـتنزاف. الدروس التي تعلمتها القوى العظمى استفادت منها أيضا ميليشيا حرب العصابات. ونجم عن ذلك جزئيا، أن اسـتمرار انتشـار تكتيكات حرب العصابات غير النظامية يقوِّض الآن بشكل فعلي احتكار الدولة القومية للقدرة على استخدام الحرب كأداة حاسمة في سياستها.

لايزال الفائض الكبير في مخزونات البنادق والأسلحة الأوتوماتيكية التي صُنِّعت خـلال الحروب السـابقة متوافـرا بغزارة، ليـس فقط لدى ميليشـيات العصابات المتمردة، بل لدى الأفـراد أيضا، والجماعات الإرهابية، والمنظمات الإجرامية. عندما يجري تصنيع جيل جديد من الأسـلحة، لا يُدمر الجيـل الأقدم منه. بدلا من ذلك، فإن هذه الأسلحة تجد طريقها إلى أيدي الآخرين، ما يزيد غالبا من تفاقم عمليات سـفك الـدم في الحروب الإقليمية والأهلية. وللأسـف، فإن قـوة جماعات الضغط والنفوذ السـياسي للشركات المصنِّعة للبنادق والذخيرة وشركات الدفاع قد أسهمت في هذا الانتشار للأسلحة بجميع أنحاء العالم. لقد عكس الرئيس باراك أوباما سياسة

الولايات المتحدة في العام 2009[192] واستأنف الدعوة إلى إبرام معاهدة للحد من هذه التجارة المدمرة، لكن التقدم في هذا المسار بطيء في أفضل الأحوال بسبب معارضة عدة دول وتعطّل عملية صنع القرار العالمي.

تواصل الولايات المتحدة هيمنتها على التجارة الدولية في الأسلحة بجميع أنواعها- بما في ذلك الأسلحة الدقيقة بعيدة المدى، وصواريخ أرض - جو - التي ينتهي المطاف بمعظم هذه الأسلحة في الاتجار بها في السوق السوداء[193]. حذّر دوايت أيزنهاور في خطابه الأخير كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية من «عُقْدة التصنيع العسكري»[194]. باعتباره القائد العام للقوات المسلحة المنتصر في الحرب العالمية الثانية، فلا يمكن اتهام الرئيس أيزنهاور على الإطلاق بأنه متساهل في قضية الأمن القومي. على الرغم من أن هناك فوائد لا يمكن إنكارها للولايات المتحدة من وراء صفقات الأسلحة، بما في ذلك تعزيز القدرة على إقامة تحالفات مفيدة والحفاظ عليها، فإن ما يدعو إلى القلق هو أن مصدر أكثر من نصف (52.7 في المائة في العام 2010) مجموع هذه الأسلحة العسكرية التي تُباع إلى مختلف الدول في جميع أنحاء العالم هو الولايات المتحدة الأمريكية[195].

الأهم من ذلك، تشتت المعرفة العلمية والتكنولوجية والخبرات عبر شركة الأرض، والعقل العالمي قد قوّض أيضا الاحتكار الذي تمارسه الدول القومية على الوسائل التي تؤدي إلى العنف الشامل. المواد الكيماوية والبيولوجية القادرة على إحداث إصابات جماعية تندرج الآن أيضا من الناحية النظرية على لائحة الأسلحة التي في متناول المجموعات غير التابعة لدول.

المعرفة اللازمة لتصنيع أسلحة الدمار الشامل، بما فيها الأسلحة النووية، قد انتشرت بالفعل على نحو خطير في الدول الأخرى. فبدلا من القوتين النوويتين اللتين تواجهتا بشكل مباشر في بداية الحرب الباردة، هناك الآن نحو 35-40 بلدا لديه القدرة على صنع قنابل نووية[196]. كوريا الشمالية، التي طورت بالفعل حفنة من الأسلحة النووية، وإيران، التي يعتقد كثيرون أنها تحاول أن تفعل ذلك، تعملان على تطوير برامج الصواريخ طويلة المدى التي يمكن أن تؤدي مع الوقت إلى تولّد القدرة لديهما على إظهار قوة عابرة للقارات[197]. يشعر الخبراء المختصون بانتشار الأسلحة النووية بقلق عميق إزاء انتشار الأسلحة النووية في بعض هذه الدول، ما

قد يزيد بشكل ملحوظ من خطر الجماعات الإرهابية التي يمكن أن تشتري أو تسطو على المكونات الأساسية التي يحتاجون إليها لصنع قنبلة نووية خاصة بهم. الرئيس السابق للبرنامج النووي في باكستان، عبد القدير خان، أقام علاقات وطيدة واسعة مع جماعات إسلامية متشددة. كوريا الشمالية، التي تعاني أزمة سيولة نقدية كما هي الحال دائما، باعت بالفعل تكنولوجيا الصواريخ ويعتقد كثيرون أنها قادرة على بيع مكونات الأسلحة النووية[198].

يشعر خبراء الأمن القومي بالقلق أيضا إزاء الفيض الإقليمي لشلالات الانتشار النووي في مناطق مثل الخليج وشمال شرق آسيا. وبعبارة أخرى، فإن تطوير إيران ترسانة نووية قد يمارس ضغوطا على المملكة العربية السعودية ودول أخرى محتملة في المنطقة لتطوير ترساناتها النووية الخاصة بها من أجل تأمين قوة الردع. إذا ما اكتسبت كوريا الشمالية القدرة الحقيقية على التهديد بشن هجوم نووي ضد اليابان، فإن الضغط على اليابان لتطوير ترسانتها سيكون شديدا على الرغم من تجربة اليابان التاريخية ومعارضتها للأسلحة النووية.

بما أن القيادة في المجتمع الدولي أمر ضروري، فهناك حاجة ملحّة إلى استعادة نزاهة عملية صنع القرار الديموقراطي في الولايات المتحدة. وهناك اتجاهات تدعو إلى التفاؤل، وليس أقلها صحوة النشاط الإصلاحي على شبكة الإنترنت. في جميع أنحاء العالم، تعمل الإنترنت على تمكين الأعداد المتزايدة بسرعة من أبناء الطبقة الوسطى العالمية للمطالبة بكل أنواع المساءلة والإصلاح من حكوماتهم، وكما هو معروف تاريخيا فإن مواطني الطبقة الوسطى هم على الأرجح الذين كانوا دائما يقومون بمثل هذه المطالبات وليس أبناء الطبقة الفقيرة أو المحرومين. ويرى أستاذ العلوم السياسية في جامعة ستانفورد فرانسيس فوكوياما أن هذا الأمر «هو الأكثر قبولا على نطاق واسع في البلدان التي وصلت إلى مستوى من الرخاء المادي المطلوب للسماح لأغلبية المواطنين لديها باعتبار أنفسهم من أبناء الطبقة الوسطى، ولهذا السبب يبدو أن هناك علاقة بين المستويات العالية من التنمية والديموقراطية المستقرة»[199].

الاتجاهات المرتبطة بظهور شركة الأرض - لاسيما الاستعانة الخارجية بالروبوتات، ونقل العمل من البشر إلى الآلات الذكية المتصلة بعضها مع بعض- تهدد بإبطاء عملية نهوض الطبقة الوسطى العالمية من خلال تقليص معدلات الأجور الإجمالية.

غير أن التقرير الذي صدر أخيرا عن نظام تحليل السياسات والاستراتيجيات الأوروبي (ESPAS) يتوقـع تقديريـا أن يتضاعـف عدد أبنـاء الطبقة الوسـطى العالمية في السـنوات الاثنتي عشرة القادمة من مليارين إلى أربعة مليارات نسمة، وسيصل إلى ما يقرب من خمسة مليارات نسمة بحلول العام 2030[200].

ويضيف التقرير: «بحلول العام 2030 من المرجح أن تتلاقى مطالب واهتمامات النـاس في العديد من البلـدان المختلفة عند نقطة واحدة، ما سـيكون له أثر بالغ في السياسـات الوطنية والعلاقات الدولية. وسـينجم هذا بشكل أساسي عن ارتفاع مستوى الوعي لدى جميع المواطنين في العالم الذين يتقاسمون الطموحات والمظالم. هذا الوعي يرسم بالفعل أجندة مواطنية عالمية تؤكد الحريات الأساسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وبشكل متزايد، القضايا البيئية»[201].

الوعي بمستويات معيشية أرقى، ومستويات أعلى من الحرية وحقوق الإنسان، وظروف بيئية أفضل، وتجاوب حكومات أكبر، سيسـتمر في الانتشـار داخل العقل العالمي. من المؤكـد أن هذا الوعي العالمي الجديد بالطرق التي لا حصر لها، والتي يمكن من خلالها تحسين حياة مليارات البشر، سيكون له أعمق الأثر في سلوك القادة السياسيين في جميع أنحاء العالم.

وبالفعل، فإن انتشـار حركات الاستقلال الملتزمة بالرأسـمالية الديموقراطية في الدول في جميع أنحاء الاتحاد السـوفييتي السابق، والانتشار المتفجر للربيع العربي في الـدول في جميع أنحاء الشرق الأوسـط وشـمال أفريقيا، هو أيضـا بمنزلة أمثلة حقيقية حول احتمال حدوث مثل هذه التغييرات بسرعة أكبر في عالم يسـتمد قوته من اتصالاته مع العقل العالمي.

مع الظهور المسـتمر لأول حضارة عالمية حقيقية في العالم، سـيعتمد المستقبل عـلى نتائج الصراع، الـذي بدأت تظهر بوادره الآن بين الضرورات الأساسـية لشركة الأرض والطاقة الواسـعة الكامنة في العقل العالمـي، لإصرار أصحاب الضمائر الحية على ضرورة الحد من التجاوزات من خلال فرض وتطبيق المعايير والمبادئ التي تقدِّر القيم الإنسانية وتحترمها.

كي لا يبـدو هـذا الأمر غير عمـلي أو مثالي إلى درجة كبيرة، هنـاك العديد من الأمثلة على المعايير العالمية الجديدة التي أسستها هذه الآلية في الماضي - حتى قبل

توافر هذه الإمكانية المحسّنة لدينا الآن من أجــل تعزيز المعايير العالمية الجديدة باســتخدام الإنترنت. حركة إلغاء الرق، والحركة المناهضة للتمييز العنصري، وتعزيز حقــوق المرأة، والقيــود المفروضة على عمالــة الأطفال، والحركــة المناهضة لصيد الحيتــان، واتفاقيــات جنيف ضد ممارســة التعذيب، والانتشــار السريع للحركات المناهضة للاســتعمار في ســتينيات القرن العشرين، وحظر إجــراء التجارب النووية في الغلاف الجوي، والموجات المتعاقبة من حركات الديموقراطية- اكتســبت جميعها زخما من خلال تقاســم الأفكار والمثل العليا بين مجموعات الأفراد الملتزمين في عدة بلدان الذين مارسوا ضغوطا على حكوماتهم للتعاون في تصميم القوانين والمعاهدات التي قادت إلى تغيير جذري واسع في كثير من أنحاء العالم.

بغــض النظر عن الدولــة التي نقيم فيها، نحن كبشر نواجــه الآن خيارين: إما أن تجتاحنــا التيارات القوية للتغير التكنولوجي والحتميــة الاقتصادية وتجرفنا إلى مســتقبل يمكن أن يهدد القيم الدفينة لدينا، وإما أن نبني القدرات التي تمكننا من صنع القرار الجماعي على نطاق عالمي، ما يســمح لنا بتشكيل ذلك المستقبل بطرق تصون الكرامة البشرية وتعكس طموحات وتطلعات الأمم والشعوب.

الهوامش

المقدمة

(1) Peter Lindström, *The Future Agenda as Seen by the Committees and Subcommittees of the United States House of Representatives: A Workbook for Participatory Democracy* (Washington, DC: Congressional Clearinghouse on the Future and the Congressional Institute for the Future, 1982).

(2) The Nobel Prize in Chemistry, 1977: Ilya Prigogine, "Autobiography," http://www.nnobelprize.org/nnobel_prizes/chemistry/laureate/1977/Prigogine-autobio.html#.

(3) المرجع السابق.

(4) Peter T. Macklem, "Emergent Phenomena and the Secrets of Life," *Journal of Applied Physiology* 104 (2008): 1844– 46; Ray Kurzweil, *The Age of Spiritual Machines: When Computers Exceed Human Intelligence* (New York: Penguin, 1999).

(5) Macklem, "Emergent Phenomena and the Secrets of Life."

(6) المرجع السابق.

(7) Farrington Daniels, "A Limitless Resource: Solar Energy," *New York Times*, March 18, 1956. 8 "which made so manifest the 'arrow of time' "

(8) Prigogine, "Autobiography."

(9) Ivana MilojeviĆ, "A Selective History of Futures Thinking," from "Futures of Education: Feminist and Post-Western Critiques and Visions" (Ph.D. diss., University of Queensland, 2002).

(10) المرجع السابق.

(11) المرجع السابق.

(12) المرجع السابق.

(13) المرجع السابق.

(14) Tracy V. Wilson, "How Holograms Work," HowStuffWorks, http://science.howstuffworks.com/hologram.htm.

(15) Fred Polak, *The Image of the Future* (Amsterdam: Elsevier Scientific, 1973), p. 5.

(16) لقاء شخصي مع دانيل شراغ.

(17) Mike Salvaris, "The Idea of Progress in History: Future Directions in Measuring Australia's Progress," Australian Bureau of Statistics, 2010.

(18) Robert Nisbet, "The Idea of Progress," *Literature of Liberty: A Review of Contemporary Liberal Thought* 2, no. 1 (1979).

(19) Peter Hubral, "The Tao: Modern Pathway to Ancient Wisdom," Philosopher 98, no. 1 (2010), http://www.the-philosopher.co.uk/taowisdom.htm; Abu al-Hasan Ali ibn al-Husayn al-Mas'udi, "How Do We Come Upon New Ideas?," First Break 29 (March 2011).

(20) Salvaris, "The Idea of Progress in History."

(21) Polak, *The Image of the Future*, pp. 82–95.

(22) Jonathan Janson, "Antonie van Leeuwenhoek (1632–1723)," Essential Vermeer, http://www.eessentialvermeer.ccom/dutch-painters/dutch_art/leeuwenhoek.hhtml.

(23) Nobel Media, "Microscopes: Time Line," http://w ww.nobelprize.org/educational/physics/microscopes/timeline/index. html.

(24) المرجع السابق.

(25) بالإضافة إلى الصداقة والتعاون الفني الممكن بينهما، كان فان ليوينهويك أيضا منفذ وصية فيرمير.

Jonathan Janson, "Vermeer and the Camera Obscura," Essential Vermeer, http://www.essentialvermeer.com/camera_obscura/co_one.html;Philip Steadman, "Vermeer and the Camera Obscura," BBC History, February 17, 2011, http://www.bbc.co.uk/history/british/empire_seapower/vermeer_camera_01.shtml.

(26) Thomas Jefferson, "To William Ludlow," September 6, 1824, *The Portable Thomas Jefferson* (New York: Penguin, 1977), p. 583.

(27) Richard A. Fortey, "Charles Lyell and Deep Time," *Geoscientist* 21, no. 9 (October 2011); V. G. Kuznetsov, "Importance of Charles Lyell's Works for the Formation of Scientific Geological Ideology," *Lithology and Mineral Resources* 46, no. 2 (2011): 186–97; Mark Lewis, "The History of the Future," Forbes, October 15, 2007.

(28) "History of Life on Earth," BBC Nature, http://www.bbc.co.uk/nature/history_of _earth.

(29) Fortey, "Charles Lyell and Deep Time"; Kuznetsov, "Importance of Charles Lyell's Works for the Formation of Scientific Geological Ideology."

(30) Aristotle, *Eudemian Ethics*, Book 2, Section 1219a.

(31) Scott Horton, "The Sorcerer's Apprentice," *Harper's*, December 2007; Cyrus Hamlin, "Faust in Performance: Peter Stein's Production of Goethe's Faust, Parts 1 & 2," *Theatre* 32 (2002).

(32) Henry Farrell and Cosma Shalizi, "Cognitive Democracy," *Three-Toed Sloth*, May 23, 2012, http://masi.cscs.lsa.umich.edu/~crshalizi/weblog/917.html.

(33) Polak, *The Image of the Future*, p. 196.

(34) "History of Life on Earth," BBC Nature.

(35) المرجع السابق.

(36) المرجع السابق.

(37) المرجع السابق.

(38) المرجع السابق.

(39) Blythe A. Williams, Richard F. Kay, and E. Christopher Kirk, "New Perspectives on Anthropoid Origins," *Proceedings of the National Academy of Sciences*, March 8, 2010.

(40) David Appell, "The Sun Will Eventually Engulf Earth—Maybe," *Scientific American*, September 8, 2008.

الفصل الأول

(1) Martin Ford, *Lights in the Tunnel: Automation, Accelerating Technology and the Economy of the Future* (N.p.:Acculant, 2009).

(2) «Foxconn to Replace Workers with 1 Million Robots in 3 Years,» *Xinhuanet*, July 30, 2011, http://news.xinhuanet.com/english2010/china/201130/7 0-/c_131018764.htm.

(3) Quentin Hardy, "The Global Arbitrage of Online Work," *New York Times*, October 10, 2012.

(4) Joe Fassler, «Can the Computers at Narrative Science Replace Paid Writers?,» *Atlantic*, April 12, 2012.

(5) Jonathan Watts, "Latin America's Income Inequality Falling, Says World Bank," *Guardian*, November 13, 2012.

(6) Natasha Lennard, «Global Inequality Highest in 20 Years,» Salon, November 1, 2012, http://www.salon.com/2012/11/01/global_inequality highest_in_20_years./

(7) "Unbottled Gini," Economist, January 20, 2011; *CIA World Factbook*, https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/fields/2172.html, accessed January 20, 2012.

(8) Data Set, University of Texas Inequality Project, Estimated Household Income Inequality Data Set (EHII). This is a global data set, derived from the econometric relationship between UTIP-UNIDO, other conditioning variables, and the World Bank's Deininger & Squire data set (http://utip.gov.utexas.edu/data.html); World Data Bank, http://data.worldbank.org/indicator/SI.POV.G INI.

(9) المصدر السابق.

(10) Data Set, University of Texas Inequality Project, Estimated Household Income Inequality Data Set; "Growing Income Inequality in OECD Countries: What Drives It and How Can Policy Tackle It?," OECD Forum on Tackling Inequality, May 2, 2011, http://www.oecd.org/dataoecd/3247723414/20/.pdf.

(11) "India Income Inequality Doubles in 20 Years, Says OECD," BBC, December 7, 2011, http://www.bbc.co.uk/n ews/world-asia-india-16064321.

(12) Joseph E. Stiglitz, "Of the 1%, by the 1%, for the 1%," *Vanity Fair*, May 2011.

(13) Paul Krugman, "We Are the 99.9%," *New York Times*, November 24, 2011.

(14) Nicholas D. Kristof, "America's 'Primal Scream,' " *New York Times*, October 15, 2011.

(15) المصدر السابق.

(16) المصدر السابق.

(17) Tim Worstall, "Six Waltons Have More Wealth Than the Bottom 30% of Americans," *Forbes*, December 14, 2011.

(18) Stiglitz, "Of the 1%, by the 1%, for the 1%."

(19) Krugman, "We Are the 99.9%."

(20) UnctadStat, Statistical Database for the United Nations Conference on Trade and Development, http://unctadstat.unctad.org/ReportFolders/report folders.a spx.

(21) International Monetary Fund, World Economic Outlook, September 2011,http://www.imf.org/external/pubs/ft/wew/201102//weodata/WEOSep2011alla.xls; Peter Bisson, Elizabeth Stephenson, and S. Patrick Viguerie, "The Global Grid," *McKinsey Quarterly*, July 26, 2011.

(22) UnctadStat, Statistical Database for the United Nations Conference on Trade and Development.

(23) Daniel J. Ikenson, "Made on Earth: How Global Economic Integration Renders Trade Policy Obsolete," Cato Trade Policy Analysis No. 42, December 2, 2009, http://www.cato.org/pubs/tpa/tpa-042.pdf.

(24) المصدر السابق.

(25) Steven Mufson, "China's Growing Share of Solar Market Comes at a Price," *Washington Post*, December 16, 2011.

(26) Brett Arends, "IMF Bombshell: Age of America Nears End," Market Watch, April 25, 2011, http://www.marketwatch.com/story/imf-bombshell-age-of-america-a bout-to-end-201125-04-.

(27) «The Dating Game,» *Economist*, December 27, 2011, http://www.economist.com/blogs/dailychart/2 010/ save_date; «Survey: China has 513 million Internet users,» CBS News, January 15, 2012, http://www.cbsnews.com/830157359546-162 _05 2-/survey-china-has-513-million-internet-users/; Internet World Stats, «Top 20 Countries with the Highest Number of Internet Users,» August 7, 2011, http://www.internetworldstats.com/top20.htm.

(28) "Job-Devouring Technology Confronts US Workers," *Financial Times*, December 15, 2011.

(29) "U.S. Tax Haul Trails Profit Surge," *Wall Street Journal*, January 4, 2012.

(30) Catherine Rampell, «Companies Spend on Equipment, Not Workers,» *New York Times*, June 10, 2011.

(31) Robotic Industries Association, "North American Robot Orders Jump 41% in First Half of 2011," July 29, 2011, http://www.robotics.org/content-detail.cfm/Industrial-Robotics-News/North-American-Robot-Orders-Jump-41-in-First- Half- of-2011/content_id/2922.

(32) «Special Report: Developing World to Overtake Advanced Economies in 2013,» *Euromonitor*, February 19, 2009, http://blog.euromonitor.com/20092 0//special-report-developing-world-to-overtake-advanced-economies-in-2013-.html.

(33) Mark Mobius, «Emerging Markets May See More Capital Flow, Away from Assets and Currencies of Countries Burdened with High Debt,» Economic Times, September 27, 2011.

(34) Ruchir Sharma, "Broken BRICs: Why the Rest Stopped Rising," *Foreign Affairs*, November/December 2012.

(35) Don Lee, «U.S. Jobs Continue to Flow Overseas,» *Los Angeles Times*, October 6, 2010.

(36) United Nations Department of Economic and Social Affairs, The Report on the World Social Situation: The Global Social Crisis, 2011, http://social.un.org/index/LinkClick.aspx?fileticket=cO3JAiiX-NE%3D&tabid=1562.

(37) "Why Derivatives Caused Financial Crisis," Seeking Alpha, April 12, 2010, http://seekingalpha.com/article/198197- why-derivatives-c aused-financial-crisis.

(38) المصدر السابق.

(39) المصدر السابق.

(40) Nathaniel Popper, "High-Speed Trading No Longer Hurtling Forward," *New York Times*, October 14, 2012.

(41) Donald MacKenzie, "How to Make Money in Microseconds," *London Review of Books*, May 19, 2011.

(42) المصدر السابق.

(43) Brandon Keim, "Nanosecond Trading Could Make Markets Go Haywire," *Wired*, February 16, 2012.

(44) John Melloy, "Mysterious Algorithm Was 4% of TradingActivity Last Week," CNBC, October 8, 2012, http://www.cnbc.com/id/49333454/Mysterious_Algorithm_Was_4_of_Trading_Activity_Last_Week.

(45) Christopher Steiner, "Wall Street's Speed War," *Forbes*, September 27, 2010.

(46) المصدر السابق.

(47) المصدر السابق.

(48) المصدر السابق.

(49) Thomas Philippon, "The Future of the Financial Industry," Stern on Finance blog, October 16, 2008, http://sternfinance.blogspot.com/20081/0/future-of-financial-industry-thomas.html.

(50) "America's Big Bank $244 Trillion Derivatives Market Exposed," Seeking Alpha, September 15, 2011, http:// seekingalpha.com/article/293830-america-s-bI g-b ank-244-trillion-d erivatives-market-e xposed.

(51) المصدر السابق.

(52) Roderick Bruce, «Making Markets: Oil Derivatives: In the Beginning,» Energyrisk.com, p. 31, July 2009, http://db.riskwaters.com/data/energyrisk/E nergyRisk/Energyrisk_0709/markets.pdf.

(53) But see Mazen Labban, «Oil in Parallax: Scarcity, Markets, and the Financialization of Accumulation,» *Geoforum* 41 (2010): 546

(«على الرغم من أن المشـتقات المالية سـمحت للمسـتثمرين والتجار بإدارة المخاطر والتحوط ضد تقلبات الأسواق المالية، كان «التأثير الكلي» من التداول في المشتقات هو زيادة المخاطر والإسهام في تقلب السوق»).

Adam Tickell, "Unstable Futures: Controlling and Creating Risks in International Money," *Global Capitalism Versus Democracy*, edited by Leo Panitch and Colin Leys (New York: Monthly Review Press, 1999), pp. 248–77; Adam Tickell, "Dangerous Derivatives: Controlling and Creating Risks in International Money," *Geoforum* 31 (2000): 87–99.

(54) Peter J. Boettke, «Where Did Economics Go Wrong? Modern Economics as a Flight from Reality,» *Critical Review* 11, no. 1 (1997): 11–64; Al Gore and David Blood, «A Manifesto for Sustainable Capitalism,» *Wall Street Journal*, December 14, 2011.

(55) حوار شخصي مع جوزيف ستيغلتز.

(56) Morris Miller, "Global Governance to Address the Crises of Debt, Poverty and Environment," background paper prepared for the 42nd Pugwash Conference, Berlin, Germany, September 1992,

http://www.management.u ottawa.c a/ miller/g overna.htm.

(57) Donald MacKenzie, "How to Make Money in Microseconds," *London Review of Books*, May 19, 2011.

(58) "Dow Falls 1,000, Then Rebounds, Shaking Market," *New York Times*, May 7, 2010.

(59) المصدر السابق.

(60) المصدر السابق.

(61) Graham Bowley, "The New Speed of Money, Reshaping Markets," New York Times, January 2, 2011; Felix Salmon and Jon Stokes, "Algorithms Take Control of Wall Street," Wired, December 27, 2010.

(62) حوار شخصي مع جوزيف ستيغلتز.

(63) المصدر السابق.

(64) "Robo-Signing' of Mortgages Still a Problem," Associated Press, July 18, 2011, http://www.cbsnews.com/stories/ 201118/07//national/main20080533.s html.

(65) Alan Zibel, Matthias Rieker, and Nick Timiraos, «Banks Near 'Robo-Signing' Settlement,» *Wall Street Journal*, January 19, 2012.

(66) Mark Jickling and Rena S. Miller, «Derivatives Regulation in the 111th Congress,» Congressional Research Service Report for Congress, March 3, 2011, Table I, http://assets.opencrs.com/rpts/R40646_20110303.pdf.

(67) "Why Derivatives Caused Financial Crisis," Seeking Alpha, April 12, 2010, http://seekingalpha.com/article/1 98197- why-derivatives-caused-financial-crisis.

(68) Organisation for Economic Co-operation and Development, "Divided We Stand."

(69) Ronald Findlay and Kevin H. O'Rourke, "Commodity Market Integration, 1500–2000," in *Globalization in Historical Perspective*, edited by Michael D. Bordo, Alan M. Taylor, and Jeffrey G. Williamson (Chicago: University of Chicago Press, 2003).

(70) المصدر السابق.

(71) المصدر السابق.

(72) «Hello America,» *Economist*, August 16, 2010 (citing Angus Maddison).

(73) Derek Thompson, «The Economic History of the Last 2,000 Years in 1 Little Graph,» *Atlantic*, June 19, 2012.

(74) Malcolm Gladwell, "The Tweaker," *New Yorker*, November 14, 2011.

(75) Wayne D. Rasmussen, U.S. Department of Agriculture National Agricultural Library, "Lincoln's Agricultural Legacy," January 30, 2012, http://www.nal.usda.gov/lincolns-aricultural-legacy.

(76) U.S. Department of Agriculture, "A History of American Agriculture: Farmers & the Land," Agriculture in the Classroom,

http://www.agclassroom.org/gan/timeline/farmers_land.ht m.

(77) Rasmussen, "Lincoln's Agricultural Legacy."

(78) U.S. Department of Agriculture, «A History of American Agriculture».

(79) Representative Butler Derrick, *Congressional Record* 140, no. 138 (September 28, 1994).

(80) United Nations Food and Agriculture Organization, *World Livestock* 2011, http://www.fao.org/docrep/014/i2373e/i2373e.pdf.

(81) المصدر السابق.

(82) المصدر السابق.

(83) Brian J. Cudahy, "The Containership Revolution: Malcolm McLean's 1956 Innovation Goes Global," *Transportation Research* News, Transportation Research Board of the NationalAcademies, no. 246 (September / October 2006): 5– 9, http://onlinepubs.trb.org/onlinepubs/trnews/trnews246.pdf.

(84) المصدر السابق؛

Marc Levinson, «Container Shipping and the Economy,» *Transportation Research News*, Transportation Research Board of the National Academies, no. 246 (September / October 2006): 10, http://onlinepubs.trb.org/ onlinepubs/trnews/trnews246.p df.

(85) "Plunging Prices Set to Trigger Tech Boom," Financial Times, January 8, 2012; "TV Prices Fall, Squeezing Most Makers and Sellers," *New York Times*, December 26, 2011.

(86) Richard Powelson, "First Color Television Sets Were Sold 50 Years Ago," Scripps Howard News Service, December Richard Powelson, "First Color Television Sets Were Sold 50 Years Ago," Scripps Howard News Service, December 31, 2003, http://www.post-gazette.com/tv/20031231colortv1231p3.asp.

(87) Energy Information Administration, Annual Energy Review, October 19, 2011, http://www.eIa.gov/totalenergy/data/annual/xls/stb0702.xls; Mine Safety and Health Administration, Table 3, «Average Number of Employees at Coal Mines in the United States, by Primary Activity, 1978–2008,» http://www.msha.gov/STATS/PART50/WQ/1 978/wq78cl03.asp.

(88) John E. Tilton and Hans H. Landsberg, September 1997, «Innovation, Productivity Growth, and the Survival of the U.S. Copper Industry,» Resources for the Future, http://www.rff.org/RFF/Documents/RFF-DP-9 741-.pdf.

(89) المصدر السابق.

(90) المصدر السابق.

(91) Matthijs Randsdorp, "A Closer Look at Copper," November 3, 2011, TCW, https://www.tcw.com/News_and_Commentary/Market_Commentary/Insights/1111-03-_A_C loser_Look_at_C opper.aspx.

(92) John Markoff, «Armies of Expensive Lawyers, Replaced by Cheaper Software,» New York Times, March 5, 2011.

(93) Rebecca J. Rosen, "Google's Self-Driving Cars: 300,000 Miles Logged, Not a Single Accident Under Computer Control," *Atlantic*, August 9, 2012.

(94) U.S. Bureau of Labor Statistics, as cited in the *Statistical Abstract of the United States: 2010*, Table 640, http://www. census.gov/compendia/statab/.

(95) Mauricio Cardenas, «Lower Savings in China Could Slow Down Growth in Latin America,» Brookings Institution, February 11, 2011, http://w ww.brookings.edu/research/opinions/201111-/2 0/c hina-s avings-cardenas-frank.

(96) Caltech Materials Science, "Welcome," 2012, http://www.matsci.caltech.edu/.

(97) Eric Steinhart, "Teilhard de Chardin and Transhumanism," *Journal of Evolution and Technology* 20, no. 1 (December 2008): 1-22.

(98) Christopher Meyer and Stan Davis, *It's Alive: The Coming Convergence of Information, Biology and Business* (New York: Crown Business, 2003), p. 4.

(99) المصدر السابق ص 3 - 6، 66 - 67.

(100) John F. Sargent Jr., "Nanotechnology:APolicy Primer," Congressional Research Service,April 13, 2012, http://www.fas.org/sgp/crs/misc/ RL34511.pdf.

(101) المصدر السابق.

(102) «Nanotech-Enabled Consumer Products Continue to Rise,» *ScienceDaily*, March 13, 2011, http://www.sciencedaily. com/releases/20111103101013 51/3 0/.htm.

(103) Miljana Radivojevića et al., "On the Origins of Extractive Metallurgy: New Evidence from Europe," *Journal of Archaeological Science*, November 2010.

(104) Richard Cowen, «Chapter 5: The Age of Iron,» April 1999, http:// mygeologypage.ucdavis.edu/cowen/~ GEL115/ 115CH5.html.

(105) "Bronze Age," Encyclopaedia Britannica, http://www.br itannica.com/ EBchecked/topic/8 1017/Bronze-Age.

(106) Cowen, "Chapter 5: The Age of Iron."

(107) المصدر السابق.

(108) المصدر السابق.

(109) المصدر السابق.

(110) Jeremy Rifkin, *The Third Industrial Revolution: How Lateral Power Is Transforming Energy, the Economy, and the World* (New York: Palgrave Macmillan, 2011).

(111) Pulickel M.Ajayan and Otto Z. Zhou, «Applications of Carbon Nanotubes,» *Topics in Applied Physics 80* (2001): 391– 425; Eliza Strickland, «9 Ways Carbon Nanotubes Just Might Rock the World,» *Discover Magazine*, August 6, 2009.

(112) Corie Lok, «Nanotechnology: Small Wonders,» *Nature*, September 1, 2010, pp. 18–21.

(113) Dmitri Kopeliovich, "Ceramic Matrix Composites (Introduction)," SubsTech, http://w ww.substech.com/dokuwiki/doku. php?id=ceramic_matrix_c omposites_introduction.

(114) "Nanotech-Enabled Consumer Products Continue to Rise," ScienceDaily, March 13, 2011, http://www.sciencedaily.com/releases/ 2011/03/110310101351.htm; Sargent, "Nanotechnology: A Policy Primer"; Project on Emerging Nanotechnologies, 2012, http://www.fas.org/sgp/crs/misc/R L34511.pdf.

(115) A. K. Geim, «Graphene: Status and Prospects,» Science 324, no. 5934 (June 19, 2009): 1530–34; Matthew Finnegan, «Graphene Nanoribbons Could Extend Moore's Law by 10 Years,» Techeye.com, September 28, 2011; «Adding Hydrogen Triples Transistor Performance in Graphene,» *ScienceDaily*, September 4, 2011.

(116) Robert F. Service, "Nanotechnology Grows Up," *Science* 304, no. 5678 (June 18, 2004): 1732–34.

(117) المصدر السابق.

(118) المصدر السابق.

(119) National Research Council, Nanotechnology in Food Products: Workshop Summary (Leslie Pray and Ann Yaktine, rapporteurs, 2009).

(120) المصدر السابق.

(121) Lok, "Nanotechnology: Small Wonders," pp. 18–21.

(122) «The Printed World: Three-Dimensional Printing from Digital Designs Will Transform Manufacturing and Allow More People to Start Making Things,» *Economist*, February 10, 2011.

(123) المصدر السابق.

(124) "The Third Industrial Revolution," *Economist*, April 21, 2012; Peter Day, "Will 3D Printing Revolutionise Manufacturing?," BBC, July 27, 2011, http://www.bbc.co.uk/news/business-14282091.

(125) «The Third Industrial Revolution,» *Economist*; Day, «Will 3D Printing Revolutionise Manufacturing»?

(126) Day, «Will 3D Printing Revolutionise Manufacturing?»; Neil Gershenfeld, «How to Make Almost Anything,» *Foreign Affairs*, September 27, 2012.

(127) «The Printed World,» *Economist*.

(128) Ashlee Vance, "3-D Printing Spurs a Manufacturing Revolution," *New York Times*, September 14, 2010.

(129) Day, "Will 3D Printing Revolutionise Manufacturing?"; "The Third Industrial Revolution," *Economist*.

(130) «The Printed World,» *Economist*; Jeremy Rifkin, «The Third Industrial Revolution: How the Internet, Green Electricity, and 3-D Printing Are Ushering in a Sustainable Era of Distributed Capitalism,» *Huffington Post*, March 28, 2012, http://www.huffingtonpost.com/jeremy-rifkin/the-third-industrial-revo_1_b_1386430.html.

(131) "The Printed World," *Economist*; Rifkin, "The Third Industrial Revolution".

(132) Diane Coyle, introduction to *The Weightless World: Strategies for Managing the Digital Economy* (Oxford: Capstone, 1997).

(133) «The Printed World,» *Economist*.

(134) Day, "Will 3D Printing Revolutionise Manufacturing"?

(135) "The Third Industrial Revolution," *Economist*; Gershenfeld, "How to Make Almost Anything".

(136) Day, "Will 3D Printing Revolutionise Manufacturing"?

(137) Vance, "3-D Printing Spurs a Manufacturing Revolution"; Behrokh Khoshnevis, TEDx Conference presentation, February 2012.

(138) «The Printed World,» *Economist*.

(139) المصدر السابق.

(140) Michael Weinberg, "The DIY Copyright Revolution," *Slate*, February 23, 2012, http://www.slate.com/articles/technology/future_tense/20123_/02/_d_printing_copyright_and_intellectual_property_.html; "The Third Industrial Revolution," *Economist*; Peter Marsh, "Made to Measure," *Financial Times*, September 7, 2012.

(141) "The Printed World," *Economist*.

(142) Vance, "3-D Printing Spurs a Manufacturing Revolution"; "Transplant Jaw Made by 3D Printer Claimed as First," BBC News, February 6, 2012,

http://www.bbc.co.u k/news/t echnology-16907104; "Engineers Pioneer Use of 3D Printer to Create New Bones," BBC News, November 30, 2011, http://www.bbc.com/news/technology-15963467; Joann Pan, "3D Printer Creates 'Magic Arms' for Two-Year-Old Girl," Mashable, August 3, 2012, http://m ashable.c om/2 0123 /03/08/d-printed-m agic-arms/; "Artificial Blood Vessels Created on a 3D Printer," BBC News, September 16, 2011, http:// www.bbc.co.uk/news/technology-14946808.

(143) Vance, «3-D Printing Spurs a Manufacturing Revolution».

(144) Bob Parks, "Creation Engine: Autodesk Wants to Help Anyone, Anywhere, Make Anything," *Wired*, September 21, 2012.

(145) «3D Printers Could 'Print Ammunition for an Army,'" *Dezeen Magazine*, October 3, 2012, http://www.dezeen.com/2012/10/03/3d-printers-could-print-ammunition-for-an-army/

(146) Nick Bilton, «Disruptions: With a 3-D Printer, Building a Gun with the Push of a Button,» *New York Times*, October 7, 2012.

(147) "The Third Industrial Revolution," *Economist*.

(148) Boston Consulting Group, press release, «Nearly a Third of Companies Say Sustainability Is Contributing to Their Profits, Says MIT Sloan Management Review–Boston Consulting Group Report,» January 24, 2012, http://www.bcg.com/media/PressReleaseDetails.aspx?id=tcm:12-96246.

(149) Joseph E. Stiglitz, "The 1 Percent's Problem," *Vanity Fair*, May 31, 2012.

(150) World Bank, World Development Indicators, 2010 annual report, http://data.worldbank.org/sites/default/files/wdi-final. pdf.

(151) درو شيندل، مقابلة هاتفية مع المؤلف، 1 سبتمبر 2009.

(152) James Montier, *Behavioural Investing: A Practitioner's Guide to Applying Behavioural Finance* (Chichester, UK: Wiley, 2007), p. 277.

(153) Richard Dobbs, Keith Leslie, and Lenny T. Mendonca, "Building the Healthy Corporation," *McKinsey Quarterly*, August 2005; RogerA. Morin and Sherry L. Jarrell, *Driving Shareholder Value: Value-Building Techniques for Creating Shareholder Wealth* (New York: McGraw-Hill, 2001), p. 56; Roland J. Burgman, David J. Adams, David A. Light, and Joshua B. Bellin, "The Future Is Now," *MIT Sloan Management Review*, October 26, 2007.

(154) Henry Blodget, "You're an Investor? How Quaint," Business Insider,August 8, 2009, http://www.businessinsider.com/ henry-blodget-youre-a n-investor-how-quaint-2009-8.

(155) Jon Gertner, "Does America Need Manufacturing?," *New York Times Magazine*, August 28, 2011.

(156) Tilde Herrera, «BSR 2011:Al Gore Says Short-Term Thinking Is 'Functionally Insane,'» GreenBiz, November 2, 2011, http://www.greenbiz.com/blog/2011/11/02/bsr-2011-al-gore-says-short-term-thinking-functionally-insane.

(157) Sileshi Semaw et al., "2.6-Million-Year-Old Stone Tools and Associated Bones from OGS-6 and OGS-7, Gona, Afar, Ethiopia," *Journal of Human Evolution* 45 (2003): 169–77.

(158) Graeme Barker, *The Agricultural Revolution in Prehistory: Why Did Foragers Become Farmers?* (New York: Oxford University Press, 2009), p. v

(«قبل عشرة آلاف سـنة كان هنـاك عدد قليل أو بالـكاد أي مجتمعات يمكن وصفها بأنها مجتمعات زراعية. قبل خمسـة آلاف سنة كانت أعداد كبيرة من سكان العالم من المزارعين ...»).

(159) المصدر السابق؛

Claude Fischer, «Can You Compete with A.I. for the Next Job?,» Fiscal Times, April 14, 2011; Carolyn Dimitri, Anne Effland, and Neilson Conklin, Economic Research Service, U.S. Department of Agriculture, «The 20th Century Transformation of U.S.Agriculture and Farm Policy,» June 2005, http://www.ers.usda.gov/publications/eib3/eib3.htm; United Nations Social Policy and Development Division, *Report on the World Social Situation* 2007: The Employment Imperative, 2007, http://www.un.org/esa/socdev/rwss/docs/2007/chapter1..

مازالت الزراعة تمثل 45٪ من قوى العمل في العالم، أو حوالي 1.3 بليون إنسان.

(160) United Nations Social Policy and Development Division, *Report on the World Social Situation 2007: The Employment Imperative.*

(161) Barker, *The Agricultural Revolution in Prehistory*, p.v.

(162) "Clarke's Third Law," in *Brave New Words: The Oxford Dictionary of Science Fiction*, edited by Jeff Prucher (New York: Oxford University Press, 2007), p. 22.

(163) "Human Brains Enjoy Ongoing Evolution," *New Scientist*, September 9, 2005.

(164) John Markoff, "The iPad in Your Hand: As Fast as a Supercomputer of Yore," *New York Times*, May 9, 2011.

(165) Steven E. Jones, *Against Technology: From the Luddites to Neo-Luddism* (New York: Routledge, 2006), pp. 54–55.

(166) Ford, *Lights in the Tunnel*, pp. 95–100.

(167) Marshall McLuhan, *Understanding Media: The Extensions of Man* (Cambridge, MA: MIT Press, 1994).

الفصل الثاني

(1) Steven Greenhouse, "Postal Service Is Nearing Default as Losses Mount," *New York Times*, September 5, 2011.

(2) International Telecommunication Union, "The World in 2011: ICT Facts and Figures," 2011, http://www.itu.int/ITU-D/ict/facts/2011/material/ICTFactsFigures2011.pdf.

(3) Dave Evans, "The Internet of Things," Cisco Blog, July 15, 2011, http://blogs.cisco.com/news/the-internet-of-things- infographic/.

(4) Jessi Hempel, "The Hot Tech Gig of 2022: Data Scientist," *Fortune*, January 6, 2012; Evans, "The Internet of Things."

(5) Maisie Ramsay, "Cisco: 1 Trillion Connected Devices by 2013," *Wireless Week*, March 25, 2010.

(6) David Rosen, "Big Brother Invades Our Classrooms," Salon, October 8, 2012, http://www.salon.com/201208/10//big_ brother_invades_our_classrooms/.

(7) Nathaniel Hawthorne, *The House of the Seven Gables* (Boston: Ticknor, Reed, & Fields, 1851), p. 283.

(8) H. G. Wells, *World Brain* (London: Ayer, 1938).

(9 Jesse Alpert and Nissan Hajaj, "We Knew the Web Was Big...," Google Official Blog, July 25, 2008, http://googleblog. blogspot.com/200807//we-knew-web-was-big.html.

(10) Pierre Teilhard de Chardin, The Future of Man (1964), chap. 7, "The Planetisation of Man."

(11) McLuhan, *Understanding Media*.

(12) Kevin Kelly, What Technology Wants (New York: Penguin, 2010).

(13) Sherry Turkle, *Alone Together: Why We Expect More from Technology and Less from Each Other* (New York: Basic Books, 2011); Robert Kraut et al., "Internet Paradox: A Social Technology That Reduces Social Involvement and Psychological Well-Being?," *American Psychologist* 53, no. 9 (September 1998): 1017–31; Stephen Marche, "Is Facebook Making Us Lonely?," *Atlantic*, May 2012.

(14) Tony Dokupil, "Is the Web Driving Us Mad?," *Daily Beast*, July 8, 2012.

(15) Jane McGonigal, "Video Games:An Hour a Day Is Key to Success in Life," Huffington Post, February 15, 2012, http://www.huffingtonpost.com/jane-mcgonigal/video-games_b_823208.html.

(16) المصدر السابق.

(17) Mathew Ingram, "Average Social Gamer Is a 43-Year-Old Woman," GigaOM, February 17, 2010, http://gigaom.com/2010/02/17/average-social-gamer-is-a-43-year-old-woman/.

(18) المصدر السابق.

(19) Robert Lane Greene, "Facebook: Like?," Intelligent Life, May/June 2012, http://moreintelligentlife.com/content/ideas/robert-lane-greene/facebook?page=full.

(20) Nicholas Carr, *The Shallows: What the Internet Is Doing to Our Brains* (New York: Norton, 2010).

(21) John Bohannon, "Searching for the Google Effect on People's Memory," *Science*, July 15, 2011.

(22) Alex Hutchinson, "Global Impositioning Systems," *Walrus*, November 2009.

(23) Carr, *The Shallows.*

(24) Library of Congress, World Treasures of the Library of Congress, July 29, 2010, http://www.loc.gov/exhibits/w orld/world-record.html.

(25) Walter J. Freeman, *How Brains Make Up Their Minds* (New York: Columbia University Press, 2000), pp. 37–43, 81–82; Society for Neuroscience, "Brain Plasticity and Alzheimer's Disease," 2010, http://web.archive.org/web/20101225174414/http://sfn.org/index.aspx?pagename=publications_rd_alzheimers.j.

(26) McLuhan, *Understanding Media.*

(27) Plato, Plato's Phaedrus, translated by Reginald Hackforth (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1972), p. 157.

(28) Kleinrock Internet History Center at UCLA, "The IMP Log: October 1969 to April 1970," September 21, 2011, http://internethistory.ucla.edu/201109//imp-log-october-1969-to-april-1970.html; Jim Horne, "What Hath God Wrought," *New York Times*, Wordplay blog, September 8, 2009, http://wordplay.blogs.nytimes.com/2009/09/08/wrought/; George P. Oslin, The Story of Telecommunications (Macon, GA: Mercer University Press, 1999), pp. 2, 219.

(29) Carr, *The Shallows*, pp. 191–97.

(30) Michael S. Gazzaniga, *Human: The Science Behind What Makes Us Unique* (New York: HarperCollins, 2008), p. 199.

(31) R.I.M. Dunbar, "Coevolution of Neocortical Size, Group Size and Language in Humans," *Behavioral and Brain Sciences* 16, no. 4 (1993): 681–735.

(32) Constance Holden, "The Origin of Speech," *Science* 303, no. 5662 (February 27, 2004): 1316–19.

(33) John Noble Wilford, "Who Began Writing? Many Theories, Few Answers," *New York Times*, April 6, 1999.

(34) Nicholas Wade, "Phonetic Clues Hint Language Is Africa-Born," *New York Times*, April 14, 2011.

(35) Wilford, "Who Began Writing?"

(36) William J. Duiker and Jackson J. Spielvogel, *World History*, 6th ed., vol. 1 (Boston: Wadsworth/Cengage Learning, 2010), p. 43.

(37) Carr, *The Shallows*, pp. 50–57.

(38) Marshall McLuhan, *The Gutenberg Galaxy* (Toronto: University of Toronto Press, 1962).

(39) Burnett Hillman Streeter, *The Chained Library: A Survey of Four Centuries in the Evolution of the English Library* (New York: Cambridge University Press, 2011).

(40) "The Diffusion of Columbus's Letter through Europe, 1493–1497," University of Southern Maine, Osher Map Library, http://usm.maine.edu/maps/web-document/1/5/sub-/5-the-diffusion-of-columbuss-letter-through-europe-1493-1497.

(41) Laurence Bergreen, *Over the Edge of the World: Magellan's Terrifying Circumnavigation of the Globe* (New York: William Morrow, 2004).

(42) Hans J. Hillerbrand, *The Protestant Reformation*, rev. ed. (New York: HarperCollins, 2009), pp. ix–xiii, 66–67.

(43) "How Luther Went Viral," *Economist*, December 17, 2011.

(44) المصدر السابق.

(45) Tom Head, *It's Your World, So Change It: Using the Power of the Internet to Create Social Change* (Indianapolis, IN: Que, 2010), p. 115.

(46) Charles Coffin, *The Story of Liberty* (New York: Harper & Brothers, 1879), p. 77.

(47) William T. Vollmann, *Uncentering the Earth: Copernicus and the Revolutions of the Heavenly Spheres* (New York: Norton, 2006).

(48) "Jan 9, 1776: Thomas Paine Publishes Common Sense," History.com, http://www.history.com/this-day-in-history/thomas-paine-publishes-common-sense.

(49) David McCullough, *1776* (New York: Simon & Schuster, 2005), p. 112.

(50) Adam Smith, *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations* (London, 1776).

(51) Edward Gibbon, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire* (London, 1776).

(52) T. H. Breen, "Making History," *New York Times Book Review*, May 7, 2000.

(53) Michio Kaku, *Physics of the Future: How Science Will Shape Human Destiny and Our Daily Lives by the Year 2100* (New York: Doubleday, 2011), Chapter 1.

(54) McKinsey Global Institute, *Big Data: The Next Frontier for Innovation, Competition, and Productivity*, May 2011.

(55) "The 2011 Digital Universe Study: Extracting Value from Chaos," IDC, June 2011, http://idcdocserv.com/1142.

(56) Tom Vanderbilt, "The Call of the Future," *Wilson Quarterly*, Spring 2012.

(57) International Telecommunications Union, "The World in 2010: ICT Facts and Figures," http://www.itu.int/ITU-D/ict/material/FactsFigures 2010.pdf.

(58) Mary Meeker and Liang Wu, "2012 Internet Trends (Update)," December 3, 2012, http://kpcb.com/insights/2012- internet-trends-update.

(59) Cisco Systems, Inc., Cisco Visual Networking Index: Global Mobile Data Traffic Forecast Update, 2010–2015, February 1, 2011, http://newsroom.cisco.com/ekits/Cisco_VNI_Global_Mobile_D ata_Traffic_Forecast_2010_2015. pdf.

(60) المصدر السابق.

(61) المصدر السابق.

(62) Aaron Smith, Pew Internet & American Life Project, "Nearly Half ofAmerican Adults Are Smartphone Owners," March 1, 2012, http://pewinternet.org/Reports/2012/Smartphone-Update-2012.aspx.

(63) International Telecommunications Union, "ICT Facts and Figures: The World in 2011."

(64) Meeker and Wu, "2012 Internet Trends (Update)."

(65) Christina Bonnington, Wired Gadget Lab, "Global Smartphone Adoption Approaches 30 Percent," November 28, 2011, http://www.wired.com/gadgetlab/2011/11/smartphones-feature-phones/; Juro Osawa and Paul Mozur, "The Battle for China's Low-End Smartphone Market," *Wall Street Journal*, June 22, 2012.

(66) David Kravets, "U.N. Report Declares Internet Access a Human Right," *Wired*, June 3, 2011.

(67) "Nicholas Negroponte and One Laptop Per Child," Public Radio International, April 29, 2009, http://www.pri.org/stories/business/social-entrepreneurs/one-laptop-per-child.html.

(68) Austan Goolsbee and Jonathan Guryan, "World Wide Wonder?," *Education Next* 6, no. 1 (Winter 2006).

(69) Kevin J. O'Brien, "Top 1% of Mobile Users Consume Half of World's Bandwidth, and Gap Is Growing," *New York Times*, January 5, 2012.

(70) Matt Richtel, "U.S. Safety Board Urges Cellphone Ban for Drivers," *New York Times*, December 13, 2011.

(71) Micheline Maynard and Matthew L. Wald, "Off-Course Pilots Cite Computer Distraction," *New York Times*, October 27, 2009.

(72) Jason Gilbert, "FaceTime Facelift: The Plastic Surgery Procedure for iPhone Users Who Don't Like How They Look on FaceTime," *Huffington Post*, February 27, 2012.

(73) Dave Evans, "How the Internet of Everything Will Change the World ... for the Better," Cisco Blog, November 7, 2012, http://blogs.cisco.com/news/how-the-internet-of-everything-will-change-the-worldfor-the-better-infographic/.

(74) McKinsey Institute, "Big Data: The Next Frontier for Innovation, Competition, and Productivity," May 2011, http://www. mckinsey.com/Insights/MGI/Research/Technology_and_Innovation/Big_data_The_next_frontier_for_innovation.

(75) Al Gore, "The Digital Earth: Understanding Our Planet in the 21st Century," speech at the California Science Center, January 31, 1998, http://portal.opengeospatial.org/files/?artifact_id=6210&version=1&format=doc.

(76) Michael Chui, Markus Löffler, and Roger Roberts, "The Internet of Things," McKinsey Quarterly, 2010.

(77) McKinsey Institute, "Big data."

(78) "In-Car Camera Records Accidents," BBC News, October 14, 2005, http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/england/ southern_counties/4341342.stm.

(79) Kevin Bonsor, "How Black Boxes Work," HowStuffWorks, http://science.howstuffworks.com/transport/flight/m odern/ black-box3.htm.

(80) Tony Hoffman, "IBM Preps Hyper-Fast Computing System for World's Largest Radiotelescope," *PC Magazine*, April 2, 2012.

(81) Chui, Löffler, and Roberts, "The Internet of Things"; McKinsey Institute, "Big Data."

(82) Tim Lohman, "Twitter to Detect Earthquakes, Tsunamis," Computer *World*, June 1, 2011.

(83) Steve Lohr, "The Internet Gets Physical," New York Times, December 17, 2011.

(84) John Markoff, "Government Aims to Build a 'Data Eye in the Sky,' " *New York Times*, October 10, 2011.

(85) المصدر السابق.

(86) Roger E. Bohn and James E. Short, "How Much Information? 2009 Report on American Consumers," December 2009, http://hmi.ucsd.edu/pdf/HMI_2009_ConsumerReport_Dec9_2009.pdf.

(87) Alissa de Carbonnel, "Social Media Makes Anti-Putin Protests 'Snowball,' " Reuters, December 7, 2011.

(88) Thomas Friedman, "This Is Just the Start," *New York Times*, March 1, 2011.

(89) Tom Coghlan, "Google and a Notebook: The Weapons Helping to Beat Gaddafi in Libya," *Times* (London), June 16, 2011.

(90) Mridul Chowdhury, Berkman Center for Internet & Society, "The Role of the Internet in Burma's Saffron Revolution," September 2008, http://cyber.law.harvard.edu/sites/cyber.law.harvard.edu/files/Chowdhury_Role_of_the_Internet_ in_Burmas_Saffron_R evolution.pdf_0.pdf.

(91) المصدر السابق.

(92) Tim Johnson, "Aung San Suu Kyi Freed," Financial Times, November 13, 2010.

(93) Dean Nelson, "Aung San Suu Kyi 'Wins Landslide Landmark Election' as Burma Rejoices," Telegraph, April 1, 2012.

(94) Bruce Etling, Robert Faris, and John Palfrey, "Political Change in the Digital Age: The Fragility and Promise of Online Organizing," SAIS Review 30, no. 2 (2010).

(95) المصدر السابق.

(96) المصدر السابق.

(97) المصدر السابق.

(98) المصدر السابق.

(99) Will Heaven, "Iran and Twitter: The Fatal Folly of the Online Revolutionaries," *Telegraph*, December 29, 2009; Christopher Williams, "Iran Cracks Down on Web Dissident Technology," *Telegraph*, March 18, 2011.

(100) Larry Diamond, "Liberation Technology" *Journal of Democracy* 21, no.3 (July 2010).

(101) المصدر السابق.

(102) Josh Chin, "Netizens React: Premier's Interview Censored," China Real Time Report blog, *Wall Street Journal*, October 7, 2010.

(103) Clive Thompson, "Google's China Problem (and China's Google Problem)," *New York Times Magazine*, April 23, 2006.

(104) Tim Carmody, "Google Co-Founder: China, Apple, Facebook Threaten the 'Open Web,' " *Wired*, April 16, 2012.

(105) Ian Katz, "Web Freedom Faces Greatest Threat Ever, Warns Google's Sergey Brin," *Guardian*, April 15, 2012.

(106) Matt Silverman, "China: The World's Largest Online Population," Mashable, April 10, 2012; Jon Russell, "Internet Usage in China Surges 11%," *USA Today*, July 19, 2012.

(107) Lye Liang Fook and Yang Yi, EAI Background Brief No. 467, "The Chinese Leadership and the Internet," July 27, 2009, http://www.eai.nus.edu.sg/BB467.pdf.

(108) "Medvedev Believes Internet Best Guarantee Against Totalitarianism," Itar-Tass News Agency, July 30, 2012, http://www.itar-tass.com/en/c154484098/.html.

(109) Zahera Harb, "Arab Revolutions and the Social Media Effect," *M/C Journal* [Media/Culture Journal] 14, no. 2 (2011).

(110) المصدر السابق.

(111) المصدر السابق.

(112) Reporters without Borders, "Enemies of the Internet," March 12, 2010, http://en.rsf.org/IMG/pdf/Internet_enemies.pdf.

(113) John D. Sutter, "How Smartphones Make Us Superhuman," CNN, September 10, 2012.

(114) Robert F. Worth, "Twitter Gives Saudi Arabia a Revolution of Its Own," *New York Times*, October 20, 2012.

(115) Jon Alterman, "The Revolution Will Not Be Televised," Middle East Notes and Comment, Center for Strategic and International Studies, March 2011; Heidi Lane, "The Arab Spring's Three Foundations," *per Concordiam*, March 2012.

(116) Angelika Mendes, "Media in Arab Countries Lack Transparency, Diversity and Independence," Konrad-Adenauer-Stiftung, June 25, 2012, http://www.kas.de/wf/en/33.31742/; Lin Noueihed and Alex Warren, *The Battle for the Arab Spring: Revolution, Counter-Revolution and the Making of a New Era* (New Haven, CT: Yale University Press, 2012), p. 50; Lane, "The Arab Spring's Three Foundations."

(117) Harb, "Arab Revolutions and the Social Media Effect"; Alterman, "The Revolution Will Not Be Televised."

(118) Alterman, "The Revolution Will Not Be Televised."

(119) "Special Report: Al Jazeera's News Revolution," Reuters, February 17, 2011.

(120) Harb, "Arab Revolutions and the Social Media Effect."

(121) المصدر السابق.

(122) Malcolm Gladwell, "Small Change: Why the Revolution Will Not Be Tweeted," *New Yorker*, October 4, 2010.

(123) Noah Shachtman, "How Many PeopleAre in Tahrir Square? Here's How to Tell," Wired Danger Room blog, February 1, 2011, http://www.w ired.com/dangerroom/201102//how-many-people-are-in-tahrir-square-heres-how-to-tell/.

(124) David D. Kirkpatrick, "Named Egypt's Winner, Islamist Makes History," *New York Times*, June 25, 2012.

(125) المصدر السابق.

(126) Fatmagul Demirel, *Encyclopedia of the Ottoman Empire*, edited by Gabor Agoston and Bruce Masters (New York: Facts on File, 2009), p. 130.

(127) Ishtiaq Hussain, "The Tanzimat: Secular Reforms in the Ottoman Empire," Faith Matters, February 5, 2011, http://faith-matters.org/images/stories/fm-publications/the-tanzimat-final-w eb.pdf.

(128) Evgeny Morozov, "The Dark Side of Internet for Egyptian and Tunisian Protesters," *Globe and Mail*, January 28, 2011; Louis Klaveras, "The Coming Twivolutions? Social Media in the Recent Uprisings in Tunisia and Egypt," Huffington Post, January 31, 2011, http://www.huffingtonpost.com/louis-klarevas/post_1647_b_815749.html.

(129) Sutton Meagher, "Comment: When Personal Computers Are Transformed into Ballot Boxes: How Internet Elections in Estonia Comply with the United Nations International Covenant on Civil and Political Rights," *American University International Law Review* 23 (2008).

(130) Freedom House—Latvia, 2012, http://www.freedomhouse.org/report/nations-transit/2012/latvia.

(131) Tina Rosenberg, "Armed with Data, Fighting More Than Crime," New York Times, Opinionator blog, May 2, 2012, http://opinionator.blogs.nytimes.com/201202/05//armed-with-data-fighting-m ore-than-crime/.

(132) Clay Shirky, "How the Internet Will (One Day) Transform Government," TEDGlobal 2012, June 2012.

(133) Jenna Wortham, "More Are Watching Internet Video on Actual TVs, Research Shows," *New York Times*, September 26, 2012.

(134) William Gibson, "Back from the Future," *New York Times Magazine*, August 19, 2007.

(135) Joe Light, "Leisure Trumps Learning in Time-Use Survey," *Wall Street Journal*, June 22, 2011.

(136) Nielsen, "State of the Media: Consumer Usage Report," 2011, p. 3. The American Video Viewer, 32 hours, 47 minutes of TV viewing weekly = 4.7 hours per day, http://www.nielsen.com/content/dam/corporate/us/en/reports-downloads/2011-Reports/StateofMediaConsumerU sageReport.pdf.

(137) eMarketer, "Are Political Ad Dollars Going Online?," May 14, 2008, http://www.emarketer.com/Article.aspx?id= 1006271&R =1006271.

(138) Christopher Munden, "A Brief History of Early Publishing in Philadelphia," Philly Fiction, http://phillyfiction.com/more/brief_history_of_early_days_of_philadelphia_publishing.html.

(139) *Citizens United v.* FEC, 130 S. Ct. 876 (2010); Adam Liptak, "Justices, 54-, Reject Corporate Spending Limit," *New York Times*, January 22, 2010.

(140) Charles Clover, "Internet Subverts Russian TV's Message," *Financial Times*, December 1, 2011.

(141) David M. Herszenhorn, "Putin Wins, but Opposition Keeps Pressing," *New York Times*, March 4, 2012.

(142) Alana Semuels, "Television Viewing at All-Time High," *Los Angeles Times*, February 24, 2009.

(143) Donald A. Ritchie, *Reporting from Washington: The History of the Washington Press Corps* (New York: Oxford University Press, 2005), p. 131.

(144) Mark Fitzgerald, "How Did Newspapers Get in This Pickle?," *Editor & Publisher*, March 18, 2009.

(145) David Carr, "Tired Cries of Bias Don't Help Romney," *New York Times*, October 1, 2012.

(146) "Why Do 60% of Students Find Their Lectures Boring?," *Guardian*, May 11, 2009.

(147) "Education Takes a Beating Nationwide," *Los Angeles Times*, July 31, 2011.

(148) Tamar Lewin, "Questions Follow Leader of For-Profit Colleges," *New York Times*, May 27, 2011; Tamar Lewin, "For-Profit College Group Sued as U.S. Lays Out Wide Fraud," *New York Times*, August 9, 2011.

(149) "Degrees for Sale at Spam U.," CBS News, February 11, 2009, http://www.cbsnews.com/2100-205_162-659418.html; "Diploma Mill Operators Hit with Court Judgments," Consumer Affairs, March 18, 2005, http://www.consumeraffairs. com/news042005//diploma_m ill.html.

(150) "Counting Every Moment," *Economist*, March 3, 2012.

(151) Andrea Freyer Dugas et al., "Google Flu Trends: Correlation with Emergency Department Influenza Rates and Crowding Metrics," *Clinical Infectious Diseases* 54, no. 4 (January 8, 2012).

(152) "Very Personal Finance," *Economist*, June 2, 2012.

(153) المصدر السابق.

(154) Christopher Marlowe, *The Tragical History of Doctor Faustus*, 1604, edited by Rev. Alexander Dyce, http://www. gutenberg.org/files/779779-/h/779-h.htm.

(155) Philip B. Meggs and Alston W. Purvis, *Meggs' History of Graphic Design*, 5th ed. (Hoboken, NJ: Wiley, 2012), p. 76–77.

(156) Herman Kahn, "Technology and the Faustian Bargain," January 1, 1976, http://www.hudson.org/index.cfm?fuseaction=publication_details&id=2218; Lance Morrow, "The Faustian Bargain of Stem Cell Research," Time, July 12, 2001.

(157) John Seabrook, "Petraeus and the Cloud," *New Yorker*, November 14, 2012.

(158) Nicole Perlroth, "Amazon Cloud Service Goes Down and Takes Popular Sites with It," *New York Times*, October 22, 2012.

(159) Richard Siklos, "Information Wants to Be Free ... and Expensive," CNN, July 20, 2009, http://tech.fortune.cnn.com/200920/07//information-wants-to-be-free-and-expensive/

(160) Andy Greenberg, "Wikileaks Servers Move to Underground Nuclear Bunker," *Forbes*, August 30, 2010.

(161) "WikiLeaks Backlash: The First Global Cyber War Has Begun, Claim Hackers," *Guardian*, December 11, 2010.

(162) Hayley Tsukayama, "Anonymous Claims Credit for Crashing FBI, DOJ Sites," *Washington Post*, January 20, 1012; Ellen Nakashima, "CIA Web Site Hacked; Group LulzSec Takes Credit," *Washington Post*, June 15, 2011; Thom Shanker and Elisabeth Bumiller, "Hackers Gained Access to Sensitive Military Files," *New York Times*, July 14, 2011; David E. Sanger and John Markoff, "I.M.F. Reports Cyberattack Led to 'Very Major Breach,' " *New York Times*, June 11, 2011; David Batty, "Vatican Becomes LatestAnonymous Hacking Victim," *Guardian*, March 7, 2012; Melanie Hick, "Anonymous Hacks Interpol Site After 25 Arrests," Huffington Post, January 3, 2012, http://www.huffingtonpost.co.uk/2012/03/01/anonymous-hacks-interpol-_n_1312544.html;Martin Beckford, "Downing Street Website Also Taken Down byAnonymous," *Telegraph*, April 8, 2012; Tom Brewster, "Anonymous Strikes Downing Street and Ministry of Justice," *TechWeek Europe*, April 10, 2012, http://www.techweekeurope.co.uk/news/anonymous-government-downing-street-moj-71979; "NASA Says Was Hacked 13 Times Last Year," Reuters, March 2, 2012.

(163) Duncan Gardham, " 'Anonymous' Hackers Intercept Conversation Between FBI and Scotland Yard on How to Deal with Hackers," *Telegraph*, February 3, 2012.

(164) Michael Joseph Gross, "Enter the Cyber-Dragon," Vanity Fair, September 2011.

(165) Susan P. Crawford, "When We Wage Cyberwar, the Whole Web Suffers," Bloomberg, April 25, 2012.

(166) David Alexander, "Global Cyber Arms Race Engulfing Web—Defense Official," Reuters, April 11, 2012.

(167) المصدر السابق؛

Ron Rosenbaum, "Richard Clarke on Who Was Behind the Stuxnet Attack," Smithsonian, April 2, 2012.

(168) Simon Singh, *The Code Book: The Science of Secrecy from Ancient Egypt to Quantum Cryptography* (New York: Doubleday, 1999).

(169) المصدر السابق.

(170) Andrew Lycett, "Breaking Germany's Enigma Code," BBC, February 17, 2011, http://www.bbc.co.uk/history/worldwars/wwtwo/enigma_01.shtml.

(171) Michael Joseph Gross, "World War 3.0," *Vanity Fair*, May 2012.

(172) James Kaplan, Shantnu Sharma, and Allen Weinberg, "Meeting the Cybersecurity Challenge," *McKinsey Quarterly*, June 2011.

(173) Gross, "Enter the Cyber-Dragon."

(174) Rosenbaum, "Richard Clarke on Who Was Behind the Stuxnet Attack."

(175) Richard Adler, Report of the 26th Annual Aspen Institute Conference on Communications Policy, *Updating Rules of the Digital Road: Privacy, Security, Intellectual Property*, 2012, p. 14.

(176) Richard A. Clarke, "How China Steals Our Secrets," *New York Times*, April 3, 2012.

(177) Nicole Perlroth, "How Much Have Foreign Hackers Stolen?," New York Times, Bits blog, February 14, 2012, http://bits.blogs.nytimes.com/201214/02//how-much-have-foreign-hackers-stolen/?scp=7&sq=cyber%20security&st=cse.

(178) المصدر السابق.

(179) J. Nicholas Hoover, "Cyber Attacks Becoming Top Terror Threat, FBI Says," *Information Week*, February 1, 2012.

(180) Michael Joseph Gross, "Exclusive: Operation Shady Rat—Unprecedented Cyber-Espionage Campaign and Intellectual-Property Bonanza," *Vanity Fair*, August 2, 2011.

(181) Nicole Perlroth, "Traveling Light in a Time of Digital Thievery," *New York Times*, February 10, 2012.

(182) المصدر السابق.

(183) Organisation for Economic Co-operation and Development, "Machine-to-Machine Communications: Connecting Billions of Devices," OECD Digital Economy Papers, No. 192, 2012, http://dx.doi.org/10.17875/k9gsh2gp043-en.

(184) John Tagliabue, "Swiss Cows Send Texts to Announce They're in Heat," *New York Times*, October 2, 2012.

(185) John O. Brennan, "Time to Protect Against Dangers of Cyberattack," *Washington Post*, April 15, 2012.

(186) Thomas Erdbrink, "Iranian Officials Disconnect Some Oil Terminals from Internet," *New York Times*, April 24, 2012.

(187) Thom Shanker and David E. Sanger, "U.S. Suspects Iran Was Behind a Wave of Cyberattacks," *New York Times*, October 14, 2012.

(188) Nicole Perlroth, "In Cyberattack on Saudi Firm, U.S. Sees Iran Firing Back," *New York Times*, October 23, 2012.

(189) William J. Broad, John Markoff, and David E. Sanger, "Israeli Test on Worm Called Crucial in Iran Nuclear Delay," *New York Times*, January 15, 2011.

(190) "'Flame' Computer Virus Strikes Middle East; Israel Speculation Continues," Associated Press, May 29, 2012.

(191) William J. Broad, John Markoff, and David E. Sanger, "Israeli Test on Worm Called Crucial in Iran Nuclear Delay," *New York Times*, January 15, 2011.

(192) Rachel King, "Virus Aimed at Iran Infected Chevron Network," *Wall Street Journal*, November 9, 2012.

(193) Elisabeth Bumiller and Thom Shanker, "Panetta Warns of Dire Threat of Cyberattack on U.S.," New York Times, October 11, 2012.

(194) Perlroth, "Traveling Light in a Time of Digital Thievery."

(195) Steve Fishman, "Floored by News Corp.: Who Hacked a Rival's Computer System?," *New York*, September 28, 2011.

(196) Sarah Lyall and Ravi Somaiya, "British Broadcaster with Murdoch Link Admits to Hacking," *New York Times*, April 5, 2012.

(197) Don Van Natta Jr., Jo Becker, and Graham Bowley, "Tabloid Hack Attack on Royals, and Beyond," *New York Times*, September 1, 2010.

(198) Nicole Perlroth, "Cameras May Open Up the Board Room to Hackers," *New York Times*, January 22, 2012.

(199) James Kaplan, Shantnu Sharma, and Allen Weinberg, "Meeting the Cybersecurity Challenge," *McKinsey Quarterly*, June 2011.

(200) Michaela L. Sozio, "Cyber Liability—a Real Threat to Your Business," *California Business Law Confidential*, March 2012; Preet Bharara, "Asleep at the Laptop," *New York Times*, June 4, 2012.

(201) Alexis Madrigal, "I'm Being Followed: How Google—and 104 Other Companies—Are Tracking Me on the Web," *Atlantic*, February 29, 2012.

(202) المصدر السابق.

(203) Riva Richmond, "As 'Like' Buttons Spread, So Do Facebook's Tentacles," *New York Times*, Bits blog, September 27, 2011, http://bits.blogs.nytimes.com/201127/09//as-like-buttons-spread-so-do-facebooks-tentacles/.

(204) Madrigal, "I'm Being Followed."

(205) Jeffrey Rosen, "The Web Means the End of Forgetting," *New York Times Magazine*, July 21, 2010.

(206) Michelle Singletary, "Would You Give Potential Employers Your Facebook Password?," *Washington Post*, March 29, 2012.

(207) Joanna Stern, "Demanding Facebook Passwords May Break Law, Say Senators," ABC News, March 26, 2012, http:// abcnews.go.com/Technology/facebook-passwords-employers-schools-demand-access-facebook-senators/ story?id=16005565#.UCPKWY40jdk.

(208) Tam Harbert, "Employee Monitoring: When IT Is Asked to Spy," *Computer World*, June 16, 2010.

(209) James Hendler and Jennifer Golbeck, "Metcalfe's Law, Web 2.0, and the Semantic Web," *Web Semantics* 6, no. 1 (February, 2008): 14–20.

(210) المصدر السابق.

(211) Alexis Madrigal, "Reading the Privacy Policies You Encounter in a Year Would Take 76 Work Days," Atlantic, March 1, 2012; Elaine Rigoli,

"Most People Worried About Online Privacy, Personal Data, Employer Bias, Privacy Policies," *Consumer Reports*, April 25, 2012.

(212) Julia Angwin and Emily Steel, "Web's Hot New Commodity: Privacy," *Wall Street Journal*, February 28, 2011.

(213) Tanzina Vega, "Opt-Out Provision Would Halt Some, but NotAll, Web Tracking," *New York Times*, February 26, 2012; Madrigal, "I'm Being Followed."

(214) Madrigal, "I'm Being Followed"; Vega, "Opt-Out Provision Would Halt Some, but Not All, Web Tracking."

(215) "What They Know" Series, Wall Street Journal, http://online.wsj.com/public/page/w hat-they-know-digital-privacy.html.

(216) Julia Angwin, "The Web's New Gold Mine: Your Secrets," *Wall Street Journal*, July 30, 2010.

(217) Madrigal, "I'm Being Followed."

(218) Olivia Solon, "Tim Berners-Lee: Deep Packet Inspection a 'Really Serious' Privacy Breach," *Wired*, April 18, 2012.

(219) Ian Parker, "The Story of a Suicide: Two College Roommates, a Webcam, and a Tragedy," *New Yorker*, February 6, 2012.

(220) "Facebook 'Face Recognition' Feature Draws Privacy Scrutiny," Bloomberg News, June 8, 2011.

(221) Natasha Singer, "The Human Voice, as Game Changer," *New York Times*, March 31, 2012.

(222) المصدر السابق.

(223) "Privacy Please! U.S. Smartphone App Users Concerned with Privacy When It Comes to Location," Nielsen,April 21, 2011, http://blog.nielsen.com/nielsenwire/online_mobile/privacy-please-u-s-smartphone-app-users-concerned-with-privacy-when-it-comes-to-location/.

(224) Justin Scheck, "Stalkers Exploit Cellphone GPS," *Wall Street Journal*, August 3, 2010.

(225) Kevin J. O'Brien, "Austrian Law Student Faces Down Facebook," *New York Times*, February 5, 2012.

(226) Matt Richtel and Verne G. Kopytoff, "E-Mail Fraud Hides Behind Friendly Face," *New York Times*, June 2, 2011.

(227) Ann Carrns, "Careless Social Media Use May Raise Risk of Identity Fraud," *New York Times*, February 29, 2012.

(228) "IMF Is Victim of 'Sophisticated Cyberattack,' Says Report," IDG Reporter, June 13, 2011; "US Senate Orders Security Review After LulzSec Hacking," *Guardian*, June 14, 2011; Julianne Pepitone and Leigh Remizowski, " 'Massive' Credit Card Data Breach Involves All Major Brands," CNN, April 2, 2012, http://m oney.cnn.com/2012/03/30/ technology/credit-card-data-breach/index.htm; "Heartland Payment Systems Hacked," Associated Press, January 20, 2009; Bianca Dima, "Top 5: Corporate Losses Due to Hacking," HOT for Security, May 17, 2012.

(229) "The Real Cost of Cyber Attacks," *Atlantic*, February 16, 2012.

(230) Symantec, press release, "Norton Study Calculates Cost of Global Cybercrime: $114 BillionAnnually," September 7, 2011, http://www. symantec.com/about/news/release/article.jsp?prid=20110907_02. However, some analysts note that some estimates of cybercrime are unreliable. Dinei Florêncio and Cormac Herley, "The Cybercrime Wave That Wasn't," *New York Times*, April 14, 2012.

(231) Ian Paul, "LinkedIn Confirms Account Passwords Hacked," PC World, June 6, 2012.

(232) Salvador Rodriguez, "Like LinkedIn, eHarmony Is Hacked; 1.5 Million Passwords Stolen," *Los Angeles Times*, June 6, 2012.

(233) Nicole Perlroth, "Yahoo Breach Extends Beyond Yahoo to Gmail, Hotmail, AOL Users," *New York Times*, July 12, 2012.

(234) David Goldman, "Major Banks Hit with Biggest Cyberattacks in History," CNN, September 28, 2012; "Week-Long Cyber Attacks Cripple US Banks," Associated Press, September 29, 2012.

(235) Brian Wheeler, "Communications Data Bill Creates 'a Virtual Giant Database,' " BBC, July 19, 2012, http://www.bbc. co.uk/news/uk-politics-18884460.

(236) Heather Brooke, "Investigation: A Sharp Focus on CCTV," *Wired UK*, April 1, 2010.

(237) Justice Felix Frankfurter, Concurring Opinion, *Youngstown Sheet & Tube Co. v. Sawyer*, 343 U.S. 579 (1952).

(238) Georg Henrik Wright, *The Tree of Knowledge and Other Essays* (Leiden: Brill, 1993), p. 127–28.

(239) James Bradford, "The NSA Is Building the Country's Biggest Spy Center (Watch What You Say)," *Wired*, March 15, 2012.

(240) Jason Reed, "NSA Whistleblowers: Government Spying on Every Single American," Reuters, July 25, 2012.

(241) Bradford, "The NSA Is Building the Country's Biggest Spy Center (Watch What You Say)."

(242) President of the United States, "Notice—Continuation of the National Emergency with Respect to Certain Terrorist Attacks," September 11, 2012.

(243) Matt Sledge, "Warrantless Electronic Surveillance Surges Under Obama Justice Department," *Huffington Post*, September 28, 2012.

(244) Brief for the Petitioner in the United States Supreme Court, Albert W. Florence v. Board of Chosen Freeholders of the County of Burlington et al., No. 10945-, http://www.americanbar.org/content/dam/aba/publishing/previewbriefs/Other_

(245) Glenn Greenwald, "U.S. Filmmaker Repeatedly Detained at Border," Salon,April 8, 2012, http://www.salon.com/2012/ 0408//u_s_filmmaker_repeatedly_detained_at_border/.

(246) المصدر السابق.

(247) المصدر السابق.

(248) Eric Lichtblau, "Police Are Using phone Tracking as aRoutine Tool, "*New York Times*", April 1, 2012.

(249) Julia Angwin and Jennifer Valentino-Devries, "New Tracking Frontier: Your License Plates," *Wall Street Journal*, October 2, 2012.

(250) Nicole Perlroth, "Software Meant to Fight Crime Is Used to Spy on Dissidents," *New York Times*, August 31, 2012.

(251) Rebecca MacKinnon, "Internet Freedom Starts at Home," *Foreign Policy*, April 3, 2012; Cindy Cohn, Trevor Timm, and Jillian C. York, Electronic Frontier Foundation, "Human Rights and Technology Sales: How Corporations Can Avoid Assisting Repressive Regimes," April 2012, https://www.eff.org/document/human-rights-and-technology-sales; Jon Evans, "Selling Software That Kills," TechCrunch, May 26, 2012, http://techcrunch.com/201226/05//selling-software- that-kills/.

(252) Francis Fukuyama, "Why We All Need a Drone of Our Own," *Financial* Times, February 24, 2012.

(253) "Is There a Drone in Your Neighbourhood? Rise of Spy Planes Exposed After FAA Is Forced to Reveal 63 Launch Sites Across U.S.," *Daily Mail*, April 24, 2012.

(254) David Kushner, "The Hacker Is Watching," GQ, January 2012.

(255) Declan McCullagh, "Court to FBI: No Spying on In-Car Computers," CNET, November 19, 2003, http://news.cnet.com/21005109435-3_1029-.html. The Ninth Circuit Court of Appeals has ruled that this instance of surveillance is illegal.

(256) Nicole Perlroth, "Malicious Software Attacks Security Cards Used by Pentagon," *New York Times*, Bits blog, January 12, 2012, http://bits.blogs.nytimes.com/2012/12/01/malicious-software-attacks-security-cards-used-by-pentagon/.

(257) Bamford, "The NSA Is Building the Country's Biggest Spy Center (Watch What You Say)."

(258) American Civil Liberties Union, "Congress Dismantles Total Information Awareness Spy Program;ACLU Applauds Victory, Calls for Continued Vigilance Against Snoop Programs," September 25, 2003, http://www.aclu.org/national-security/congress-dismantles-total-information-awareness-spy-program-aclu-applauds-victory-.

(259) Jonathan Weisman, "After an Online Firestorm, Congress Shelves Antipiracy Bills," *New York Times*, January 21, 2012.

(260) Robert Pear, "House Votes to Approve Disputed Hacking Bill," *New York Times*, April 27, 2012.

(261) Michael Sacasas, "Technology in America," American, April 13, 2012.

(262) Gross, "World War 3.0."

(263) Georgina Prodhan, "BRIC Nations Push for Bigger Say in Policing of Internet," *Globe and Mail*, September 6, 2012.

(264) Gross, "World War 3.0."

(265) Ryan Nakashima, "Ex-AOL Exec Calls Facebook New 'Walled Garden,' " Associated Press, May 1, 2012.

(266) Claire Cain Miller and Miguel Helft, "Web Plan from Google and Verizon Is Criticized," *New York Times*, August 10, 2010.

(267) "Protecting the Internet," editorial, *New York Times*, December 18, 2010.

الفصل الثالث

(1) "China Became World's Top Manufacturing Nation, Ending 110 Year US Leadership," MercoPress, March 15, 2011, http://en.mercopress.

com/201115/03//china-became-world-s-top-manufacturing-nation-ending-110-year-us- leadership.

(2) Charles Kenny, "China vs. the U.S.: The Case for Second Place," *Bloomberg Business week*, October 13, 2011.

(3) "Profile: IMF and World Bank," BBC News, April 17, 2012, http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/country_profiles/3670465.stm; Thomas J. Bollyky, "How to Fix the World Bank," op-ed, *New York Times*, April 9, 2012; David Bosco, "A Primer on World Bank Voting Procedures," *Foreign Policy*, March 28, 2012.

(4) BBC News, "Profile: IMF and World Bank," BBC News; World Bank, "World Bank Group Voice Reform: Enhancing Voice and Participation in Developing and Transition Countries in 2010 and Beyond," April 25, 2010, http://siteresources.worldbank.org/NEWS/Resources/IBRD2010VotingPowerRealignmentFINAL.pdf.

(5) CIA, the World Factbook, https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/rankorder/2001rank.html.

(6) C. Fred Bergsten, "Two's Company," Foreign Affairs, September/October 2009.

(7) Josef Joffe, "Declinism's Fifth Wave," American Interest, January/February 2012; Samuel P. Huntington, "The U.S.— Decline or Renewal?," *Foreign Affairs*, Winter 19881989/; Victor Davis Hanson, "Beware the Boom in American 'Declinism,' " CBS News, November 14, 2011, http://www.cbsnews.com/8301-215_162-57324071/beware-the-boom-in-american-declinism/.

(8) Joffe, "Declinism's Fifth Wave"; Huntington, "The U.S.—Decline or Renewal?"; Victor Hanson, "Beware the Boom in American 'Declinism.'"

(9) Stephen M. Walt, "The End of the American Era," National Interest, October 25, 2011; Robert Kagan, "Not FadeAway," *New Republic*, January 11, 2012.

(10) Kagan, "Not Fade Away."

(11) المصدر السابق.

(12) Charles Kenny, "China vs. the U.S.: The Case for Second Place," *Bloomberg Business week*, October 13, 2011.

(13) Irina Titova, "Medvedev Orders Precise Soviet WWII Death Toll," Associated Press, January 27, 2009; Anne Leland, Mari-Jana Oboroceanu, Congressional Research Service, "American War and

Military Operations Casualties: Lists and Statistics," February 2010, http://www.fas.org/sgp/crs/natsec/RL32492.pdf.

(14) "The Day in History: August 23rd, 1939. The Hitler-Stalin Pact," History.com, 2012.

(15) "Beyond Bretton Woods 2," *Economist*, November 4, 2010.

(16) European Commission, "Treaty Establishing the European Coal and Steel Community, ECSC Treaty," October 15, 2010, http://europa.eu/legislation_summaries/institutional_affairs/treaties/treaties_ecsc_en.htm.

(17) Cordell Hull Foundation, "Cordell Hull Biography," http://w ww.cordellhull.org/english/About_U s/Biography.asp.

(18) Jill Lerner, "Free Trade's Champion," *Atlanta Business Chronicle*, February 13, 2006.

(19) Francis Fukuyama, *The End of History and the Last Man* (New York: Harper Perennial, 1993).

(20) U.S. Department of State, Bureau of International Information Programs, "Democracy's Third Wave," http://www.4uth.gov.ua/usa/english/politics/whatsdem/whatdm13.htm.

(21) المصدر السابق.

(22) John F. Kennedy, "Remarks at an Independence Day Celebration with the American Community in Mexico City," June 30, 1962, American Presidency Project, http://www.presidency.ucsb.edu/w s/?pid=8748.

(23) U.S. Department of State, "Democracy's Third Wave."

(24) المصدر السابق.

(25) المصدر السابق.

(26) المصدر السابق.

(27) Economist Intelligence Unit, Democracy Index 2010, 2010, http://www.eiu.com/democracy.

(28) Larry Diamond, "A Fourth Wave or False Start?," *Foreign Affairs*, May 22, 2011.

(29) Kagan, "Not Fade Away," January 11, 2012; Todd Purdum, "One Nation, Under Arms," *Vanity Fair*, January 2012.

(30) Purdum, "One Nation, Under Arms."

(31) Christian Caryl, "Predators and Robots at War," *New York Review of Books*, August 30, 2011; Elisabeth Bumiller, "Air Force Drone Operators Report High Levels of Stress," *New York Times*, December 19, 2011.

(32) Caryl, "Predators and Robots at War."

(33) Scott Peterson, "Downed US Drone: How Iran Caught the 'Beast,' " *Christian Science Monitor*, December 9, 2011; Rick Gladstone, "Iran Shows Video It Says Is of U.S. Drone," *New York Times*, December 9, 2011; "Insurgents Hack U.S. Drones," Wall Street Journal, December 17, 2009; "Iran 'Building Copy of Captured US Drone' RQ-170 Sentinel," BBC, April 22, 2012.

(34) David Wood, "American Drones Ignite New Arms Race from Gaza to Iran to China," Huffington Post, November 27, 2012, http://www.huffingtonpost.com/2012/11/27/american-drones_n_2199193.html.

(35) المصدر السابق.

(36) Walt, "The End of theAmerican Era"; Thair Shaikh, "When Will China Become a Global Superpower?," CNN, June 10, 2011, http://www.cnn.com/2011/W ORLD/asiapcf/06/10/china.m ilitary.superpower/index.html.

(37) Walt, "The End of the American Era"; Kagan, "Not Fade Away," January 11, 2012; Martin Feldstein, "China's Biggest Problems Are Political, Not Economic," *Wall Street Journal*, August 2, 2012; Frank Rich, "Mayberry R.I.P.," *New York*, July 22, 2012.

(38) المصدر السابق.

(39) Feldstein, "China's Biggest Problems Are Political, Not Economic."

(40) "Crisis in China: 64 Million Empty Apartments," *Asia News*, September 15, 2010, http://www.asianews.it/news-en/Crisis-in-China:-64-m illion-empty-apartments-19459.html.

(41) "Weaknesses in Chinese Wind Power," *Forbes*, July 20, 2009.

(42) "The Largest Migration in History," *Economist*, February 24, 2012.

(43) Tom Orlik, "Unrest Grows as Economy Booms," *Wall Street Journal*, September 26, 2011.

(44) المصدر السابق.

(45) Feldstein, "China's Biggest Problems Are Political, Not Economic"; Wendy Dobson, *Gravity Shift: How Asia's New Economic Powerhouses Will Shape the Twenty-First Century* (Toronto: University of Toronto Press, 2009).

(46) Dobson, *Gravity Shift.*

(47) Orlik, "Unrest Grows as Economy Booms."

(48) David Leonhardt, "In China, Cultivating the Urge to Splurge," *New York Times Magazine,* November 28, 2010.

(49) Daniel Bell, "Real Meaning of the Rot at the Top of China," *Financial Times,* April 23, 2012.

(50) Deng Xiaoping, "Speech at the All-Army Conference on Political Work: June 2, 1978," in *Selected Works of Deng Xiaoping,* vol. 2 (Beijing: Foreign Languages Press, 1984), p. 132.

(51) Laura Sullivan, "Shaping State Laws with Little Scrutiny," NPR, October 29, 2010, http://www.npr.org/2010/10/29/130891396/shaping-state-laws-with-little-scrutiny; Mike McIntire, "Conservative NonprofitActs as a Stealth Business Lobbyist," *New York Times,* April 22, 2012.

(52) Sullivan, "Shaping State Laws with Little Scrutiny"; McIntire, "Conservative Nonprofit Acts as a Stealth Business Lobbyist"; John Cassidy, "America's Class War," New Yorker blog, June 8, 2012, http://www.newyorker.com/online/ blogs/comment/2012/06/wisconsin-scott-walker-class-w ar.html.

(53) "Sweden: The Oldest Corporation in the World," Time, March 15, 1963.

(54) "The taste of adventure," Economist, December 17, 1998.

(55) Joel Bakan, The Corporation (New York: Free Press, 2004), p. 6.

(56) المصدر السابق ص7.

(57) المصدر السابق ص 6.

(58) المصدر السابق ص 9.

(59) Justin Fox, "What the Founding Fathers Really Thought About Corporations," *Harvard Business Review,* April 1, 2010, http://blogs.hbr.org/fox/2010/04/w hat-the-founding-fathers-real.html.

(60) Thomas Jefferson, "To George Logan," November 12, 1816.

(61) Bakan, *the Corporation,* p. 9.

(62) Linda Smiddy and Lawrence Cunningham, "Corporations and Other Business Organizations: Cases, Materials, Problems," LexisNexis, 2010, p. 16.

(63) David C. Korten, *When Corporations Rule the World* (Bloomfield, CT: Kumarian Press, 1995), http://www.thirdworld traveler.com/Korten/RiseCorpPower_WCRW.html.

(64) المصدر السابق.

(65) المصدر السابق.

(66) المصدر السابق.

(67) المصدر السابق.

(68) "Compromise of 1877," History.com, http://www.history.com/topics/compromise-of-1877.

(69) Korten, *When Corporations Rule the World.*

(70) المصدر السابق.

(71) المصدر السابق.

(72) المصدر السابق.

(73) المصدر السابق.

(74) Jack Maskell, "Lobbying Congress:An Overview of Legal Provisions and Congressional Ethics Rules," CRS Report for Congress, September 14, 2011, http://digital.library.unt.edu/ark:/67531/metacrs1903/m1/1/high_res_d/RL31126_ 2001Sep14.pdf.

(75) المصدر السابق.

(76) Lawrence Lessig, *Republic, Lost: How Money Corrupts Congress—and a Plan to Stop It* (New York: Twelve, 2011), p. 101.

(77) المصدر السابق ص 101.

(78) Matthew Josephson, *the Robber Barons: The Great American Capitalist* 1861-1901 (New Brunswick, NJ: Transaction, 2010), p. 168.

(79) Bakan, *the Corporation*, p. 16.

(80) Joshua Holland, "The Supreme Court Sold Out Our Democracy—How to Fight the Corporate Takeover of Elections," *AlterNet*, October 25, 2010.

(81) المصدر السابق.

(82) Pamela Karlan, "Me, Inc.," *Boston Review*, July 2011.

(83) Santa Clara County v. Southern Pacific, Justia.com, 1886, http://supreme.justia.com/cases/federal/us/118/394/.

(84) "Cyrus W. Field," Encyclopaedia Britannica, http://www.britannica.com/EBchecked/topic/206188/Cyrus-W-Field.

(85) Lincoln Institute, "David Dudley Field (1805-1894)," Mr. Lincoln and New York, http://www.mrlincolnandnewyork.org/inside.asp?ID=56&subjectID=3.

(86) Mike Sacks, "Corporate Citizenship: How Public Dissent in Paris Sparked Creation of the Corporate Person," *Huffington Post*, October 12, 2011, http://w ww.huffingtonpost.com/2011/10/12/corporate-citizenship-corporate-personhood-paris-commune_n_1005244.html.

(87) المصدر السابق.

(88) Alice Bullard, *Human Rights and Revolutions*, edited by Jeffrey N. Wasserstrom, Lynn Hunt, and Marilyn B. Young (Oxford: Rowan & Littlefield, 2000), pp. 81–83.

(89) Marx, however, wrote in *The Communist Manifesto* that the 1848 French revolution was the first "class struggle."

(90) Karl Marx, "The Fall of Paris," May 1871, http://www.marxists.org/archive/marx/works/1871/civil-war-france/ch06.htm.

(91) Alistair Horne, The Fall of Paris: *The Siege and the Commune 1870–71* (New York: Penguin Books, 2007), p. 433.

(92) Sacks, "Corporate Citizenship."

(93) John Harland Hicks and Robert Tucker, *Revolution & Reaction: The Paris Commune, 1871* (Amherst: University of Massachusetts Press, 1973), p. 60; Jack Beatty, *Age of Betrayal: The Triumph of Money in America, 1865–1900* (New York: Vintage Books, 2008), p. 153.

(94) "The Panic of 1873," *The American Experience*, Ulysses S. Grant, PBS, http://w ww.pbs.org/wgbh/americanexperience/features/general-article/grant-panic/.

(95) "The Communists," *New York Times*, January 20, 1874.

(96) Sacks, "Corporate Citizenship."

(97) "Domestic Politics," *The American Experience*, TR, PBS, http://w ww.pbs.org/wgbh/americanexperience/features/general-article/tr-domestic/.

(98) المصدر السابق.

(99) المصدر السابق.

(100) Korten, *When Corporations Rule the World*, p. 67.

(101) المصدر السابق.

(102) "Domestic Politics," PBS.

(103) المصدر السابق.

(104) يعتقد المؤرخون الآن أن روزفلت، رغم كونه، من دون شك، عنصرا أساسيا في الوساطة لعقد صفقة مجدية، لم يكن وسيطا محايدا بل كان يميل بشدة نحو اليابان سرا.

See James Bradley, "Diplomacy That Will Live in Infamy," *New York Times*, December 6, 2009.

(105) Edmund Morris, *Theodore Rex* (New York: Random House, 2002), p. 364.

(106)"American President: William Howard Taft," Miller Center, University of Virginia, http://millercenter.org/president/taft/essays/biography/1.

(107) Theodore Roosevelt, "The New Nationalism," August 31, 1910, http://www.pbs.org/wgbh/americanexperience/features/primary-resources/tr-nationalism/.

(108) Lessig, *Republic, Lost*, p. 4.

(109) المصدر السابق؛

p. 5. Theodore Roosevelt, "From theArchives: President Teddy Roosevelt's New Nationalism Speech," August 31, 2010, http://www.w hitehouse.gov/blog/2011/12/06/archives-president-teddy-roosevelts-new-nationalism-speech.

(110) Roosevelt, "From the Archives: President Teddy Roosevelt's New Nationalism Speech."

(111) المصدر السابق.

(112) United States Senate, "1921–1940: Senate Investigates the 'Teapot Dome' Scandal," http://www.senate.gov/artandhistory/history/minute/Senate_Investigates_the_Teapot_Dome_Scandal.htm.

(113) Jeffrey Rosen, "POTUS v. SCOTUS," *New York*, March 17, 2010.

(114)"Presidential Politics," American Experience,FDR,PBS, http://w ww.pbs.org/wgbh/americanexperience/features/general-article/fdr-presidential/.

(115) المصدر السابق.

(116) Jeffrey Rosen, "Second Opinions," *New Republic*, May 4, 2012.

(117) Jim Hoggan, "40th Anniversary of the Lewis Powell Memo Launching Corporate Propaganda Infrastructure," DeSmogBlog, August 23, 2011, http://www.desmogblog.com/40th-anniversary-lewis-powell-memo-launching- corporate-propaganda-infrastructure; John Jeffries, *Justice Lewis F. Powell, Jr.: A Biography* (New York: Fordham University Press, 2001), p. 4.

(118) Lewis F. Powell, "The Powell Memo," August 23, 1971, http://reclaimdemocracy.org/powell_m emo_lewis/.

(119) Jeffrey Clements, "The Real History of 'Corporate Personhood': Meet the Man to Blame for Corporations Having More Rights Than You," *AlterNet*, December 6, 2011.

(120) المصدر السابق.

(121) Vincent Trivett, "25 US Mega Corporations: Where They Rank If They Were Countries," *Business Insider*, June 27, 2011, http://www.businessinsider.com/25-corporations-bigger-tan-countries-2011-6?op=1.

(122) Steve Coll, Private Empire: ExxonMobil and American Power (New York: Penguin Press, 2012), p. 71.

(123) Bakan, *The Corporation*, p. 25.

(124) Coll, *Private Empire*, p. 257.

(125) Federal Election Commission, "The Growth of Political Action Committees, 1974–1998," http://www.voteview.com/Growth_of_PACs_by_Type.htm.

(126) Jacob S. Hacker and Paul Pierson, Winner-Take-All Politics: How Washington Made the Rich Richer—And Turned Its Back on the Middle Class (New York: Simon & Schuster, 2011), p. 118.

(127) Robert G. Kaiser, "Citizen K Street: Introduction," Washington Post, March 2007, http://blog.w ashingtonpost.com/citizen-k-street/chapters/introduction/; Bennett Roth and Alex Knott, "Lobby Dollars Dip for First Time in Years," *Roll Call*, February 1, 2011.

(128) Roth and Knott, "Lobby Dollars Dip for First Time in Years."

(129) Kaiser, "Citizen K Street: Introduction."

(130) Lessig, *Republic, Lost*, p. 123.

(131) المصدر السابق.

(132) Powell, "The Powell Memo."

(133) Timothy Noah, "Think Cranks," *New Republic*, March 30, 2012.

(134) المصدر السابق.

(135) المصدر السابق.

(136) David Brock, *The Republican Noise Machine: Right-Wing Media and How It Corrupts Democracy* (New York: Random House, 2005), p. 43.

(137) Powell, "The Powell Memo."

(138) Eric Lichtblau, "Advocacy Group Says Justices May Have Conflict in Campaign Finance Case," *New York Times*, January 19, 2011.

(139) Emily Thornton, "Roads to Riches," BusinessWeek, May 6, 2007; Jonathan Hoenig, "Opportunities in Infrastructure: Should We Privatize Bridges and Roads?," Fox News, August 5, 2007, http://www.foxnews.com/story/0,2933,253438, 00.html.

(140) James Gustave Speth, "America the Possible: A Manifesto, Part I," Orion, March/April 2012.

(141) المصدر السابق.

(142) المصدر السابق.

(143) المصدر السابق.

(144) المصدر السابق.

(145) المصدر السابق.

(146) Powell, "The Powell Memo".

(147) المصدر السابق.

(148) James Madison, Federalist No. 10, "The Same Subject Continued: The Union as a Safeguard Against Domestic Faction and Insurrection," November 23, 1787, http://thomas.loc.gov/home/histdox/fed_10.html.

(149) المصدر السابق.

(150) المصدر السابق.

(151) Timothy Noah, "Introducing the Great Divergence," *Slate*, September 3, 2010.

(152) Jonathan Haidt, "Born This Way? Nature, Nurture, Narratives, and the Making of Our Political Personalities," *Reason*, May 2012.

(153) المصدر السابق.

(154) Ibid.; Sasha Issenberg, "Born This Way: The New Weird Science of Hardwired Political Identity," *New York*, April 16, 2012.

(155) Frank Luntz, *Words That Work: It's Not What You Say, It's What People Hear* (New York: Hyperion, 2006), p. 165.

(156) Bruce Bartlett, " 'Starve the Beast': Origins and Development of a Budgetary Metaphor," *Independent Review*, Summer 2007.

(157) Congressional Budget Office, "The 2012 Long-Term Budget Outlook," http://www.cbo.gov/sites/default/files/cbofiles/attachments/06-05-Long-Term_Budget_O utlook.pdf.

(158) Agence France-Presse, "US Borrowing Tops 100% of GDP: Treasury," August 3, 2011; Matt Phillips, "The U.S. Debt Load: Big and Cheap," *Wall Street Journal*, July 25, 2012.

(159)Tim Mullaney, "A Year After Downgrade, S&P's View on Washington Unchanged," *USA Today*, August 7, 2012.

(160) Jeanne Sahadi, "Washington's $5 Trillion Interest Bill," CNN Money, March 12, 2012, http://money.cnn.com/2012/03/05/news/economy/national-debt-interest/index.htm.

(161) Joseph S. Nye, "Cyber War and Peace," Project Syndicate, April 10, 2012, http://www.project-syndicate.org/ commentary/cyber-war-and-peace.

(162) David Marsh, "The Euro's Lost Promise," New York Times, March 17, 2010; Sven Boll, "New Documents Shine Light on Euro Birth Defects," *Der Spiegel*, May 8, 2012.

(163) Katrin Bennhold, "What History Can Explain About the Greek Crisis," *New York Times*, May 21, 2012.

(164) Jared Diamond, "What Makes Countries Rich or Poor?," *New York Review of Books*, June 7, 2012.

(165) المصدر السابق.

(166) المصدر السابق.

(167) Benedict Anderson, Imagiend Communities, new ed. (New York: Verso, 2006, pp. 39-48.

(168) المصدر السابق.

(169) المصدر السابق.

(170) المصدر السابق.

(171) "Japan Textbook Angers Chinese, Korean Press," BBC News, April 6, 2005, http://news.bbc.co.uk/2/hi/asia-pacific/4416593.stm.

(172) Franz Och, Google Official Blog, "Breaking Down the Language Barrier—Six Years In," April 26, 2012, http://googleblog.blogspot.com/201204//breaking-down-language-barriersix-years.html.

(173) المصدر السابق.

(174) Personal correspondence with Franz Och, Google.

(175) Matt Silverman, "China: The World's Largest Online Population," Mashable, April 10, 2012, http://mashable.com/2012/04/10/china-largest-online-population/; David Teegham, "Chinese to Be Most Popular Language on the Internet," Discovery News, January 2, 2011, http://news.discovery.com/tech/chinese-to-be-m ost-popular-language- on-internet.html.

(176) U.S. Department of State, "Background Note: Belgium," March 22, 2012, http://www.state.gov/r/pa/ei/bgn/2874.htm.

(177) Thomas Hobbes, "Of the Natural Condition of Mankind as Concerning Their Felicity and Misery," *The Leviathan*, 1651; ibid., "Of the Rights of Sovereign by Institution."

(178) "Bosnia and Hercegovina," Lonely Planet, 2008, http://www.lonelyplanet.com/shop_pickandmix/previews/mediterranean-europe-8-bosnia-hercegovina-preview.pdf.

(179) Barney Petrovic, "Serbia Recalls an Epic Defeat," Guardian, June 29, 1989.

(180) المصدر السابق.

(181) "The United States Becomes a World Power," Digital History, http://www.digitalhistory.uh.edu/disp_textbook_print.cfm?smtid=2&psid=3158; Saul David, "Slavery and the 'Scramble for Africa,' " BBC, February 17, 2011, http://www.bbc.co.uk/history/british/abolition/scramble_for_africa_article_01.shtml.

(182) Lieutenant Colonel David A. Haupt, U.S.Air Force, "Narco-Terrorism:An Increasing Threat to U.S. National Security," Joint Forces Staff College, Joint Advanced Warfighting School, 2009.

(183) المصدر السابق.

(184) Joseph E. Stiglitz and Linda J. Bilmes, *The Three Trillion Dollar War: The True Cost of the Iraq Conflict* (New York: Norton, 2008).

(185) Mansoor Moaddel and StuartA. Karabenick, "Religious Fundamentalism among Young Muslims in Egypt and Saudi Arabia," *Social Forces* 86, no. 4 (June 2008).

(186) Thomas Seibert, "Turkey Has a Star Role in More Than Just TV Drama," *National*, February 8, 2012.

(187) Joshua S. Goldstein, *Winning the War on War: The Decline of Armed Conflict Worldwide* (New York: Dutton/Penguin, 2011), pp. 5–6.

(188) المصدر السابق.

(189) *Bulletin of the Pan-American Union* 38, nos. 244–49 (1914), p. 79.

(190) Richard Clarke, "China's Cyberassault on America," *Wall Street Journal*, June 15, 2011.

(191) John Mueller, "Think Again: Nuclear Weapons," *Foreign Policy* no. 177 (January/February 2010); Peter Passell, "The Flimsy Accounting in Nuclear Weapons Decisions," *New York Times*, July 9, 1998.

(192) "A Treaty on Conventional Arms," editorial, *New York Times*, July 9, 2012.

(193) C. J. Chivers, "Small Arms, Big Problems," *Foreign Affairs* 90, no. 1 (January/February 2011): 110–21; Richard F. Grimmett, Congressional Research Service, "Conventional Arms Transfers to Developing Nations, 2003–2010," September 22, 2011, http://fpc.state.gov/documents/organization/174196.pdf.

(194) Sam Roberts, "In Archive, New Light on Evolution of Eisenhower Speech," *New York Times*, December 11, 2010.

(195) Grimmett, "Conventional Arms Transfers to Developing Nations, 2003–2010."

(196) Polly M. Holdorf, "Limited Nuclear War in the 21st Century," Center for Strategic and International Studies, 2010, http://csis.org/files/publication/110916_Holdorf.pdf.

(197) Graham Allison, "Nuclear Disorder," Foreign Affairs 89, no. 1 (January/February 2010): 74–85.

(198) William J. Broad, James Glanz, and David E. Sanger, "Iran Fortifies Its Arsenal with the Aid of North Korea," *New York Times*, November 29, 2010.

(199) Francis Fukuyama, "The Future of History: Can Liberal Democracy Survive the Decline of the Middle Class?," *Foreign Affairs* 91, no. 1 (January/February 2012).

(200) European Strategy and Policy Analysis System, *Global Trends 2030—Citizens in an Interconnected and Polycentric World*, http://www.iss.europa.eu/uploads/media/ESPAS_report_01.pdf.

(201) المصدر السابق.

ببليوغرافيا

بيليوغرافيا

الكتب

Acemoglu, Daron, and James A. Robinson. *Why Nations Fail: The Origins of Power, Prosperity, and Poverty.* New York: Crown Business, 2012.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.* New York: Verso, 2006.

Bakan, Joel. *The Corporation: The Pathological Pursuit of Profit and Power.* New York: Free Press, 2004.

Barker, Graeme. *The Agricultural Revolution in Prehistory: Why Did Foragers Become Farmers?* New York: Oxford University Press, 2009.

Beatty, Jack. *The Age of Betrayal: The Triumph of Money in America, 1865–1900.* New York: Vintage Books, 2008.

Brock, David. *The Republican Noise Machine: Right-Wing Media and How It Corrupts Democracy.* New York: Random House, 2005.

Brown, Lester. *Plan B 4.0: Mobilizing to Save Civilization.* New York: Norton, 2009.

———. *Full Planet, Empty Plates: The New Geopolitics of Food Scarcity.* New York: Norton, 2012.

———. *World on the Edge: How to Prevent Environmental and Economic Collapse.* New York: Norton, 2011.

Brzezinski, Zbigniew. *Strategic Vision: America and the Crisis of Global Power.* New York: Basic Books, 2012.

Buchanan, Allen. *Better than Human: The Promise and Perils of Enhancing Ourselves.* New York: Oxford University Press, 2011.

Carr, Nicholas. *The Shallows: What the Internet Is Doing to Our Brains.* New York: Norton, 2010.

Church, George, and Ed Regis. *Regenesis: How Synthetic Biology Will Reinvent Nature and Ourselves.* New York: Basic Books, 2012.

Coll, Steve. *Private Empire: ExxonMobil and American Power.* New York: Penguin Press, 2012.

Coyle, Diane. *The Weightless World: Strategies for Managing the Digital*

Economy. Oxford: Capstone, 1997.

Diamond, Jared. *Collapse: How Societies Choose to Fail or Succeed.* New York: Viking, 2005.

———. *Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies.* New York: Norton, 1998.

Dobson, Wendy. *Gravity Shift: How Asia's New Economic Powerhouses Will Shape the Twenty-First Century.* Toronto: University of Toronto Press, 2009.

Edsall, Thomas Byrne. *The Age of Àusterity: How Scarcity Will Remake American Politics.* New York: Doubleday, 2012.

Ford, Martin. *Lights in the Tunnel: Automation, Accelerating Technology and the Economy of the Future.* N.p.: Acculant, 2009.

Franklin, Daniel, and John Andrews, eds. *Megachange: The World in 2050.* Hoboken, NJ: Wiley, 2012.

Freeman, Walter J. *How Brains Make Up Their Minds.* New York: Columbia University Press, 2000.

Fukuyama, Francis. *The End of History and the Last Man.* New York: Harper Perennial, 1993.

———. *Our Posthuman Future: Consequences of the Biotechnology Revolution.* New York: Farrar, Straus & Giroux, 2002.

Gazzaniga, Michael. *Human: The Science Behind What Makes Us Unique.* New York: Harper Collins, 2008.

Goldstein, Joshua S. *Winning the War on War: The Decline of Armed Conflict Worldwide.* New York: Dutton/Penguin, 2011.

Gore, Al. *The Assault on Reason.* New York: Penguin Press, 2007.

———. *Earth in the Balance: Ecology and the Human Spirit.* Boston: Houghton Mifflin, 1992.

———. *An Inconvenient Truth: The Planetary Emergency of Global Warming and What We Can Do About It.* Emmaus, Pa.: Rodale, 2006.

———. *Our Choice: A Plan to Solve the Climate Crisis.* Emmaus, Pa.: Rodale, 2009.

Hacker, Joseph S., and Paul Pierson. *Winner-Take-All Politics: How*

Washington Made the Rich Richer—and Turned Its Back on the Middle Class. New York: Simon & Schuster, 2011.

Haidt, Jonathan. *The Religious Mind: Why Good People Are Divided by Politics and Religion.* New York: Pantheon Books, 2012.

Hansen, James. *Storms of My Grandchildren: The Truth About the Coming Climate Catastrophe and Our Last Chance to Save Humanity.* New York: Bloomsbury USA, 2009.

James, Harold. *The Creation and Destruction of Value: The Globalization Cycle.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2009.

Johnson, Steven. *Emergence: The Connected Lives of Ants, Brains, Cities and Software.* New York: Scribner, 2001.

Jones, Steven E. *Against Technology: From the Luddites to Neo-Luddism.* New York: Routledge, 2006.

Kagan, Robert. *The World America Made.* New York: Knopf, 2012.

Kaku, Michio. *Physics of the Future: How Science Will Shape Human Destiny and Our Daily Lives by the Year 2100.* New York: Doubleday, 2011.

———. *Visions: How Science Will Revolutionize the 21st Century.* New York: Anchor Books, 1997.

Kaplan, Robert D. *The Revenge of Geography: What the Map Tells Us About Coming Conflicts and the Battle Against Fate.* New York: Random House, 2012.

Kelly, Kevin, *What Technology Wants.* New York: Viking, 2010.

Klare, Michael T. *The Race for What's Left: The Global Scramble for the World's Last Resources.* New York: Metropolitan Books, 2012.

Korten, David C. *When Corporations Rule the World.* Bloomfield, CT: Kumarian Press, 1995.

Kupchan, Charles A. *No One's World: The West, the Rising Rest, and the Coming Global Turn.* New York: Oxford University Press, 2012.

Kurzweil, Ray. *The Age of Spiritual Machines: When Computers Exceed Human Intelligence.* New York: Penguin, 1999.

———. *The Singularity Is Near: When Humans Transcend Biology.* New York:

Penguin, 2006.

Lanier, Jaron. *You Are Not a Gadget: A Manifesto*. New York: Knopf, 2010.

Lessig, Lawrence. *Republic, Lost: How Money Corrupts Congress—and a Plan to Stop It*. New York: Twelve, 2011.

Lovins, Amory. *Reinventing Fire: Bold Business Solutions for the New Energy Era*. White River Junction, VT: Chelsea Green, 2011.

Luce, Edward. *Time to Start Thinking: America in the Age of Descent*. New York: Atlantic Monthly Press, 2012.

McKibben, Bill. *Eaarth: Making a Life on a Tough New Planet*. New York: Times Books, 2010.

———. *The Global Warming Reader*. New York: Penguin Books, 2012.

McLuhan, Marshall. *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man*. Toronto: University of Toronto Press, 1962.

———. *Understanding Media: The Extensions of Man*. Cambridge, MA: MIT Press, 1994.

Meyer, Christopher, and Stan Davis. *It's Alive: The Coming Convergence of Information, Biology and Business*. New York: Crown Business, 2003.

Moreno, Jonathan D. *The Body Politic: The Battle Over Science in America*. New York: Bellevue Literary Press, 2011.

Morowitz, Harold J. *The Emergence of Everything: How the World Became Complex*. New York: Oxford University Press, 2002.

Moyo, Dambisa. *Winner Take All: China's Race for Resources and What It Means for the World*. New York: Basic Books, 2012.

Naisbitt, John. *Megatrends: Ten New Directions Transforming Our Lives*. New York: Warner Books, 1982.

Nye, Joseph S., Jr. *The Future of Power*. New York: PublicAffairs, 2011.

Olson, Mancur. *The Rise and Decline of Nations: Economic Growth, Stagflation, and Social Rigidities*. New Haven, CT: Yale University Press, 1982.

Otto, Shawn Lawrence. *Fool Me Twice: Fighting the Assault on Science in*

America. New York: Rodale, 2011.

Owen, David. *Green Metropolis: Why Living Smaller, Living Closer, and Driving Less Are the Keys to Sustainability*. New York: Riverhead Books, 2009.

Pagel, Mark. *Wired for Culture: Origins of the Human Social Mind*. New York: Norton, 2012. Polak, Fred. *The Image of the Future*. Amsterdam: Elsevier Scientific, 1973.

Postman, Neil. *Amusing Ourselves to Death*. New York: Viking, 1985.

Reich, Robert. *Aftershock: The Next Economy and America's Future*. New York: Knopf, 2010.

Rifkin, Jeremy. *The Empathic Civilization: The Race to Global Consciousness in a World in Crisis*. New York: Penguin, 2009.

———. *The End of Work: The Decline of the Global Labor Force and the Dawn of the Post-Market Era*. New York: Putnam, 1995.

———. *The Third Industrial Revolution: How Lateral Power Is Transforming Energy, the Economy, and the World* . New York: Palgrave Macmillan, 2011.

Rothkopf, David. *Power, Inc.: The Epic Rivalry Between Big Business and Government—and the Reckoning That Lies Ahead*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2012.

Salk, Jonas. *The Survival of the Wisest*. New York: Harper & Row, 1973.

Sandel, Michael J. *What Money Can't Buy: The Moral Limits of Markets*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2012.

Schor, Juliet B. *The Overworked American: The Unexpected Decline of Leisure*. New York: Basic Books, 1991.

———. *True Wealth: How and Why Millions of Americans Are Creating a Time-Rich, Ecologically Light, Small-Scale, High-Satisfaction Economy*. New York: Penguin Books, 2011.

Seager, Joni. *The Penguin Atlas of Women in the World*. New York: Penguin Books, 2009.

Seung, Sebastian. *Connectome: How the Brain's Wiring Makes Us Who We Are*. Boston: Houghton Mifflin Harcourt, 2012.

Singer, P. W. *Wired for War: The Robotics Revolution and Conflict in the 21st Century*. New York: Penguin Press, 2009.

Singh, Simon. *The Code Book: The Science of Secrecy from Ancient Egypt to Quantum Cryptography*. New York: Doubleday, 1999.

Spence, Michael. *The Next Convergence: The Future of Economic Growth in a Multispeed World*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2011.

Speth, James Gustave. *America the Possible: Manifesto for a New Economy*. New Haven, CT: Yale University Press, 2012.

Stiglitz, Joseph E. *The Price of Inequality: How Today's Divided Society Endangers Our Future*. New York: Norton, 2012. Teilhard de Chardin, Pierre. *The Future of Man*. New York: Harper & Row, 1964.

———. *The Phenomenon of Man*. New York: Harper, 1959.

Toffler, Alvin. *Future Shock*. New York: Random House, 1970.

Topol, Eric. *The Creative Destruction of Medicine: How the Digital Revolution Will Create Better Health Care*. New York: Basic Books, 2012.

Turkle, Sherry. *Alone Together: Why We Expect More from Technology and Less from Each Other*. New York: Basic Books, 2011.

Vollmann, William T. *Uncentering the Earth: Copernicus and the Revolutions of the Heavenly Spheres*. New York: Norton, 2006.

Washington, Harriet A. *Deadly Monopolies: The Shocking Corporate Takeover of Life Itself—and the Consequences for Your Health and Our Medical Future*. New York: Doubleday, 2011.

Weart, Spencer. *The Discovery of Global Warming*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003. Wells, H. G. *World Brain*. London: Ayer, 1938.

Wilson, E. O. *The Social Conquest of Earth*. New York: Liveright, 2012.

Wolfe, Nathan. *The Viral Storm: The Dawn of a New Pandemic Age*. New York: Times Books, 2012.

المقالات

Alterman, Jon. "The Revolution Will Not Be Televised." Middle East Notes and Comment, Center for Strategic and International Studies, March 2011.

Archer, David, and Victor Brovkin. "The Millennial Atmospheric Lifetime of Anthropogenic CO_2." *Climatic Change* 90 (2008): 283–97.

Barnosky, Anthony, et al. "Has the Earth's Sixth Mass Extinction Already Arrived?" *Nature*, March 2011.

Bartlett, Bruce. " 'Starve the Beast': Origins and Development of a Budgetary Metaphor." *Independent Review*, Summer 2007.

Bergsten, C. Fred. "Two's Company." *Foreign Affairs*, September/October 2009.

Bisson, Peter, Elizabeth Stephenson, and S. Patrick Viguerie. "The Global Grid." *McKinsey Quarterly*, July 26, 2011.

Blaser, Martin. "Antibiotic Overuse: Stop the Killing of Beneficial Bacteria." *Nature*, August 25, 2011.

Bohannon, John. "Searching for the Google Effect on People's Memory." *Science*, July 15, 2011.

Bostrom, Nick. "A History of Transhumanist Thought." *Journal of Evolution and Technology* 14 (April 2005).

Bowden, Mark. "The Measured Man." *Atlantic*, July/August 2012.

Bowley, Graham. "The New Speed of Money, Reshaping Markets." *New York Times*, January 2, 2011.

Bradford, James. "The NSA Is Building the Country's Biggest Spy Center (Watch What You Say)." *Wired*, March 15, 2012.

Carmody, Tim. "Google Co-founder: China, Apple, Facebook Threaten the 'Open Web.' " *Wired*, April 16, 2012.

Caruso, Denise. "Synthetic Biology: An Overview and Recommendations for Anticipating and Addressing Emerging Risks." *Science Progress*, November 12, 2008, http://ssienceprogress.org/2008/11/synthetic-bbiology/.

Caryl, Christian. "Predators and Robots at War." *New York Review of Books*, August 30, 2011.

Cookson, Clive. "Synthetic Life." *Financial Times*, July 27, 2012.

Council on Foreign Relations. "The New North American Energy Paradigm: Reshaping the Future." June 27, 2012.

Cudahy, Brian J. "The Containership Revolution: Malcolm McLean's 1956 Innovation Goes Global." *Transportation Research News*, Transportation Research Board of the National Academies, no. 246 (September / October 2006).

Day, Peter. "Will 3D Printing Revolutionise Manufacturing?" BBC, July 27, 2011.

Diamond, Jared. "What Makes Countries Rich or Poor?" *New York Review of Books*, June 7, 2012.

Diamond, Larry. "A Fourth Wave or False Start?" *Foreign Affairs*, May 22, 2011.

———. "Liberation Technology." *Journal of Democracy* 21, no. 3 (July 2010).

Dunbar, R.I.M. (1993). "Coevolution of Neocortical Size, Group Size and Language in Humans." *Behavioral and Brain Sciences* 16, no. 4 (1993): 681–735.

Economist. "The Dating Game." December 27, 2011.

———. "Hello America." August 16, 2010.

———. "How Luther Went Viral." December 17, 2011.

———. "No Easy Fix." February 24, 2011.

———. "The Printed World." February 10, 2011.

———. "The Third Industrial Revolution." April 21, 2012.

———. "Unbottled Gini." January 20, 2011.

Etling, Bruce, Robert Faris, and John Palfrey. "Political Change in the Digital Age: The Fragility and Promise of Online Organizing." *SAIS Review* 30, no. 2 (2010).

Evans, Dave. "The Internet of Things." Cisco Blog, July 15, 2011.

Farrell, Henry, and Cosma Shalizi. "Cognitive Democracy." *Three-Toed Sloth*, May 23, 2012.

Feldstein, Martin. "China's Biggest Problems Are Political, Not Economic." *Wall Street Journal*, August 2, 2012.

Fernandez-Cornejo, J., and M. Caswell. "The First Decade of Genetically Engineered Crops in the United States." U.S. Department of Agriculture, Economic Research Service, 2006.

Financial Times. "Job-Devouring Technology Confronts US Workers." December 15, 2011.

Fineberg, Harvey. "Are We Ready for Neo-Evolution?" TED Talks, 2011.

Fishman, Ted. "As Populations Age, a Chance for Younger Nations." *New York Times Magazine*, October 17, 2010.

Fortey, Richard A. "Charles Lyell and Deep Time." *Geoscientist* 21, no. 9 (October 2011).

Fox, Justin. "What the Founding Fathers Really Thought About Corporations." *Harvard Business Review*, April 1, 2010.

Freeman, David. "The Perfected Self." *Atlantic*, June 2012.

Generation Investment Management. "Sustainable Capitalism." February 15, 2012. http://www. generationim.com/mmmmmm mmmmm media/pdf-generation-sustainable-capitalism-v1.pdf.

Gillis, Justin. "Are We Nearing a Planetary Boundary." *New York Times*, June 6, 2012.

———. "A Warming Planet Struggles to Feed Itself." *New York Times*, June 6, 2011.

Gladwell, Malcolm. "Small Change: Why the Revolution Will Not Be Tweeted." *New Yorker*, October 4, 2010.

———. "The Tweaker." *New Yorker*, November 14, 2011.

Grantham, Jeremy. "Time to Wake Up: Days of Abundant Resources and Falling Prices Are Over Forever." *GMO Quarterly Letter*, April 2011.

Gross, Michael Joseph. "Enter the Cyber-Dragon." *Vanity Fair*, September 2011.

———. "World War 3.0." *Vanity Fair*, May 2012.

Haidt, Jonathan. "Born This Way? Nature, Nurture, Narratives, and the Making of Our Political Personalities." *Reason*, May 2012.

Hansen, James, et al. "Perception of Climate Change." *Proceedings of the National Academy of Sciences*, August 2012.

Harb, Zahera. "Arab Revolutions and the Social Media Effect." M/C Journal [Media/Culture Journal] 14, no. 2 (2011). Hillis, Danny. "Understanding Cancer Through Proteomics." TEDMED 2010, October 2010.

Huntington, Samuel P. "The U.S.—Decline or Renewal?" *Foreign Affairs*, Winter 1988/1989.

Ikenson, Daniel J. "Made on Earth: How Global Economic Integration Renders Trade Policy Obsolete." Cato Trade Policy Analysis No. 42, December 2, 2009.

International Monetary Fund. World Economic Outlook. September 2011.

Joffe, Josef. "Declinism's Fifth Wave." *American Interest*, January/February 2012.

Johnson, Toni. "Food Price Volatility and Insecurity." Council on Foreign Relations, August 9, 2011. Kagan, Robert. "Not Fade Away." *New Republic*, January 11, 2012.

Kaufman, Edward E., Jr., and Carl M. Levin. "Preventing the Next Flash Crash." *New York Times*, May 6, 2011.

Keim, Brandon. "Nanosecond Trading Could Make Markets Go Haywire." *Wired*, February 16, 2012.

Kennedy, Pagan. "The Cyborg in Us All." *New York Times Magazine*, September 18, 2011.

Kleiner, Keith. "Designer Babies—Like It or Not, Here They Come." Singularity Hub, February 25, 2009.

Kristof, Nicolas D. "America's 'Primal Scream.' " *New York Times*, October 15, 2011.

Krugman, Paul. "We Are the 99.9%." *New York Times*, November 24, 2011.

Kuznetsov, V. G. "Importance of Charles Lyell's Works for the Formation of Scientific Geological Ideology." *Lithology and Mineral Resources* 46, no. 2 (2011): 186–97.

Lavelle, Marianne. "The Climate Change Lobby Explosion." Center for Public Integrity, February 24, 2009.

Levinson, Marc. "Container Shipping and the Economy." *Transportation Research News*, Transportation Research Board of the National Academies, no. 246 (September / October 2006).

Lewis, Mark. "The History of the Future." *Forbes*, October 15, 2007.

MacKenzie, Donald. "How to Make Money in Microseconds." *London Review of Books*, May 19, 2011. MacKinnon, Rebecca. "Internet Freedom Starts at Home." *Foreign Policy*, April 3, 2012.

Macklem, Peter T. "Emergent Phenomena and the Secrets of Life." *Journal of Applied Physiology* 104 (2008): 1844–46.

Madrigal,Alexis. "I'm Being Followed: How Google—and 104 Other Companies—Are Tracking Me on the Web." *Atlantic*, February 29, 2012.

Markoff, John. "Armies of Expensive Lawyers, Replaced by Cheaper Software." *New York Times*, March 5, 2011.

———. "Cost of Gene Sequencing Falls, Raising Hopes for Medical Advances." *New York Times*, March 8, 2012.

———. "Google Cars Drive Themselves, in Traffic." *New York Times*, October 10, 2010.

McKibben, Bill. "Global Warming's Terrifying New Math." *Rolling Stone*, July 2012.

Milojević, Ivana. "A Selective History of Futures Thinking." Ph.D. diss., University of Queensland, 2002.

Mooney, Chris. "The Science of Why We Don't Believe Science." *Mother Jones*, June 2011.

Moore, Stephen, and Julian L. Simon. "The Greatest Century That Ever Was: 25 Miraculous Trends of the Past 100 Years." Cato Policy Analysis No. 364, December 15, 1999.

New York Times. "Dow Falls 1,000, Then Rebounds, Shaking Market." May 7, 2010.

Nisbet, Robert. "The Idea of Progress." *Literature of Liberty: A Review of Contemporary Liberal Thought* 2, no. 1 (1979).

Noah, Timothy. "Introducing the Great Divergence." *Slate*, September 3, 2010.

———. "Think Cranks." *New Republic*, March 30, 2012.

Nye, Joseph S. "Cyber War and Peace." Project Syndicate, April 10, 2012.

Organisation for Economic Co-operation and Development. "Divided We Stand: Why Inequality Keeps Rising." December 2011.

Peters, Glen, et al. "Rapid Growth in CO_2 Emissions After the 2008–2009 Global Financial Crisis." *Nature Climate Change*, 2011.

Purdum, Todd. "One Nation, Under Arms." *Vanity Fair*, January 2012.

Rosen, Jeffrey. "POTUS v. SCOTUS." *New York*, March 17, 2010.

Salvaris, Mike. "The Idea of Progress in History: Future Directions in Measuring Australia's Progress." Australian Bureau of Statistics, 2010.

Sargent, John F., Jr. "Nanotechnology: A Policy Primer." Congressional Research Service, April 13, 2012.

Speth, James Gustave. "America the Possible: A Manifesto, Part I." *Orion*, March/April 2012.

Steiner, Christopher. "Wall Street's Speed War." *Forbes*, September 27, 2010.

Steinhart, Eric. "Teilhard de Chardin and Transhumanism." *Journal of Evolution and Technology* 20, no. 1 (December 2008).

Stern, Nicholas. "The Economics of Climate Change: The Stern Review." *Population and Development Review* 32 (December 2006).

Stiglitz, Joseph E. "Of the 1%, by the 1%, for the 1%." *Vanity Fair*, May 2011.

Trenberth, Kevin. "Changes in Precipitation with Climate Change." *Climate Research* 47 (2010).

Trivett, Vincent. "25 US Mega Corporations: Where They Rank If They Were Countries." *Business Insider*, June 27, 2011.

Vance, Ashlee. "3-D Printing Spurs a Manufacturing Revolution." *New York Times*, September 14, 2010.

Walt, Steven M. "The End of the American Era." *National Interest*, October 25, 2011.

Wilford, John Noble. "Who Began Writing? Many Theories, Few Answers." *New York Times*, April 6, 1999.

Wilson, Daniel H. "Bionic Brains and Beyond." *Wall Street Journal*, June 1, 2012.

Wilson, E. O. "Why Humans, Like Ants, Need a Tribe." *Daily Beast*, April 1, 2012.

Worstall, Tim. "Six Waltons Have More Wealth than the Bottom 30% of Americans." *Forbes*, December 14, 2011.

Zhang, David, and Harry Lee. "The Causality Analysis of Climate Change and Large-Scale Human Crisis." *Proceedings of the National Academy of Sciences* 108 (March 2011): 17296–301.

Zimmer, Carl. "Tending the Body's Microbial Garden." *New York Times*, June 18, 2012.

المؤلفة في سطور

آل غور

- نائب الرئيس الأمريكي السابق (1993 – 2001).
- المؤسس المشارك ورئيس مجلس إدارة لكل من شركة إدارة استثمار الجيل وشركة كَرْنت تي. في. (تلفزيون الآن). وهو أيضا شريك بارز في كلينر بيركنز كوفيلد أند بايرز، وعضو في مجلس إدارة شركة آبل.
- يقضي معظم وقته في منصبه رئيسا لمشروع واقع المناخ، وهو مشروع غير ربحي مخصص لحل أزمة المناخ.
- سبق أن انْتُخِب غور لمجلس النواب الأمريكي أربع مرات ولمجلس الشيوخ الأمريكي مرتين.
- ألف عددا من الكتب الأكثر مبيعا وهي: «الأرض في كفة الميزان»، و«الحقيقة المُرَّة»، و«الاعتداء على العقل»، و«خيَارُنا».
- حصل مناصفة على جائزة نوبل للسلام في العام 2007.

المترجم في سطور

عدنان جرجس

- حصل على إجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة حلب في سورية العام 1980، ونال شهادتي الماجستير والدكتوراه في علمي الصرف والنحو من جامعة مانشستر في إنجلترا (1991/1986). كما حصل على شهادة «ترجمان محلّف» من وزارة العدل في دمشق، سورية العام 1996.
- درّس في كلية الآداب في جامعة حلب (1991 - 1996)، وكلية اللغات والترجمة في جامعة الملك سعود في الرياض، السعودية (1996 - 2000)، ويعمل أستاذا للغة الإنجليزية والترجمة في كلية الآداب - جامعة الكويت منذ العام 2000 حتى الآن.

- ترجم كتاب مؤسسة فيليبس «دليل جسم الإنسان» الصادر في العام 2012 عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، كما ترجم كتاب مؤسسة براون بير «الثورة العلمية» الصادر أيضا عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في العام 2014.

- عمل مترجما فوريا في العديد من المؤتمرات العلمية والاقتصادية والتجارية والجمركية والمصرفية والأكاديمية في دولة الكويت، ونال عددا كبيرا من الشهادات التقديرية لجهوده في مجال الترجمة الفورية في دولة الكويت.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك). الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ــ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة والمترجمة ـ من نسختين مطبوعتين.

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ – الحرة – قسيمة 34 – الكويت – الشويخ – ص.ب 64185 – الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية – الرياض – حي المؤتمرات – طريق مكة المكرمة – ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية – دمشق – البرامكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية – القاهرة – 6 شارع الصحافة – ص.ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب – الرباط – ص.ب 13683 – زنقه سجلماسه – بلفدير – ص.ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس – ص.ب 719 – 3 نهج المغرب – تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان – بيروت – خندق الغميق – شارع سعد – بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية – صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان – تلاع العلي – بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	——	+973 17 617733	——
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 – مسقط – الرمز البريدي 130 – العذيبة – سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر – الدوحة – ص.ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله – عين مصباح – ص.ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان – الخرطوم – الرياض – ش المشتل – العقار رقم 52 – مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	——	+964 700776512 +964 780662019	——
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	——	+218 217297779	——

تنويـــه

للاطـلاع علـى قائمـة كتـب السلسـلة انظـر عدد ديسـمبر (كانـون الأول) مـن كل سـنة، حيـث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة في السلسلة منذ يناير 1978.

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د . ك
للمؤسسات	25 د . ك

دول الخليج

للأفراد	17 د . ك
للمؤسسات	30 د . ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقدا أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1196/ 1195/ 1194/ 1153/1193/ 1152

قسيمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

البيان	سلسلة عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسات داخل الكويت	25		12		12		20		12	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		8	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24			36
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12			24
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		48
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		36
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		36
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		24

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م

هذا الكتاب...

إن زمننا هو زمن التغيير الثوري الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ. وبالحماس نفسه الـذي قدمه في تحدي التغير المناخـي وبتجربته المديدة على مـدار عقود من الزمن في الخطوط الأمامية للسياسـة العالمية، يسـتعرض آل غور الآفاق الضبابية لمستقبل الأرض، ويقدم توقعات مدروسـة وجدية ومفعمة بالأمل في كتابه «المسـتقبل» الذي يحدِّد فيه ستة محركات أساسية للتغيير العالمي:

• أدت العولمة الاقتصادية المتزايدة باستمرار إلى نشوء ما سمّاه «شركة الأرض» - التي تعتـبر في نظره كيانـا كُليا متكاملا له علاقة جديدة ومختلفة عـن الماضي مع رأس المال، والعمل، والأسواق الاستهلاكية، والحكومات والوطنية.

• أدت الاتصـالات الرقميـة في جميع أنحاء العالم والإنترنت، وثورات الحاسـوب إلى ظهور «العقـل العالمي»، الذي يربط بين الأفكار والأحاسـيس لمليارات البشر، كما يربط الآلات الذكية، والروبوتات، وأجهزة الاستشعار المنتشرة في كل مكان، وقواعد البيانات.

• ميزان القوى السياسـية والاقتصادية والعسكرية العالمية يتحول بعمق أكثر من أي وقت مضى في السـنوات الخمسمائة الأخيرة - من النظام المركزي في الولايات المتحدة إلى نظام يمتلك مراكز ناشـئة متعددة للسلطة، ومن الحكومات الوطنية إلى الجهات الفاعلة في القطاع الخاص، ومن النظم السياسية إلى الأسواق.

• تقودنـا البوصلة الاقتصاديـة المعطّلة والمصابة بالخلل إلى النمو غير المسـتدام في الاسـتهلاك، وتدفقات التلوث، واسـتنفاد الموارد الإسـتراتيجية لكوكب الأرض من التربة السطحية، والمياه العذبة، وأصناف الكائنات الحية.

• الجينوم، والتكنولوجيا الحيوية، وعلم الأعصاب، وثورات علوم الحياة تتحول بشكل جـذري في مجالات الطب والزراعة والعلوم الجزيئية - وتضع مفاتيح التحكم بالتطور في أيدي الإنسان.

• كان هنـاك اختلال جذري في العلاقة بين البشر والنظم الإيكولوجية الأرضية، جنبا إلى جنـب مع بدايـة التحول الثوري لأنظمة الطاقة، والزراعـة، والنقل، والبناء في جميع أنحاء العالم.

ومنذ الأيام الأولى لانخراطه في الشـأن العـام، كان آل غور يحذِّر من وعود الحقائق الناشئة ومخاطرها مهما بدت «مُرَّة» بالنسبة إلينا.

كتاب «المسـتقبل»، بكل ما يحمله من عمق وبصيرة، يرسـم صورة للعالم المقبل من وجهة نظر رجل استشرف آفاق المستقبل في السابق، وقد ثبت أنه كان على صواب مبين.

ISBN 978-99906-0-449-8
رقم الإيداع (2015/189)